

البيت والعالم

روايات المهملات



** معرفتي **

me3refaty.maktoobblog.com

رابطہ درانات طاغور

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

يصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٢٨ - فبراير ١٩٧٧ - صفر ١٣٩٧
No. 338 - February 1977

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

سكرتيرة تحرير : موسى عيد

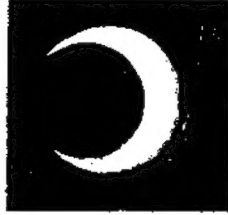
المدير الفني : أحمد فناضل

المشرف الفني : جمال قطب

بيانات إدارية

عن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليماً ، عن الكميات المرسلة بالطائرة - في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشاً ، في الأردن ٢٠٠ فلساً ، في العراق ٣٠٠ فلساً - في الكويت ٣٠٠ فلساً - في السعودية ٣٥٠ ريال سعودي
قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عدداً » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحاد البريد العربي والافريقي ١٥٠ قرشاً صاغاً - في سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٣٥٠ جك والقيمة تسدد مقدماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . وفي الخارج بشيك سرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية .
والاستثمار الموضحة أعلاه بالبريد العادي - وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجلة على الأسعار المحددة عند الطلب .

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

البيت

9

العالم

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

بقام

رابند رانات طاغور

ترجمة

دكتور شكري محمد عياد

•

دار اهل لال

طاغور الشاعر الانسان

تحتفل البشرية كلها في هذه الأيام بالشاعر الفذ الذى سخر قلمه لخدمة الانسان وتثبيت حقوقه - وهو عرفان خليق أن شارك فيه بقلبه كل انسان يؤمن بنفسه وبقيمته ، ومن ثم فليس عجيبا أن تجتمع القلوب على احياء ذكرى الشاعر الانسان رابندراناث طاغور في كل بقاع الأرض ، فلقد كان طاغور المنافع عن الانسان في كل مكان بذوب قلبه وعصارة ذهنه ، لا يعرف في دفاعه حدودا ولا سدودا ، ولا يفرق في تقديره للانسان بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين دين ودين . كان الانسان عنده هو الانسان في أية صورة ركب وفي أى أرض نشيء . كان يرى الانسان قدسيا لأنه الصورة التى تتجلى فيها قدرة القادر وعظمة الخالق على الأرض - كان يحب الانسان - أى انسان - ويقدر حقه ويجهد في سبيله . لم يفقد قط حتى في أحلك ساعات حياته إيمانه بالانسان ولم ين قط عن السعى الدائب في سبيل تحقيق سعادة الانسان .

تلكم المزية التى انفرد بها طاغور هى التى جعلت الأبصار كلها تتجه اليه في هذه الأيام لتنفض عن ذكره غبار السنوات التى مرت ، ولتعيد الى الأذهان عهد الذى كتبه في أخريات أيامه وتركه تراثا حيا خالدا للانسانية لتأمل فيه كلما حزبها الأمر واشتد بها الخطب وأحلولكت الظلمات ، ظلمات المادة التى ارتكست فيها البشرية من أسف منذ سنوات طوال . لعل صيحة هذا الشاعر من وراء الأبدية تجد من يصيخ لها السمع ويفتح لها القلب عن ايمان بها فيعمل على أن يعيد للبشرية اتزانها وإيمانها بالقيم الانسانية التى تحتفى بالمادة وتقدر الروح حق قدرها بلا أسراف في الأولى أو تطيف في الثانية .. لقد كتب طاغور في رسالته الأخيرة يقول :

« مهما يكن من شيء فاني لن ارتكب الخطيئة الخطيرة :
خطيئة فقدان الايمان بالانسان ، والرضوخ للهزيمة التي حاقت بنا
في الوقت الحاضر على اعتبارها نهائية وحاسمة . بل سأظل
أتطلع بأمل الى تحول في مجرى التاريخ ، وبعد أن تنجاب هذه
الفئة الجائمة وتصفر السماء ثانية وتهدا . وربما بزغ الفجر الجديد
من أفقنا هذا ، أفق الشرق ، حيث تشرق الشمس . وعندئذ
تهب روح الانسان التي لم تهزم لتقوده من جديد الى طريقه ،
طريق التقدم رغم كل العوائق ، ليسترد تراثه الضائع » .

هذه الرسالة : رسالة الايمان بالانسان وبروح الانسان ،
والايمان بأن البعث الجديد سيأتي من الشرق .. هي التي تغنى
بها طاغور في شعره وموسيقاه وهي التي تمثل لب فلسفته كلها -
هذه النبوءة التي أرسلها هذا العبقري بعد أن كشف أسرار
الوجود بنغماته التي أستوحاها من قلب الطبيعة الذي نفذ اليه
ببصره واستكنه حقائقه ببصيرته واخلصه .. قد بدأت تتحقق ،
وأخذ الشرق ينتفض انتفاضات أيقظت شعوبه من غفوة رانت
عليها ، فهبت تبدد الغيوم الحالكة التي خيمت في سمائها ،
وترسل قبسات من الضوء الكاشف تؤذن بانبلاج الفجر وبزوغ
النور الهادي من قلب المشرق ليهدى البشرية ويقودها الى الطريق
السديد الذي بشر به طاغور ... وانه لتوفيق أي توفيق أن
يتسنى الشرق مكان الهداية الى الحق والخير والجمال في هذه
الأيام التي يكتمل فيها قرن على مولد شاعر الانسان والحق والخير
والجمال رابندراناث طاغور .

من أجل هذه المعاني ومن أجل هذه الدعوة الى تقديس
الانسان ورعاية حقه يحتفل الشرق والغرب بذكرى طاغور ..
وطاغور نسيج وحده ، فقد جمع الى حكمة الشرق ثقافة الغرب .
والى عراقية الأصل وشرف المحتد الايمان العميق بالشعب وبالجماعة
الانسانية ، والى زكاة القلب ورجاحة العقل وذلاقة اللسان وطيب
المعشر والى علو المكانة ، شرف الجهاد من أجل حرية بلاده
واستقلالها . وهو بهذا كله قد احتل مكانا فريدا في تاريخ الهند
الحديث ، بل وفي تاريخ الشرق كله ، حتى استحق بحق أن ينعت
بأنه أعظم فنان في العصر الحديث ، وأن تخلع عليه جائزة نوبل في
عام ١٩١٤ .

لقد ولد طاغور في السابع من شهر مايو سنة ١٨٦١ ، بمدينة كلكتا في أسرة موسرة ذائعة الصيت ذات تاريخ مجيد وجذور عميقة في عالم الثقافة ودنيا الأدب والسياسة . فكان جده راعيا للفنون والآداب في عصره ، وكان أبوه من أعظم المصلحين الاجتماعيين ، وكان من أسرته النابغون في الرسم والموسيقى والأدب .. هذا التراث الثقافي الوفير العناء الذي أخذه أبوه عن آبائه وأجداده مضافا الى مواهبه الفريدة قد خلق منه عبقريا فذا متعدد الجوانب مكتمل النبوغ ، وهياً له التحليق في كل ميدان الى القمة ، فكان بين الشعراء أفحلهم ، وبين المسرحيين أنبغهم ، وبين الفنانين أرقهم ، وبين الموسيقيين أحلامهم ترجيعا ، وبين المصلحين أشجعهم رأيا وأدقهم بصرا بالأمور ، وبين المربين أعلمهم ، وبين الوطنيين أكثرهم جهادا وأعمقهم إيمانا بحقوق وطنه ، وبين المتحدثين أكثرهم جاذبية وأشدّهم اقناعا - لقد اكتملت في يده أداة الفن في شتى صورها ، فأرسل الأغاني تنساب حلوة النغم حافلة بالمعاني لتنفذ الى القلوب وتستولي على الأبواب - كان يتميز بفكر موسيقي وقلب موسيقي فجاءت كلماته موسيقي عذبة تستمد أنغامها من غناء الطبيعة الساحرة في كل مظاهرها .

لقد ترك طاغور لمحبى الفن والأدب أكثر من ألف قصيدة وأكثر من ألفي أغنية بالإضافة الى عديد القصص القصيرة والطويلة ، والمسرحيات والمقالات والبحوث التى عالجت موضوعات كثيرة ومختلفة ، فهو في إنتاجه من حيث الكم لا يباريه شاعر آخر ، ومن حيث الكيف لا يرقى الى مستواه الا قلة من العباقرة - على ان إنتاج طاغور لم يقف عند هذا الحد ، فالشعر والأدب لم يستنفدا كل طاقاته الكامنة العارمة فعمد الى الموسيقى يؤلف فيها ويفرغ بعض طاقاته ، والى الرسم ينفس عن بعض مكنون طاقاته الفنية ، ومن عجب انه بدأ يرسم وهو في السبعين من عمره ، ومع ذلك أنتج أكثر من ثلاثة آلاف لوحة بعضها فريد في كماله الفنى .

هذا التنوع الفذ قلما اجتمع لشخص واحد ، ولكنه اجتمع في طاغور ، لأن طاغور كان يؤمن بالحياة ويحبها ولا يزهد فيها ، كان يهب نفسه للكون باعتباره جزءا منه ، فعرف الكون وعرف الحياة ، وتفتحت له أسرار الوجود بالايمان والحب والعمل ..

هذا الانسان الفريد الذى كرس حياته للانسان ، واستلهم شعره من روح الانسان ، ومن رسالة خالق الكون للبشرية جمعاء ، ومن ايمانه العميق بأن كلمة الله العليا ورسالته للبشرية لن تدرك حق الإدراك الا حين تسود الحرية وتحقق العدالة الاجتماعية ، هذا الانسان المؤمن بحق كل منا فى الحرية والعدالة الاجتماعية ، من حقه علينا وعلى الانسانية التى وجه ضراعاته الى مالك الملك لينقذها من مسالك الضلال ويهديها الى الصراط المستقيم ، والتى أرسل أغانيه وأشعاره ليوقظها من سباتها وينهضها من كبوتها ، من حقه علينا فى ذكره المئوية أن نعيد قراءة فيض خواطره ، وأن نردد أشعاره وأغانيه ، وأن نلقنها أبناءنا ونملأ بها جوانحهم ، ليشبوا مؤمنين برسالته عاملين على تحقيقها .

ووفاء لهذا الحق تصدر الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم هذه المختارات من مقطوعاته الشعرية وهى الهلال وشيترا وجيتنجالى والبستانى وجنى الثمار ومكتب البريد والبيت والعالم وهى ترجو بهذا أن تكون قد أسهمت فى احياء ذكرى هذا العبقري . فليس أحفظ للذكرى من احياء فكر العظيم بمداومة قراءته حتى يستقر فى النفس ايماننا ويحفز للعمل من أجل الحرية والسلام ورعاية حقوق الانسان : تلك المبادئ التى آمن بها طاغور ودعا اليها فى :

- * أيتها الأمم الفتية هبى وأعلنى صيحة الجهاد من أجل الحرية
- * وارفعى راية الايمان الفلاب الذى لا يقهر
- * وأقيمى من حياتك معبرا يرأب صدع الأرض التى مزقتها
- الأحقاد والاحن .
- * ثم سبرى للأمام ..

مصطفى حبيب

الفصل الأول

حكاية بيمالا

- ١ -

اماه ! ترتسم في ذهني اليوم صورة الطابع القاني (١) على مفرق شعرك ، والساري الذي تعودت أن ترتديه ، بحاشيته الحمراء العريضة ، وعينيك هاتين العجيبتين ، ملؤهما عمق وسلام . ترتسم في ذهني وأنا على أول الطريق في رحلة حياتي ، كأنها أول خيط من خيوط الفجر يمنحني زادا ذهبيا يعينني على المضي في طريقى . السماء التي تعطى النور زرقاء ، ووجه أمى كان أسمر ، ولكنها كانت تشع قداسة ، وحسنها يزرى بكل غرور الحسان . ويقول كل الناس : انى أشبه أمى . وكنت في صباى أغضب لذلك ، وأسخط على مرأتى ، فقد كنت أظن أن الله أسبغ القبح على أعضائى ، وأن قسّمات وجهى السمراء لم تكن من قسمتى ، ولكنها جاءتني سهوا . ولم يبق لى شيء أسأل الله أن يعوضني به الا أن أكون عندما أكبر نموذجا للمرأة كما تقرأ عنها في قصيدة ملحمية .

وعندما خطبت دعى منجم فنظر في راجتى وقال : « هذه البنت ميمونة الطالع ، وستصبح زوجا مثالية . » وقالت جميع النساء لما سمعنه : « لا عجب فالبنت لأمها . » تزوجت في بيت راجا . وكنت في طفولتى أعرف حق المعرفة وصف الأمير في القصص الخرافية . ولكن وجه زوجى لم يكن من نوع يستطيع الخيال أن يضعه في أرض الخرافات . كان أسمر

(١) علامة المرأة المتزوجة ورمز الوفاء الزوجى عند الهنود . (المترجم)

مثل وجهي ، فسرى عني بعض الانقباض الذي كنت أستشعره .
لنقص محاسني ، وأسثرت في قلبي - مع ذلك - قطرة أسي .
ولكن المنظر الجسمي اذا راغ من حواسنا الفاحصة ودخل
هيكل قلوبنا استطاع أن ينسى نفسه . واني لأعلم من خبرة طفولتي
كيف يكون الوفاء هو الجمال نفسه في صورته الباطنية . فعندما
كانت أُمِّي تنضد ألوان الفاكهة التي قشرتها بيديها في عناية على
الطبق الحجري الأبيض ، وتحرك مروحتها بلطف لتطرد عنها الذباب
بينما يجلس أبي الى طعامه ، كان قيامها بين يديه يستحيل جمالا
يجاوز حدود الظاهر ، وأستطيع الشعور بقوته وان كنت طفلة .
كان يسمو على كل جدل أو شك أو حساب ، كان موسيقي
خالصة .

واني لأذكر في وضوح كيف كنت أشعر بالطابع القاني على جبيني
يضئ كنجمة الصبح حين أستيقظ بعد زواجي في الصباح وأمسح
أتراب عن قدمي زوجي دون أن أوقظه (١) .

واتفق أنه انتبه ذات يوم فسألني مبتسما : « ما هذا يايمالا ؟
ما الذي تفعلينه ؟ »

لن أستطيع نسيان خجلي حين كشف أمرى . لعله حسبني
لا أبغى بذلك إلا أن أكتسب فضيلة . ولكن لا ، لا ! لم يكن في
الأمر فضيلة ، إنما هو قلبي ، قلب المرأة الذي لا بد له أن يعبد
كي يحب .

وكان بيت حمى عريقا في المجد منذ أيام « البادشاهين » . وكانت
بعض آدابه تنتمي الى المفل والبارتيين ، وبعض عاداته ترجع الى
ماني وباراشار . ولكن زوجي كان عصريا خالصا . فكان في هذا
البيت أول من أتم دراسته العالية وحصل على درجة الماجستير .
وكان أخوه الأكبر قد مات شابا لأفراطه في الشراب ، ولم يعقب
ولدا . أما زوجي فلم يكن يشرب ولا يستسلم للشهوات ، ومن
غرامة هذه المحافظة بالنسبة الى مألوف الأسرة كاد الكثيرون
يعدونها أمرا منكرا ! فقد حسبوا أن الطهارة لاتليق الا بمن لم يتسم
لهم الحظ ، فالكلف في القمر لا في النجوم .

(١) مسح التراب عن القدمين علامة على التوقير ، وتكون بأن يلمس قدمي الموقر لمسة
خفيفا ثم يلمس المتقرب رأسه باليد نفسها ، وليس من المألوف أن تؤدي الزوجة هذه
الشعيرة لزوجها . (المترجم) .

وكان أبوا زوجي قد ماتا منذ زمن طويل ، وجدته العجوز هي سيدة البيت ، وزوجي هو انسان عينها ، والجوهرة التي على صدرها ، فلم تصعب عليه مخالفة شيء من العادات القديمة ، ولما دعا « مس جلبي » لتعلمني وتكون رفيقتي أبي أن يتحول عن عزمه رغم ما كانت تنفثه الألسنة الثرثارة من سموم ، في البيت وخارجه . وكان زوجي آنذاك قد فرغ من امتحان البكالوريوس وأخذ يدرس ليحصل على الماجستير ، فاضطر للبقاء في كلكتا لينتظم في الكلية ، وكان يكتب الى كل يوم تقريبا . . سطورا قليلة وكلمات مألوفة ، إلا أن خطه الكبير المستدير كان ينظر الى وجهي بحنان ، أوه ، أي حنان ! وكنت أحفظ رسائله في صندوق من خشب الصندل أغطيها كل يوم بالأزهار التي جمعتها من الحديقة .

في ذلك الحين كان أمير القصة الخرافية قد اختفى كما يختفي القمر في ضوء الصباح ، وكان عندي أمير عالمي الحقيقي متربعا على عرش قلبي . وكنت ملكة ، مقعدى بجانبه ، ولكن فرحتي الحقيقة هي أن مكاني الصحيح عند قدميه .

لقد تعلمت بعد ذلك ، وعرفت العصر الحديث في لفته ، ومن هنا تبدو هذه الكلمات التي أكتبها وكأنها تحمر خجلا بين النشر العادي الذي يحيط بها . ولولا معرفتي لقواعد هذه الحياة الحديثة لعلمت علم السليقة والطبع أن كوني ولدت امرأة أمر خارج عن يدي ، وأن سجية العبادة في حب المرأة ليست كمقطع مستهلك يقتبس من قصيدة رومانسية ليكتب بخشوع كتابة جميلة في كراسة تلميذة . ولكن زوجي ما كان يسمح لي بفرصة للعبادة . تلك كانت عظمتة . جنباء أولئك الذين يطلبون الخشوع المطلق من زوجاتهم على أنه حق أهم ، فانه مذلة لكلا الزوجين .

كأنما كان حبه لي يفيض فوق حدودي بفيض سخائه وعطائه . ولكن حاجتي كانت الى العطاء أكثر من الأخذ ، فالحب صعلوك شرير يفتح أزهاره في تراب الطريق أحسن مما يفتحها في أصص البللور التي توضع في حجر الجلوس .

لم يستطع زوجي أن يتخلى تماما عن التقاليد العتيقة التي تسود أسرتنا ، ولذا كان من العسير علينا أن نلتقي في أية ساعة من ساعات النهار أحسنا . (١) وكنت أعرف بالدقة الوقت الذي

(١) لا يستحسن من الزوج أن يكثر التردد على « الزينانا » أو جناح الحريم في غير ساعات معينة لتناول الطعام أو للراحة (المترجم) .

يأتى فيه ، فكان للقائنا كل عناية الاعداد المحب . كان كروى
الفصيذة يجب أن يأتى من خلال الوزن .

كنت اذا فرغت من عمل اليوم وأخذت حمام العصر أعقص
شعري وأجدد الطابع القانى على الجبين ، وأرتدى السارى وقد
أحكمت طياته ، ثم أسترجع جسمى وعقلى من كل شواغل الواجبات
المنزلية ، وأهبهما فى هذه الساعة المعينة ، بشعائر معينة ، لفرد
واحد . كان هذا الوقت معه كل يوم قصيرا الا أنه لا نهائى .

وكان زوجى يقول : ان الرجل وزوجه متساويان فى الحب لأن
لكليهما على الآخر حقا مساويا لحق صاحبه . ولم أجادله فى ذلك
قط ، ولكن قلبى كان يقول : ان العبادة لا تسد طريق المساواة
الحقيقية بل ترفع مستوى الأرض التى يلتقيان عليها ، فتظل مسرة
المساواة العليا باقية ولا تنحدر الى مستوى التفاهة السوقية .

لقد كان الأشبه بخلقك الكريم يا حبيبى أنك لم تنتظر منى
العبادة قط . ولكنك لو قبلتها لأحسنت الى احسانا عظيما . لقد
أظهرت حبك بتزيينى وتعليمى واعطائى ما أسأله وما لا أسأله .
ورأيت عمق حبك فى عينيك وأنت تنظر الى . وعرفت زفرة الألم
الخفية التى كنت تكتمها فى حبك لى . لقد أحبت طبيعتى كلها
وكأنما وهبك أياها قدر عزيز .

وازدهانى هذا الفيض من العبادة لأننى حسبت كل الثروة التى
سأقتك الى بابى هى ثروتى . ولكن مثل هذا الفرور انما يمنع
سيل الاستسلام الحر فى حب المرأة . فعندما أجلس على عرش
الملكة وأطلب آيات الخضوع يمضى هذا الطلب فى ازدياد ولا يشبع
أبدا . وهل ثمة سعادة حقيقية للمرأة فى شعورها المجرد بأن لها
على الرجل سلطانا ؟ لا خلاص للمرأة الا بأن تسلم كبرياءها فى
العبادة .

يعاودنى اليوم تذكر كيف اشتعلت نيران الحسد حوالينا فى أيام
سعادتنا . انما كان ذلك طبيعيا . ألم يأتنى حظى السعيد بمحض
المصادفة دونما استحقاق ؟ ولكن السماء لا تدع الحظ يدوم أبدا ،
الا أن يوفى دين شكره يوما بعد يوم ، أياما طويلة كثيرة ، حتى
يثبت ويستقر . قد يمنحنا الله الهبات ولكن لنا نحن فضيلة تقبلها
والاحتفاظ بها . فوا أسفاه على النعم التى تنزلق من أيد غير
جديرة بها !

كانت جدة زوجى وأمه كلتاها مشهورتين بالجمال . كما كانت سلفتى الأرملة ذات حسن نادر المثال . ولما تركهن القدر لوحدهن الواحدة بعد الأخرى آلت الجدة ألا تتطلب الجمال لحفيدها حين يتزوج ، فلم يؤهلنى لدخول ذلك البيت إلا آيات يمن الطالع التى حظيت بها .

وقل من النساء فى ذلك البيت السرى من كانت تلقى حقها من الاحترام ، إلا أنهن ألفن عادات الأسرة ، واستطعن أن يبقين رءوسهن مرفوعة ، متعلقات بعزة انهن ملكات ذلك البيت العريق ، وإن غرقت دموعهن كل يوم فى حجاب الخمر ، ورنين خلاخيل الراقصات . فهل كان بفضل منى أن زوجى لم يقرب الشراب ولم يبدد رجولته فى أسواق النساء ؟ وأى سحر كنت أعرفه لأهدد نفوس الرجال الشائرة القلقة ؟ لم يكن إلا حظى السعيد . فلقد قسا القدر على سلفتى ، وانتهى فرحها والمساء فى أوله ، تاركا نور جمالها يضىء عبثا على أبهاء خالية ، يشتعل ويشتعل ، ولا موسيقى تصاحبه !

وكانت سلفتى تظهر احتقارها لأفكار زوجى الحديثة . ما أسخف أن يجعل سفينة الأسرة المحملة بثقل مجدها العريق تمخر تحت علم هذه البنت زوجته فقط ! لطالما لدغنى سوط السخرية : « لصة سرقت حب الزوج ! » ، « خدعة تتستر فى زينتها الحديثة الفاضحة ! » وكانت الثياب الملونة الحديثة التى يحب زوجى أن يجملى بها تثير غضبا حسودا : « ألا تستحى أن تجعل من نفسها شياك متجر وهى بهذا المنظر ! »

وكان زوجى يشعر بهذا كله ، ولكن طبيته لم تعرف حدودا ، فكان يتوسل الى أن أسامحها .

وأذكر انى قلت له مرة : « أن عقول النساء صغيرة معوجة ! » فأجاب : « كأقدام النساء الصينيات . ألم يطبعها ضغط المجتمع بالقبح والاعوجاج ؟ ما هن إلا لعب القدر الذى يقامر بهن ، فعلام تؤاخذهن ؟ » .

ولم تكن سلفتى تعجز قط عن الحصول على ما تريده من زوجى . ولم يكن يترى لينظر ان كان ما تطلبه مقبولا أو معقولا . ولكن أشد ما غاظنى أنها كانت لا تقر بجميل ، وكنت قد وعدت زوجى ألا أرد عليها ، ولكن ذلك ضاعف غضبى وأن لم أظهره . وشعرت

أن للطيبة حدودا ان تجاوزتها جعلت الرجال أقرب الى الجبن .
هل أقول الحق كله ؟ لقد تمنيت في كثير من الأحيان لو أن زوجي
كانت لديه الرجولة الكافية ليكون أقل طيبة .

كانت سـلـفـتى « الباراراني » (١) بعد شابة ، ولم تكن تدعى
القداسة . بل ان كلامها ومزاحها وضحكها كان أقرب الى الجرأة ،
وكانت الوصائف اللاتي تحيط نفسها بهن على شيء من الوقاحة .
ولكن لم يكن ثمة أحد يعارضها - ألم تكن هذه هي عادة البيت؟
وبدا لي أن حظي الحسن الذي أعطاني زوجا نقيـسا كان يقـرح
جفنيها . أما هو فكان يشعر بتعاسة حظها أكثر مما يشعر
بنقائصها .

- ٢ -

كان زوجي شديد الرغبة في اخراجي من « البردة » (٢) .
وقد قلت له يوما : ماذا أريد من العالم الخارجى ؟

فأجاب : لعل العالم الخارجى يريدك .
- اذا كان العالم الخارجى قد سـسـار بدونى حتى الآن فانه
يستطيع أن يسير مدة أطول . ولا حاجة به أن يهلك حزنا على .
- وما شأنى بهلاكه ؟ ان هذا لا يعنينى . ولكننى أفكر فى
نفسى .

- أوه ، حقا ! وماذا عن نفسك ؟
فصمت زوجي مبتسما . وكنت أعرف أسلوبه فبادرته مستنكرة :
- لا ، لا ، لن تروغ منى هكذا ! انى أريد أن نتصارح وننهى
الموضوع .

- هل يمكننى انهاء موضوع ما بكلمات ؟
- دع التكلم بالألفاظ . أخبرنى ..
- ما أعنيه هو أن تكونى لى وأكون لك بمزيد من الكمال فى
العالم الخارجى . فهنا لايزال كلانا مدينا لصاحبه .

(١) « بارا » : أى الكبرى ، و « تشوتا » أى الصغرى . وفى بيوت السراة ذات الاسر
المشتركة لا يكون للأرملة حق فى نصيب زوجها الا التمتع به طوال حياتها ، ولكنها
تحتفظ برتبتها تبعا للسن ، ويظل لقبها « الكبرى » و « الصغرى » مميزين للفرعين الاكبر
والاصغر ، وان كان الفرع الاصغر هو صاحب السلطان . (المترجم) .
(٢) « البردة » ومعناها « الستارة » اسم عام يدل على حياة « الزينانا » المنفصلة
وجميع ما يتعلق بها من العادات . (المترجم)

- وهل يعوز شيء في حبنا هنا في البيت ؟
- هذى أنت منطقية في ، لا تعرفين ماذا تملكين ولا ماذا تريدن .
- أنا لا أستطيع أن أحتمل سماعك تتكلم على هذا النحو .
- أود أن تخرجى الى قلب العالم الخارجى وتلتقى بالحقيقة .
- أنت لم تخلقى لتؤدى واجباتك المنزلية فقط ، لتعيشى حياتك كلها في عالم التقاليد المنزلية وسخرة الأعمال المنزلية ! لن يكون حبنا صحيحا الا اذا تلاقينا وعرف كل منا صاحبه في العالم الحقيقى .
- اذا كان هنا نقص ما في معرفتنا الكاملة فليس لدى ما أقوله .
- ولكن أنا لا أشعر بحاجة ما .
- هبى أن النقص في جانبى وحدى ، فلماذا لا تساعديننى على إزالته ؟

كانت مثل هذه المناقشات تتكرر بيننا . وقال لى يوما : ان الرجل النهم الذى يحب سمكته المطبوخة لا يتأذى من تقطيعها حسب حاجته ، ولكن الرجل الذى يحب السمكة يريد أن يستمتع بها في الماء ، واذا استحال عليه ذلك فانه ينتظر على الشط ، واذا عاد الى بيته دون أن يقع نظره عليها فانه يتغذى بمعرفة أن السمكة بخير . الكسب الكامل هو أفضل شيء ، ولكن اذا استحال ذلك فان أفضل شيء بعده هو الخسارة الكاملة .

لم أحب قط طريقة زوجى في الحديث عن هذا الموضوع ، ولكن ذلك لم يكن هو السبب في رفضى مغادرة « الزينانا » لقد كانت جدته لا تزال على قيد الحياة ، وكان زوجى قد ملأ البيت بالقرن العشرين الى أكثر من مائة وعشرين في المائة ، على غير هواها ، ولكنها تحملت ذلك دون أن تشكو ، ولو خرجت كنة بيت الراجا من حجابها لتحملت الجدة ذلك أيضا ، بل انها كانت متهيئة لحدوثه ، ولكنى رأيت ذلك لا يستأهل ألها بسببه . لقد قرأت في الكتب أننا نسمى « طيورا في الأقفاص » وليس باستطاعتى أن أتحدث عن غيرى ، ولكنى كنت أجد في قفصى هذا ما لا يتسع له العالم أو على الأقل هذا ما شعرت به آنذاك .

وكانت الجدة المسنة شديدة الاعزاز لى . وكانت في أعماق معزتها فكرة أنى استطعت بعون من طالعى السعيد أن أجتذب حب زوجى . أليس الرجال ميالين بطبعهم الى الانحدار فى الهاوية ، ثم

تستطع واحدة من الأخريات ، برغم جمالهن ، أن تمنع زوجها من الانصباب الى الاعماق الجامحة التي تلتهمهم وتدمرهم . وآمنت بأنى كنت وسيلة اطفاء هذه النار التي فتكت برجال الأسرة ، فجعلتنى فى حجرها ، وكانت ترتعد اذا أصابتنى أيسر وعكة .

لم تكن جدته تحب الثياب والحلى التي يحضرها زوجى من المتاجر الأوربية ليزيننى بها . ولكنها قالت لنفسها « لابد للرجال من هواية ما يبعثون فيها أموالهم ، ولا فائدة فى محاولة الحد من اسرافهم ، يكفى أنهم لا يجلبون الخراب على أنفسهم ، واذا كان وحيدى « نيكهيل » عاكفا على تزيين زوجته فلسنا ندرى من انتى كان يمكن أن ينفق عليها نقوده ! » فكانت كلما وصل ثوب جديد لى أرسلت الى زوجى وراحت تمارحه حول هذا الأمر . وهكذا حدث أن ذوقها هو الذى تغير . حتى بلغ من تأثير العصر الحديث عليها أن أماسيها كانت تأبى أن تمر حتى أروى لها قصصا من الكتب الانجليزية .

وأراد زوجى بعد وفاة جدته أن أرافقه الى كلكتا لأعيش معه . ولكنى لم أستطع الاقدام على ذلك . أليس هذا منزلنا الذى أحاطته بعنايتها خلال محنها ومتاعبها ؟ ألا تحل على لعنة ان هجرته وذهبت الى المدينة ؟ كانت هذه هى الفكرة التى ألزمتنى مكانى بينما كرسيها الخالى ينظر الى فى عتاب . لقد جاءت تلك السيدة النبيلة الى المنزل فى سن الثامنة وماتت فى سنتها التاسعة والسبعين . ولم تقض حياة سعيدة . رمى القدر صدرها بسهم بعد سهم . فما زاد على أن جعل الروح الخالدة الكامنة فيها تنطلق وتنطلق حتى تقدس هذا المنزل الكبير بدموعها . فماذا عساي فاعلة بعيدا عنه فى تراب كلكتا ؟

وكان رأى زوجى أن هذه فرصة طيبة لترك سلفتى تتعزى بالسيطرة على المنزل ، مع اعطاء حياتنا مجالا للامتداد فى كلكتا . وهذا هو ماضيقنى . لقد نفصت على حياتى ، وأضجرتها سعادة زوجى ، وعلى هذا هى تكافأ ! ثم ماذا عن اليوم الذى يلزم أن نعود فيه ؟ هل أسترده عندئذ كرسى الصدارة ؟

وكان زوجى يقول : ولماذا تريدان ذلك الكرسى ؟ أليس فى الحياة أشياء أثمن ؟
ان الرجال لا يفهمون هذه الأمور أبدا . فلديهم أعشاشهم فى

العالم الخارجى ، وهم لا يعرفون حقا كل ما يمثله المنزل ، فعليهم أن يتبعوا ارشاد النساء فى هذه الأمور - تلك كانت أفكارى آنذاك .
وكان اب المسألة فى نظرى : ان الانسان يجب أن يدافع عن حقوقه ، فالذهاب . وترك كل شئ فى أيدي العدو يساوى الاعتراف بالهزيمة .

ولكن لماذا لم يجبرنى زوجى على الذهاب معه الى كلكتا ؟
انا أعلم السبب . لأنه كان يملك القوة ولم يستخدم قوته .

- ٣ -

لو كان على المرء أن يملأ الفجوة بين الليل والنهار قليلا قليلا لاحتاج الى عمر الأبد . ولكن الشمس تشرق فيتبدد الظلام ، وتكفى لحظة للتغلب على امتداد غير محدود .

ذات يوم بدأ عهد « السواديشى » (١) فى البنغال . أما كيف حدث فهذا ما لم نتبينه على التحديد ، فلم يكن ثمة منحدر متدرج يصل الماضى بالحاضر . ولهذا السبب - كما أظن - جاء العهد الجديد كالطوفان محطما كل السدود ، مكتسحا كل حذر وخوف فينا . بل اننا لم نجد وقتا لنفكر أو نفهم ما حدث وما يوشك أن يحدث .

تخرج بصرى وعقلى وآمالى ورغباتى بالحمرة لحماسة ذلك العهد الجديد . ومع ان جدران المنزل الذى كان هو العالم النهائى فى نظرى بقيت ولم تتحطم ، فقد وقفت أنظر من فوقها الى الآماد ، وسمعت صوتا من الأفق البعيد لم اتبين معناه فى وضوح ، ولكن ندائه نفذ الى قلبى .

لقد حاول زوجى منذ كان طالبا فى الجامعة أن يجعل الأشياء التى يحتاج اليها شعبنا تنتج فى بلادنا . فحاول أن يخترع جهازا لاستخلاص عصير البلح واستخراج السكر والعسل منه - والنخل يكثر فى اقليمنا - وسمعت أن تجربته نجحت نجاحا عظيما ، الا أن ما استخلصته من النقود كان أكثر من العصور . وبعد فترة انتهى الى نتيجة وهى أن محاولاتنا لحياء صناعاتنا تتعثر لحاجتنا

(١) « السواديشى » : الحركة الوطنية وقد بدأت اقتصادية أكثر منها سياسية، فكان غرضها الاساسى تشجيع الصناعات الوطنية . (المترجم) .

الى مصروف خاص بنا . وكان في تلك الأثناء يحاول تعليمي الاقتصاد السياسي ، ولو اكتفى بذلك لما كان ثمة ضرر كبير ، ولكن نفسه حدثته أيضا أن يعلم مواطنيه فكرة الادخار حتى يمهّد الطريق لقيام مصرف ، ثم أسس بالفعل مصرفا صغيرا ، كانت فائدته العالية التي جعلت القرويين يقبلون عليه لايداع أموالهم سببا لاغراق المصرف نفسه .

وشعر موظفو الامارة المسنون بالقلق والذعر ، وهلل معسكر الأعداء فرحا ، ولم يظل على هدوئه في الأسرة كلها غير جدة زوجي ، فكانت توبخني قائلة : لماذا تضايقونه كلكم هكذا ؟ أهو معسر الامارة الذي يزعجكم ؟ ما أكثر ما رأيت هذه الامارة في أيدي المحضرين ! هل الرجال كالنساء ؟

ان الرجال مسرفون بطبعهم ، ولا يعرفون الا كيف يضيعون . يابنتي ! عدى نفسك سعيدة الحظ لأن زوجك لا يضيع نفسه أيضا !

وكانت مساعدات زوجي تملأ قائمة طويلة . فهو على استعداد لأن يبذل معونة حتى الفشل التام المر لكل من يريد أن يخترع نولا جديدا ، أو آلة جديدة لضرب الأرز . ولكن أشد ما ضايقني هو طريقة « ســنديب بابو » في ابتزاز أمواله باسم حركة « السواديشي » . فكلما أراد أن ينشئ صحيفة ، أو يقوم برحلة للدعوة الى القضية ، أو يغير الهواء عملا بنصيحة طبيب ، قدم زوجي اليه من المال دون تردد . هذا غير الراتب الذي كان « سنديب بابو » يتسلمه منه أيضا . وأعجب ما في الأمر أن زوجي وسنديب بابو لم يكونا متفقين في آرائهما .

ما كادت عاصــفة « السواديشي » تمسك بدمي حتى قلت لزوجي : يجب أن أحرق كل ملابس الأجنبية . فقال : ولماذا تحرقينها ؟ يمكنك أن تتركي لبسها ما شئت .

— ما شئت ! لن يكون ذلك طول عمري . . .
— حسنا . لا تلبسيها بقية عمرك اذن . ولكن لماذا حكاية النار

هذه ؟

— هل تمنعني من تنفيذ ما عزمت عليه ؟

— الذي أريد أن أقوله هو هذا : لماذا لا تحاولين أن تبني شيئا ؟ ينبغي ألا تضيعي ولو عشر طاقتك في هذه الحماسة المدمرة .

— مثل هذه الحماسة تمنحنا الطاقة لبنى .

كأنك تقولين : لا يمكنك أن تضىء المنزل الا بأن تشعل فيه النار .
ثم كانت مشكلة أخرى . فعندما قدمت مس جلبي الى منزلنا
أول مرة كثر اللفظ ، ثم سكن حين تعودوا وجودها . والآن أثير
الموضوع كله من جديد . ولم أكن قد شغلت نفسى من قبل بأن
مس جلبي أوربية أو هندية ، ولكنى بدأت أهتم بذلك الآن .
فقلت لزوجى : يجب أن نتخلص من مس جلبي .
فبقى صامتا .

وحدثته بعنف . فذهب حزين القلب .
وبعد نوبة بكاء شعرت بمزيد من الهدوء حين التقينا ليلا . وقال
زوجى : اننى لا أستطيع أن أنظر الى مس جلبي خلال ضبابية من
المعاني المجردة لا لشيء الا لكونها انجليزية . ألا تستطيعين أن
تدركى أنها تحبك ؟

وشعرت بشيء من الخجل . وأجبت ببعض الحدة :
— فلتبق . اننى لست شديدة الرغبة فى اخراجها .

وبقيت مس جلبي .

ولكنى سمعت ذات يوم أن شابا أهانها وهى فى طريقها الى
الكنيسة . وكنا نعول هذا الشاب ، فطرده زوجى من المنزل .
ولم يستطع أحديومها أن يغفر لزوجى ذلك العمل — حتى ولا أنا .
وفى هذه المرة ذهبت مس جلبي من تلقاء نفسها ، وبكت حين جاءت
تودعنى ، ولكنى بقيت جامدة . هذا التشنيع بالفتى المسكين !
وأى فتى ! فتى ينسى حمامه وطعامه فى حماسته « للسواديشى » .
ورافق زوجى مس جلبي فى عربته الخاصة الى محطة السكة
الحديدية . وأيقنت أنه يجور ولا يقتصد ، وعندما رويت هذه
الحادثة روايات مبالغا فيها وأثارت فضيحة عامة وصلت الى
الصحف ، شعرت أنه قد لقى جزاءه الذى يستحقه .

لقد طالما أقلقتنى أعمال زوجى ولكنى لم أستح منها قط من
قبل ، أما الآن فقد وجب على أن أحمر خجلا من أجله ! وماكنت
أعرف بالضبط أى أساءة ألحقها « نورين » المسكين أو لم يلحقها
بمس جلبي ، ولا كنت أبالى بذلك ، ولكن كيف يمكن الجلوس
للقضاء فى مثل هذا الأمر ؟ فى مثل هذا الوقت ! ما كان ينبغى كبح
الروح التى دفعت نورين الشاب الى تحدى المرأة الانجليزية . ولم

أستطع أن أرى في عجز زوجي عن فهم هذا الأمر اليسير إلا
علامة جبن . ولهذا خجلت له .
على أن زوجي لم يكن يرفض تأييد « السواديشي » ولا يناهض
القضية بوجه من الوجوه ، وإنما كان غير مقتنع كل الاقتناع بروح
« باندي ماترم » (١) كان يقول :
- اننى أريد أن أخدم بلادي ، ولكننى لا أعبد إلا الحق ، وهو
أعظم من بلادي كثيرا ، ولئن اتخذت بلادي الها أعبدته لأجلبن
عليها لعنة .

(١) « باندي ماترم » معناها الحرفي : حبيب يا أمي ، وهذه الكلمات هي مطلع أغنية
للروائي البنغالي بانكيم تشاترجي ، وقد أصبحت الأغنية هي النشيد الوطني الآن
و « باندي ماترم » هي الهتاف الوطني منذ أيام حركة « السواديشي » . (المترجم) .

الفصل الثانى

حكاية بيسالا

- ٤ -

فى ذلك الوقت جاء سندیب بابو مع أتباعه الى منطقتنا لينشر دعوة « السواديشى » .
تقرر أن يعقد اجتماع كبير فى بهو المعبد . نحن النساء جالسات هناك فى جانب ، خلف ستارة . صيحات « باندى ماترم » الظافرة تقترب ، فتبعث فى جسدى رعشة شاملة . فجأة يندفع الى الساحة المستطيلة سيل من الشباب حفاة الأقدام لابسى العمائم وعليهم لباس الزهاد الاصفر ، كما يندفع سيل محمل بالطمى الأحمر الى مجرى النهر الجاف لأول دفقة من الأمطار . ويمتلئ المكان كله بحشد عظيم يجمع فى وسطه سندیب بابو جالسا على كرسى كبير ترفعه أكتاف عشرة أو اثنا عشر من الشباب .
« باندى ماترم ! باندى ماترم ! باندى ماترم ! »
لكأن السموات توشك أن تنشق وتتناثر ألف قطعة .
وكنت قد رأيت صورة سندیب بابو من قبل . كان فى قسمات وجهه شىء لم أسترح اليه . لست أعنى أنه كان دميم الخلقة ، بل على العكس ، كان وجهه وسيما ، ولكن بدا لى - لسبب لا أدريه - أن كثيرا من الشوائب الخسيسة تدخل فى تكوين هذا الوجه بالرغم من كل بهائه . الأمر ما كان النور فى عينيه لا يبدو صادقا . ولهذا كنت غير راضية عن خضوع زوجى لجميع مطالبه . لم يشق على ضياع المال ولكن غاظنى التفكير فى أنه يحتال على زوجى مستغلا صداقته . ولم يكن مظهره مظهر زاهد ولا رجل متوسط الحال ، بل كان متأنقا فى كل شىء . وكأنما حب النعيم . .

.. ان مثل هذه الخواطر تتوارد على اليوم بكثرة ، ولكن لنندعها حيث هي .

غير أنى رأيت سنديب بابو ينقلب رجلا آخر حين بدأ يخطب عصر ذلك اليوم وقلوب الجمع تموج وتندفع لكلماته . وكأنها تريد أن تكسر كل الحواجز . لاسيما حين أضاء قسماته شعاع من الشمس التى كانت تدلف ببطء الى مغربها ، وقد انحدرت عن سقف البهو ، فقد خيل الى أن الآلهة اختارته رسولا الى بنى الموت وبناته .

كانت كل جملة من جملة من بدء خطبته الى نهايتها عاصفة منفجرة ، وكانت ثقته بما يؤكد لا حد لها . واذا بى لا أتمالك أن أزيح الستارة من أمامى وأثبت نظرى عليه ، لا أدري كيف حدث ذلك ، ولكن لم يكن فى الجمع من يراعى أفعالى . مرة واحدة لاحظت أن عينيه أخذتا وجهى بوميضهما كنجوم الجبار (١) .

فقدت كل وعى بنفسى . لم أعد سيدة بيت الراجا بل كنت ممثلة نساء البنغال وحدى ، وكان هو بطل البنغال . وكما أسبغت السماء عليه نورها يجب أن تقدسه بركة امرأة ..

بدا لى واضحا أنه منذ وقع بصره على زادت كلماته اشتعالا . لقد أبى جواد اندرا (٢) أن يمسكه عنان فكان زئير الرعد ووميض البرق . وقلت فى نفسى ان لفته اشتعلت نارا من عيني فنحن النساء لسنا ربات نار المنزل فحسب بل شعلة الروح ذاتها .

عدت الى البيت فى ذلك المساء متألفة بكبرياء جديدة وفرح جديد . ان العاصفة التى ثارت فى باطنى نقلت كيانى كله من مركز الى آخر . وكعدارى الاغريق فى القديم وددت لو أقطع خصللات شعري الطويلة اللامعة لأصنع منها وترا لقوس بطلى . ولو كانت حللى موصولة بمشاعري الباطنية لكسرت قلادتى وأساورى قيودها وترامت على الجمع كشؤبوب من الشهب ، فقد شعرت انى لا أستطيع احتمال فورة حماسى الا بأن أضحي تضحية ما .

وعندما عاد زوجى الى البيت بعد ذلك كنت أرتجف خشية أن يبدر منه صوت ناشز عن أنشودة النصر التى كانت لا تزال ترن

(١) « الجبار » اسم لنجوم الجوزاء (Orion) « لانها بصورة ملك متوج على كرسى » (التاج) - المترجم .

(٢) كبير الآلهة وآله السماء والمطر فى البثولوجيا الفيديّة . ويقابل روس عند اليونان وجوبيتر عند الرومان (المترجم) .

فى اذنى . أن يدعوہ تعصبہ للحق الى استنكار شىء مما قيل فى ذلك الاصيل . فلو فعل لجابته بالتحدى والاهانة . ولكنه لم يقل كلمة واحدة . . وساءنى ذلك أيضا .

كان ينبغي أن يقول : لقد أعادنى سنديب الى صوابى . اننى أعلم الآن كم كنت مخطئا طوال هذا الوقت .

وشعرت كأنه يريد أن يفيظنى بصمته ، ويصر على ألا يتحسس . فسألته : الى كم سيبقى سنديب بابو معنا ؟ فقال زوجى : انه راحل الى رانجبور فى بكرة الغد .

— هل يجب أن يرحل غدا ؟

— نعم ، فقد وعد بأن يخطب هناك .

وصمت برهة ، ثم سأله ثانية :

— ألا يمكنه أن يبقى يوما آخر ؟

— قد لا يكون ذلك ميسورا . ولكن لماذا ؟

— أريد أن أدعوه للغداء وأخدمه بنفسى .

فدهش زوجى . انه كثيرا ما رجانى أن أحضر حين يدعو بعض أصدقائه للغداء ، ولكنى لم أوافق قط على ذلك . تأملنى دهشا ، صامتا ، بنظرة لم أفهمها جيدا .

وفجأة غلبنى شعور بالخزى . فصحت : لا ، لا ، هذا لن يكون !

فقال : لم لا ؟ سأسأله ذلك بنفسى ، وان كان ممكنا فسيبقى

ولا شك الى الغد .

وقد ظهر أن الأمر ممكن جدا .

سأقول الحقيقة كما هى . فى ذلك اليوم عاتبت خالقى لأنه لم

يجعلنى فائقة الجمال ، لا لأسلب قلبا بل لأن الجمال مجد . فى

ذلك اليوم العظيم يجب أن تتمثل روح الوطن لرجاله فى صورة

امرأة . ولكن عيون الرجال — واأسفاه ! يعجزها أن تبصر

الروح ان لم تبصر الجمال . ترى هل يبصر سنديب بابو فى روح

الوطن ظاهرة ؟ أم يحسبني امرأة بيت عادية فقط ؟

فى ذلك الصباح طيبت شعرى المسترسل وعقدته عقدة مسترخية

يمسكها شريط حريرى أحمر بارع الضفر . فقد كنا على وشك أن نقدم

الغداء ظهرا ولم يكن فى الوقت متسع لأجفف شعرى بعد الحمام

وأضفره بالطريقة العادية . وارتديت ساريا مذهب الحاشية ،

وكانت سترتى الحريرية القصيرة الكمين مذهب الحاشية أيضا .

وشعرت أن في ملابسى نوعا من الاحتشام . وأنه أبسط ما يمكن ،
ولكن سلفتى مرت بى مصادفة وإذا هى تقف أمامى جامدة
وتتأملنى من فرعى الى قدمى وتبتسم ابتسامة ذات معنى وهى
تضبط على شفيتها . ولما سألتها عن سبب ذلك قالت : انى
معجبة بزينتك !

فسألتها بضيق شديد : وماذا يطربك منها ؟
فقالت : انها بديعة . ولو لبست احدى تلك الصدرىات الانجليزية
القصيرة العنق لكملت .

وتركت الحجرة وجسمها كله - لا فمها وعيناها فقط - يتموج
بضحك مكتوم .

واشتد غضبى جدا ، وأردت أن أبدل ثيابى كلها وألبس ملابسى
العادية . ولكنى لا أدرى على التحديد لماذا لم أستطع أن أنفذ
هذه الفكرة . لقد قلت لنفسى : ان النساء زينة المجتمع ؟ ولن
يسر زوجى أن ظهرت أمام سنديب بابو بملابس غير لائقة .

وكانت فكرتى أولا أن أجعل قدومى عليهم بعد جلوسهم للغداء ،
فيذهب خجل اللقاء الاول فى ضجة الاشراف على تقديم الطعام .
ولكن الغداء لم يكن جاهزا فى وقته ، ومر زمن ، وفى هذه
الأثناء أرسل زوجى فى طلبى ليقدمنى الى ضيفه .

كنت شديدة الحياء من النظر الى وجه سنديب بابو ، ولكنى
استطعت أن أتماسك بحيث قلت : يؤسفنى أن الغداء تأخر .

فأقبل على فى جرأة وجلس بجانبى وهو يجيب : اننى أتناول
غداء ما كل يوم ، ولكن ربة الخير تظل محتجبة . أما وقد ظهرت
الربة نفسها فلا ضير ان تأخر الغداء .

كان فى مسلكه كما كان فى خطابه حازما لا يتردد ، وكأنه تعود
أن يحتل - غير مزاحم - مقعده المختار . وكان يدعى حق الألفة
بثقة تجعل اللوم أشبه بأن يقع على أولئك الذين ينكرون عليه
هذا الحق .

وكنت خائفة أن يحسبنى سنديب بابو حزمة هيابة من تفاهة
الطراز القديم . ولكنى لم أستطع - وان جهدت - أن أتألق فى
أجوبة تسحره أو تبهره . وسألت نفسى حانقة : ماذا أصابنى حتى
أبدو أمامه فى هذا المظهر السخيف .

وهممت بالانصراف حين انتهى الغداء ، ولكن سنديب بابو

اعترض طريقى بجسارته التى لا تزايله وقال :
- لاتحسبنى طفيليا . ليس الغداء هو الذى أبقانى بل دعوتك .
واذا رغت الآن فلن تكونى عادلة مع ضيفك .
ولو لم يقل هذه الكلمات يسر وانطلاق لبدت ناشزة . على
أن صداقته الحميمة لزوجى كانت تجعلنى كأخته .
وبينما كنت أجاهد لأصعد على هذه الموجة العالية من الألفة
أقبل زوجى لنصرتى قائلا : هلا تعودين إلينا بعد أن تتناولى غداءك !
قال سنديب بابو : ولكنك يجب أن تعدى قبل أن نتركك
تذهبين .

فقلت بابتسامة خفيفة : سأتى .
ومضى سنديب بابو يقول : سأقول لك لماذا لا أستطيع أن
أصدقك . لقد مضت تسعة أعوام على زواج نيكهيل وأنت تروغين
منى ، وان مضيت تفعلين ذلك تسعة أعوام أخرى فلن نلتقى أبدا .
وجاريته فى معناه فخفضت صوتى مجيبة : ولماذا لا نلتقى حتى
ان حدث ذلك ؟

- حساب نجمى يقول انى سأموت فى عمر مبكر . ولم يعيش أحد
من أجدادى بعد الثلاثين ، وأنا الآن فى السابعة والعشرين .
كان يعلم أن هذه الكلمة ستصيب الهدف ، ولا بد أن ظلا من
الغم بدا فى صوتى هذه المرة وأنا أقول : لاشك أن بركات البلاد
كلها ستدفع سوء تأثير النجوم .

أذن يجب أن تنطق بركات البلاد بلسان ربته . هذا سبب
انشغالى بعودتك ، حتى يبدأ طلسمى عمله منذ اليوم .
كانت لسنديب بابو طريقة فى أخذ الأمور أخذ عزيز مقتدر ،
حتى انى لم أجد فرصة لاستنكار ما لم أكن لأسمح به من آخر .
وختم كلامه ضاحكا : اذن فسأبقى زوجك هذا رهينة حتى
تعودى .

وفيما كنت خارجة نادانى : هل لى أن أثقل عليك بطلب صغير؟
فاستوفزت والتفت . قال : لا تنزعجى ، انه كوب ماء فقط .
لعلك لاحظت انى لم أشرب على الغداء . انى أشرب بعده بقليل .
وكان على ازاء ذلك أن أظهر الاهتمام وأسأله عن السبب . فبدأ
يروى تاريخ مرضه بسوء الهضم ، وعرفت كيف عذبه المرض سبعة
أشهر ، وكيف أنه بعد المضايقات الطويلة المألوفة التى شملت

أنواعا من العلاج الألويائى والهوميوباثى بغير فائدة ، حصل على نتائج رائعة من المواصفات البلدية . وأضاف مبتسما :
- هل تعلمين أن الله قد جعل على نفسها بحيث لا تستسلم إلا لمهاجمة حبوب « السواديشى » ؟
وهنا خرج زوجى عن صمته قائلا :
- يجب أن تعترف بأن فيك جاذبية للعقاير الأجنبية كجاذبية الأرض للشهب . ان فى حجرة جاوسك ثلاثة أرفف مليئة بال . . فقطعه سنديب بابو :
- أتدرى ما هى ؟ انها الشرطة التى تعاقبنا . تأتى لا لأننا نريدها بل لأن حكم هذا العصر الحديث يفرضها علينا لتفرضنا وتعذبنا .

لم يكن زوجى يطبق المبالغات ، وقد استطعت أن أرى عدم رضاه عن هذه . ولكن كل التحليات مبالغات لم يصنعها الله بل صنعها الانسان . وأذكر انى قلت لزوجى مرة دفاعا عن شيء قلته مخالف للحقيقة : لا يقول الحقائق الصريحة إلا الأشياء جار والوحوش والطيور ، لأن هذه الأشياء المسكينة ، لا قدرة لها على الاختراع ، وفى هذا يظهر الانسان تفوقه على المخلوقات الدنيا ، وتبرز النساء الرجال . فلا يغيب المرأة مبالغتها فى التزين ولا مبالغتها فى الخروج عن الحقيقة .

لما بلغت الدهليز المؤدى الى « الزينانا » وجدت سلفتى واقفة قرب نافذة تطل على جناح الاستقبال وهى تنظر من الخصاص . فسألت دهشة : أنت هنا ؟
فأجابت : أسترق السمع !

- ٥ -

عندما عدت كان سنديب بابو رقيقا فى اعتذاره ، قال : أخشى أن نكون قد أفسدنا شهيتك .
وشعرت بخجل شديد . فالواقع انى انتهيت من طعامى بسرعة لا تليق ، وكان من الواضح بتقدير يسير أن انصرافى عن الأكل كان أكثر من اقبالى عليه ، ولكن لم يخطر ببالى أن ثمة من يعنى بتقدير ذلك .

ولعل سنديب بابو شعر بخجلى ، ولكن ذلك لم يزدنى إلا خجلا ، فقد قال : كنت واثقا ان لك اندفاع الطبية النافرة الى

الهرب ، ولكنى أجد اهتمامك بالمحافظة على وعدك لى نعمة كبيرة .
ولم أستطع أن أفكر فى جواب مناسب ، فجلست مرتبكة
حجلى على أحد طرفى الأريكة . وتخلت عنى صورة نفسى كما
تخيلتها ، صورة « روح » المرأة المتجسدة ، أتوج سنديب بابو
بحضورى وحده ، فى بهاء الملك وبلا خجل .

وتعمد سنديب بابو أن يبدأ مناقشة مع زوجى . فقد كان يعلم
أن بداهته تتألق فى المناقشة ، وكثيرا ما لاحظت بعد ذلك أنه
لا يضيع فرصة للدخول فى مبارزة كلما كنت حاضرة .
وكان يعرف آراء زوجى فى عقيدة « باندى ماترم » فبدأ يقول
مستثيرا : اذن فأنت لا تسلم بأن هناك مجالا لمخاطبة الخيال فى
العمل السياسى ؟

— ان الخيال مكانا ياسنديب ، أسلم بذلك ، ولكنى لا أومن
بإعطاء المجال كله للخيال . اننى أريد أن أعرف بلادى على حقيقتها
الصريحة ، ولذلك أخاف أن أستخدم العبارات الوطنية
المغناطيسية ، وأخجل من ذلك .

— ما تسميه أنت العبارات المغناطيسية أسميه أنا الحقيقة .
فأنا أومن حقا بأن بلادى هى الهى . اننى أعبد الانسانية ، والله
يتجلى فى وطن الانسان كما يتجلى فى الانسان .

— ان كان هذا ما تعتقده حقا فينبغى ألا يكون عندك فرق بين
انسان وانسان ولا بين وطن ووطن .
— هذا حق . ولذلك فان تقديسى لبلادى استمرار لتقديسى
للانسانية .

— اننى لا أعترض على تقديسك فى حد ذاته ، ولكنى أريد أن
أسألك كيف يمكنك أن تعبد الله بكرهك لبلاد أخرى يتجلى الله
فيها كما يتجلى فى بلادك ؟

— الكره أيضا قرين للعبادة . لقد نال أرجونا رضاء ماهاديفا (١)
حين صارعها . وسيكون الله معنا آخر الأمر اذا عزمنا على حربه .
— ان كان الأمر كما تقول فان من يخدمون البلاد ومن يسعون
فى ضررها سواء فى عبادة الله . فلماذا اذن تتجشم الدعوة الى
الوطنية ؟

(١) « أرجونا » فى الاساطير الهندية القديمة : ابن اندرا ، وأحد أبطال المهابهاراتا ،
والبطل الرئيسى فى قسم من الملحمة يسمى بهاجاقاد جيتا . « ومهاديفا » احدى
زوجات شيفا ، وهى تمثل قوته المدمرة (المترجم) .

— الحال غير ذلك بالنسبة الى وطن المرء . فهنا يطلب القلب العبادة . ولاريب .

— اذا مضيت مع هذا المنطق فيمكنك أن تقول ان « ذاتنا » يجب أن تعبد قبل أى شيء آخر ، لأن غريزتنا الطبيعية تطلب ذلك ، والله يتجلى فينا .

— كلا يا نيكهيل ، ان هذا كله ليس الا المنطق الجاف . ألا تسلم بأن هناك شيئاً اسمه الشعور ؟

فأجاب زوجى : أقول لك الحق ياسنديب ان شعورى هو الذى يثور كلما حاولت أن تجعل الظلم واجبا ، والشر مقالا أخلاقيا . أن عجزى عن السرقة لا يرجع الى قدراتى المنطقية بل انى أشعر باحترام لى نفسى وحب للمثل العليا .

كان باطنى فى ثورة ، وأخيرا لم أستطع أن أبقي صامتا ، فصحت : أليس تاريخ كل بلد سواء أكان انجلترا أم فرنسا أم المانيا أم روسيا هو تاريخ سرقة من أجل بلادهم ؟

— هم مسئولون عن سرقاتهم ، وانهم ليسألون عنها الآن ، فتاريخهم لم ينته بعد .

فقاطعنا سنديب بابو قائلا : لماذا لا نحذو حذوهم على كل حال ؟ فلنملا خزائن بلادنا بالبضائع المسروقة أولا ثم لتمدن القرون حتى نسأل عنها مثل سائر البلاد ان كان لابد من ذلك . ولكنى أسألك : أين تجد هذا « السؤال » فى التاريخ ؟

— عندما كانت روما تسأل عن اثمها لم يكن أحد يعلم أنها تسأل ، ففى ذلك الوقت لم يكن يبدو أن لرخائها حدودا . ألا ترى أمرا واحدا : ان حقائبهم السياسية تتقطع بالأكاذيب والخيانات وتكسر ظهورهم بأوزارها ؟

لم تكن قد أتيحت لى الفرصة من قبل أن أشهد مناقشة بين زوجى وأصدقائه الرجال . كنت أشعر كلما جادلنى أنه يكره أن يلزمنى الحجة ، ولم يكن لذلك من سبب الا حبه لى . واليوم رأيت لأول مرة حذقه فى التبارز بالأفكار .

ولكن قلبى أبى أن يقبل نظرة زوجى . فكنت أجاهد لأجد جوابا ما ، ولكن الجواب لا يريد أن يجيء . فعندما تأتى كلمة « الخيرية » فى مناقشة فانك تستبشع القول بأن من الاشياء ما يمكن أن تحول خيريته دون منفعته .

وفجأة التفت سنديب بابو الى سائلا : ما رأيك « أنت » في هذا ؟
فانفجرت قائلة : اننى لا أبالى بالحدود المنطقية الدقيقة . سأقول
لكما ما أشعر به على سعته وعمومه . أنا لست إلا كائنا بشريا .
أنا ذات أطماع . أنا أريد الطيبات لبلادى ، فاذا اضطرت فسوف
انتزعها وسوف اختلسها . أنا عندي الغضب ، وسأغضب من أجل
بلادى ، وان لم أجد بدا فسأضرب وأذبح ثارا لشرفها . أنا عندي
رغبتي فى أن أسحر ، ويجب أن أجد السحر متجسدا متمثلا فى
بلادى ، ويجب أن يكون لها رمز منظور يلقي سحره على عقلى .
فسأجعل بلادى شخصا وأدعوها أما وربة و « درجا » (١) أخضب
الأرض بالضحايا قرابين لها . أنا كائن بشرى ، لست كائنا قدسيا .

هب سنديب بابو رافع الذراعين وصاح : هورا !

وبعد لحظة استدرك صائحا : باندى ماترم !

وعبرت وجه زوجى سحابة ألم . وقال بصوت رفيق رقيق :
— ولا أنا كائن قدسى . أنا بشر ، ولهذا لا أسمح للشر الذى فى نفسى
أن يتضخم حتى يصبح صورة لبلادى — أبدا . أبدا !

وصاح سنديب بابو : انظر يا نيكهيل كيف يكتسى الحق فى قلب
المرأة لحما ودما . ان المرأة تعرف كيف تكون قاسية . حقدتها
كعاصفة عمياء ، جميل مرعب . أما فى الرجل فقبيح ، لأنه ينطوى
على ديدان العقل والتفكير التى تنخر . أقول لك يا نيكهيل ان
نساءنا هن اللاتى سينقذن البلاد . ليس هذا وقت التشكك والتورع .
يجب أن نكون قساسة فى غير تردد ولا تفكير . يجب أن نعطي
نساءنا دهان خشب الصندل الأحمر ليمسحن خطانا ويمجدنه .
ألا تذكر ما يقوله الشاعر :

« تعالى أيتها الخطيئة ، أيتها الخطيئة الجميلة ،

لتسكب قبلاتك الخمر خمرا حمراء مشتعلة فى دماننا .

انفخى فى بوق الشر القاهر .

واضفرى على جبيننا اكليل العسف المنتشى .

يا الهة الدنس .

لطخى صدورنا بوحل العار ، ولا تخجلى . »

لتسقط تلك الخيرية التى لاتستطيع أن تنزل الهلاك والدمار وهى

باسمة !

(١) الهة الحرب فى الاساطير الهندية القديمة ، بعد العصر الفيدي . وتصور

— برغم قسوتها — ذات وجهه رقيق (المترجم) .

عندما وقف سنديب بابو رافع الرأس يهزأ في لحظة اندفاع بكل ما اعتز به البشر في كل بلد وفي كل عصر - وعدوه أثمن ما يملكون - سرت في جسدي رعدة . ولكنه مضى في خطابه وهو يدق الأرض بقدمه :

- انى لأراك هذه الروح النارية الجميلة التى تحرق البيت رمادا وتضىء العالم الأكبر بلهبها . امنحينا الشجاعة التى لا تغلب لنذهب الى قاع الدمار نفسه . ابعثى الجمال فى كل ما يهلك .
لم يكن واضحا من التى عناها سنديب بابو بخطابه الأخير .
لعلها تلك التى دعاها حين هتف « باندى ماترم » ، أو لعلها المرأة فى بلاده ، أو لعلها تلك التى تمثلها ، وهى المرأة التى أمامه .
وكان ماضيا على هذه الوتيرة لولا أن زوجى نهض عن كرسيه فجأة ولمس كتفه برفق قائلا : سنديب ، ان تشاندранات بابو هنا .
فاستوفزت والتفت ، لأجد سيدا شيخا بالباب ، سيماه الهدوء والوقار ، يتردد بين الدخول والانصراف . وكان يضىء وجهه نور لطيف كنور الشمس الفاربة .
واقترب زوجى منى وهمس : هذا أستاذى الذى حدثتك عنه كثيرا . حييه .
فانحنيت خاشعة ومسحت التراب عن قدميه . وباركنى قائلا :
- رعاك الله دائما يا أمى الصغيرة .
شد ما كنت محتاجة الى مثل هذه البركة فى تلك اللحظة !

حكاية نيكهيل

- ١ -

كان ايماني بحيث اعتقدت يوما انى قادر على تحمل كل ماياتى به ربي . ولم أتعرض قط للمحنة . أما الآن فأظنها جاءت . وتعودت أن أختبر قوة نفسى بتخيل كل الشرور التى يمكن أن تنزل بى ، الفقر ، والسجن والعار ، والموت - حتى موت بيمالا . وعندما كنت أقول لنفسى انى قادر على أن ألقاها صابرا لم أكن أبالغ . انى لعلى يقين من هذا ، الا أن ثمة شيئا واحدا لم أستطع أن أتخيله قط ، وهأنذا أفكر فيه اليوم ، وأسأل نفسى : ترى هل أستطيع أن أتحملة حقا . ثمة شوكة فى موضع ما تخز قلبى ، وتؤلمنى ألما مستمرا وأنا فى عملى اليومى .

بل كانى بها لا تكف حتى فى نومى . ولا أكاد أستيقظ فى الصباح حتى أرى البهاء قد ذهب من وجه السماء . . . فما الأمر؟ ما الذى حدث ؟

لقد بلغ من حساسية فكرى أن حياتى الماضية نفسها تبدو وكأنها تعصر قلبى بزيفها ، وهى التى جاءتنى متنكرة فى لبوس السعادة ، وأن العار والحزن اللذين يدنوان منى يفقدان غطاء السر بقدرما يحاولا أن يحجبا وجهيهما . لقد أصبح قلبى كله عيونا . والاشياء التى ينبغى ألا ترى ، الاشياء التى لا أريد أن أراها هذه يجب أن أراها .

جاء اليوم أخيرا ليصبح لازما على حياتى المنكودة أن تكشف عن فقرها فى سلسلة طويلة من الكشوف . واحتل هذا العوز غير المنتظر مكانه فى القلب الذى كان يبدو أن الامتلاء يسوده . ووجب أن يرد الأجر الذى دفعته للوهم تسع سنين من شبابى - ووجب أن يرد مع أرباحه الى الحقيقة حتى آخر أيام حياتى .

ما جدوى الجهد فى المحافظة على كبريائى ؟ واى ضرر فى أن

أعترف بأن شيئاً ما يعوزنى ؟ لعله هو تلك القوة غير المنكرة التى يحبها النساء فى الرجال . ولكن هل القوة مجرد عرض للقوة العضلية ؟ هل يجب ألا تتورع القوة عن وطء الضعفاء تحت الأقدام ؟

ولكن لم كل هذا الجدل ؟ ان الجدارة لا تنال بمجرد المناقشة فيها ، وأنا خلو من الجدارة ، خلو من الجدارة ؟ خلو من الجدارة . وماذا ان كنت خلوا من الجدارة ؟ ان قيمة الحب الحققة هى أنه يستطيع دائما أن ينعم بسخائه على غير الجدير . فللجدارة مكافآت كثيرة على الارض ، ولكن الله خص بالحب المساكين .

حتى اليوم كانت بيমা لا هى ربيبة البيت ، نتاج المكان المحصور والواجبات اليومية الصغيرة الرتيبة وكنت أسأل نفسى : هل يأتى الحب الذى تبذله لى من ينبوع قلبها العميق ، أو لا يعدو أن يكون كالتموين اليومى من ماء الأنابيب الذى تدفعه مضخة المجتمع البخارية العامة .

وكننت أتوق الى رؤية بيমা تزدهر وتتفتح بكل حقيقتها وقوتها . لكن الشئ الذى غاب عن حسابى هو أن المرء يجب أن يتخلى عن كل حق مبنى على العرف اذا أراد أن يجد شخصا يتجلى بحرية فى الحقيقة .

لماذا فاتنى التفكير فى ذلك ؟ أهو اعتزاز الزوج بسلطانه على زوجته ؟ لا . انما السبب انى وضعت غاية ثقتى فى الحب . كننت من الغرور بحيث ظننت انى أستطيع احتمال منظر الحقيقة فى قبحها المخيف . كننت أناوش القدر ، وان بقيت متشبثا بعزمى الواثق على أن أخرج من المحنة ظافرا .

لقد عجزت بيমা عن أن تفهمنى فى أمر واحد . لم تستطع أن تدرك جيدا انى أرى كل فرض للقوة ضعفا . فالضعفاء وحدهم هم الذين لا يجرعون على أن يعدلوا . انهم يهربون من مسئوليتهم أن يكونوا منصفين ، ويحاولون أن يصلوا سريعا الى ما يبتفون باقتحام طرق الظلم المختصرة . وبيমা لا تصبر على الصبر ، فهى تحب فى الرجال الاحترام والفضب والظلم ، واحترامها لا بد أن يدخل فيه عنصر الخوف .

وكننت آمل أن تنجو بيমা من فتنها بالاستبداد حين تجد نفسها حرة فى العالم الخارجى . ولكننى أشعر الآن أن هذه الفتنة مستقرة فى أعماق طبيعتها . للعنيف حبها . من طرف لسانها الى

أعماق معدتها يجب أن تحس لذعة الفلفل الأحمر حتى تستمتع
بطعام الحياة العادى . ولكنى كنت مصمما ألا أؤدى واجبى أبدا
باندفاع المتعصب ، ولا أستعين عليه بخمر الحماسة النارية . وأنا
أعلم أن ييمالا يصعب عليها أن تحترمنى لذلك ، فهى تعد تورعى
ضعفا ، وهى غاضبة على جدا لأنى لا أجرى كالمجنون صائحا :
« باندى ماترم » .

والحق أنى أصبحت مكروها من جميع مواطنى لأنى لم أشاركهم
فى نشوتهم الصاخبة . فهم واثقون أنى اما طامح الى لقب ما أو
خائف من الشرطة . أما الشرطة فيشكون فى انى أضمر خطة ما ،
وأقيم بهدوى معارضة شديدة .

أما الذى أشعر به حقا فهو ان الذين لا يجدون فى معرفة وطنهم
على حقيقته غذاء كافيا لحماستهم ، أو الذين لا يستطيعون أن يحبوا
الناس لكونهم ناسا فقط ويجدون لزاما عليهم أن يصيحوا
ويؤلّخوا بلادهم ليحافظوا على حماستهم - أولئك يحبون الحماسة
أكثر مما يحبون بلادهم .

أن تقدم الهوى على الحق مظهر لعبودية راسخة . فنحن نشعر
بالضياع حيث تكون عقولنا حرة . وحيويتنا المحتضرة يجب أن
تكون ركوبة اما لخيال واما لصاحب سلطان واما لفتوى من
الفقهاء كيما تتحرك . وما دما صما عن الحق لا نتحرك الا بدافع
مفناطيسى فيجب أن نعلم اننا عاجزون عن حكم أنفسنا ، فنحن
محتاجون مهما تكن حالتنا - اما الى شبح موهوم واما الى دجال
حقيقى ليكون هو القاهر فوقنا .

بالأمس حين اتهمنى سنديب بانعدام الخيال قائلا: ان ذلك يمنعنى
أن أتصور بلادى فى صورة محسوسة ، وافقته ييمالا . ولم أذافع
عن نفسى بشئ . لأن الغلبة فى الجدل لا تؤدى الى السعادة .
واختلافها عنى فى رأى لا يرجع الى تفاوت فى الذكاء بل على
الأصح الى تباين فى الطبع .

يتهموننى بأنى عديم الخيال . أى اننى - على قولهم - قد يكون
فى مصباحى زيت ولا شعلة . وهذا بالضبط هو ما أتهمهم به . فأنا
أود أن أقول لهم : أنتم سود كالصوان ، يجب أن تتصادموا
وتصخبوا لتعطوا شرارتكم . ولكن وميضها المتقطع لا ينير بصائرهم
ولا يسند الا كبرياءكم .

وقد كنت لاحظ منذ زمن أن فى سنديب جشعا فظيلا ، وان

مشاعره الجسدية تجعله يحتضن أوهاما عن دينه ، وتدفعه الى موقف مستبد في وطنيته . انه حاد الذكاء ولكنه غليظ الطبع ، فهو يمجّد شهواته الانانية بأن يخلع عليها أسماء طنانة . والتعزى الرخيص بالبفضاء ضرورى له كضرورة اشباع شهواته . وقد طالما حذرتنى بيمالا فى ماضى الايام من حبه الشديد للمال ، وكنت أفهم ذلك ، ولكنى لم أسترح الى الوقوف موقف المساومة من سنديب وخجلت أن أعترف - ولو لنفسى - بأنه يستغلنى .

ولكن من العسير أن أشرح لبيمالا اليوم أن حب سنديب للوطن ليس الا طورا آخر من حبه لذاته ، ذلك الحب الذى يجعله نهما طماعا . وعبرة البطولة التى تبديها بيمالا لسنديب تزيدنى ترددا ازاء الحديث معها عنه ، أن يقودنى شىء من الغيرة الى المبالغة دون أن أدرى . لعل الألم فى قلبى جعلنى أرى سنديب فى صورة مشوهة فعلا . ومع ذلك فقد يكون التصريح خيرا من أن أبقى مشاعرى تنعثر فى باطنى .

- ٢ -

عرفت أستاذى هذه السنوات الثلاثين . لا الشنعة تخيفه ولا المصيبة ولا الموت نفسه . ما كان يمكن أن ينقذنى شىء وأنا الذى ولدت فى تقاليد أسرتنا هذه لو لم يقم حياته بما لها من السلام والحق والبصيرة فى مركز حياتى فمكننى أن أعرف الطيبة بالحق . جاءنى أستاذى فى ذلك اليوم وقال : أمن الضرورى استبقاء سنديب هنا مدة أطول ؟

كانت طبيعته حساسة لكل نذر الشر . بحيث فهم على الفور . وكان قليلا ما يتأثر ، إلا أنه شعر فى ذلك اليوم بظل المتاعب الاسود أمامنا . ألسنت أعرف كم يحببنى ؟

فقلت لسنديب على الشاى : لقد تلقيت رسالة من رانجبور . انهم يشكون لأننى استبقيتك أنانية منى . متى تذهب الى هناك ؟ وكانت بيمالا تصب الشاى ، فاذا هى تطرق ، إلا أنها ألقت نظرة واحدة متسائلة الى سنديب . وقال سنديب : كنت أفكر فى أن هذا التجوال هنا وهناك معناه ضياع مخيف للجهد . انى أشعر بأن عملى من مركز ما يمكن أن يحقق نتائج أبقى .

وهنا نظر الى بيمالا وسأل : ألا توافقيننى على هذا الراى ؟ وترددت بيمالا فى الجواب ثم قالت : كلتا الطريقتين تبدو صالحة :

اتخاذ مركز للعمل . والتجول في البلاد . واصلحهما لك هـ . أفريهما
الى نفسك .

فقال سنديب : اذن اقول ما في فكرى . اننى لم اجد قـ .
مصدرا واحدا للالهام يكفينى الى الأبد . وهذا ما جعلنى لا أكف
عن الترحال ، أستثير حماسة الناس ، وأستمد منهم - بدورى -
ذخيرتى من الطاقة . وأنت اليوم أعطيتنى رسالة بلادى ، فما رأيت
قط مثل هذه النار فى رجل . وسأكون قادرا على أن أنشر نار
الحماسة فى بلادى حين أستعيرها منك . لا ، لا تخجل . أنت
فوق كل حياء وكل تهيب . أنت ملكة النحل فى خليتنا ونحن
العملة سنجتمع حولك . ستكونين مركزنا ووحينا .

فاحمر وجهه بيمالا كله بكبرياء خجول ، واهتزت يدها وهى
لا تزال تصب الشاى .

وجاءنى أستاذى يوما آخر وقال لى : لماذا لا تذهبان الى دار
جيلنج لتغير الهواء ؟ انك تبدو متعبا . هل تنال قسطك من النوم ؟
وفى المساء سألت بيمالا هل يسرها أن تذهب فى رحلة الى الجبال .
وكنت أعلم انها تتوق الى رؤية الهملايا . ولكنها أبت . قضية
البلاد على ما أظن !

يجب ألا أفقد ايمانى . سأنتظر . ان المعبر من العالم الضيق
الى العالم الأوسع ملىء بالعواصف . وعندما تألف هذه الحرية
سأعلم أين مكاني ، فاذا وجدت انى لا ألائم نظام العالم الخارجى
فلن أشارك مع قدرى ؟ بل سأستأذن فى الرحيل صامتا . . . أستخدم
القوة ؟ ولكن من أجل ماذا ؟ هل يمكن للقوة أن تغلب الحقيقة ؟

حكاية سنديب

- ١ -

يقول الرجل العاجز : ما كان من نصيبى فهو لى . ويؤمن على قوله الرجل الضعيف . ولكن درس العالم كله هو هذا : ما يمكننى انتزاعه فهو لى حقا . لن تصبح بلادى لى لمجرد كونها البلاد التى ولدت فيها . ستصبح لى يوم أستطيع أن أكسبها بالقوة .

لكل انسان حق طبيعى فى التملك ، اذن فالطمع طبيعى ، وليس من حكمة الطبيعة أن تقنع بالحرمان ، فما تشتهيه نفسى يجب على بيتى أن تعطيه ، وهذا هو التفاهم الصحيح الوحيد بين طبيعتنا الداخلية وطبيعتنا الخارجية فى هذا العالم . فلتبق المثل العليا الاخلاقية لتلك الكائنات الحية ذات الرغبة الصائمة والقبضة الضعيفة . أما الذين يستطيعون أن يرغبوا بكل نفوسهم ويستمتعوا بكل قلوبهم ولا يعرفون ترددا ولا ورعا فأولئك هم الذين باركتهم السماء ، ولهم تبسط الطبيعة أحفل كنوزها وأحلاها . انهم يسبحون الأنهار ويشبون الأسوار ويقتحمون الأبواب لينالوا كل ما يستحق أن ينال . ولمثل هذا الظفر يفرح المرء وبمثل هذا الغلب تعز قيمة المأخوذ .

ان الطبيعة تسلم نفسها ، بيد أنها لا تسلم نفسها إلا للسارق ، لأنها تسر بهذه الرغبة العنيفة ، بهذا الخطف العنيف . وكذلك هى لا تضع قلادة قبولها حول رقبة الزاهد النحيلة العجفاء . هذه موسيقى الزفاف تدق . لن أترك وقت الزفاف يمر . لهذا قلبى متوثب . فمن هو العروس ؟ انه أنا . ان مكان العروس لمن يقدر أن يأتى فى وقته ، والمشعل بيده . والعروس فى بهو عرس الطبيعة يأتى غير منتظر وغير مدعو .

أستحى ؟ لا ، اننى لا أستحى أبدا . أنا أطلب ما أريد ، ولا

انتظر دائما حتى اطلبه قبل أن آخذه . أولئك الذين يحرمهم تهيبهم
يعظمون حرمانهم باسم الحياء . ان العالم الذى ولدنا فيه هو عالم
الواقع . وعندما يخرج رجل من سوف الاشياء الواقعية صفر
اليدين خاوى المعدة لا تملأ حقيبته الا الكلمات الطنانة ، فانى
أتساءل : لماذا جاء الى هذا العالم القاسى على الاطلاق . هل تسلم
هؤلاء الرجال وظائفهم من أيدي مترفى العالم الدينى ، ليعزفوا
الاحانا معينة على نصوص تقية حلوة فى تلك الجنة الناعمة التى
تتفتح فيها زهور الاشياء ؟ اننى لا أتكلف تلك الالحان ولا أجد
غذاء فى تلك الزهور .

اننى أرغب فيما أرغب فيه باصرار واستعلاء . أريد أن أعجبه
بكلتا يدي وكلتا قدمي : أن أدهن به جسمي كله ، أن آكل منه
حتى أمتلىء ، ولن يصل الى أذنى صغير أولئك الذين أخفوا أنفسهم
بصيامهم الورع حتى جفوا وشحبوا كديدان جائعة تسكن فراشا
طال هجره .

انا لا أريد أن أخفى شيئا ، لأن هذا جبن . ولكن ان لم
أستطع حمل نفسى على الاخفاء حين يكون الاخفاء ضروريا فهذا
أيضا جبن . لأن لك طمعك ، أنت تبني أسوارك ، ولأن لى طمعى ،
أنا أنفذ منها . أنت تستخدم قوتك وأنا أستخدم مهارتى . وهذه
هى حقائق الحياة ، وعليها تقوم الممالك والامبراطوريات وكل
الاعمال العظيمة التى ينهض بها الناس .

أما أولئك « المبعوثون » الذين يهبطون إلينا من جنتهم ليكلمونا
بلغة قدسية فان كلماتهم غير واقعية . ولذلك لا تجد أقوالهم مكانا
— مهما يلقوا من تصفيق — الا فى الأركان التى يختبئ فيها
الضعفاء . انهم محتقرون من أولئك الاقوياء الذين يحكمون العالم .
والذين استطاعوا بشجاعتهم أن يروا هذا نالوا النجاح ، أما أولئك
المساكين الذين تجذبهم الطبيعة الى ناحية ويجذبهم هؤلاء
« المبعوثون » الى ناحية أخرى ، فانهم يضعون احدى قدميهم فى
قارب الواقع والاخرى فى قارب الزيف ، ولذلك هم فى حيرة محزنة ،
لا يستطيعون أن يتقدموا ولا أن يبقوا فى مكانهم .

كثير من الناس يبدو كأنهم لم يولدوا الا ليركبهم وسواس
الموت . ولعل هناك شيئا من الجمال — كجمال الشمس الفاربة —
فى هذا الموت الملكى فى ثنايا الحياة ، الذى يبدو أنه يسحرهم .
ان نيكهيل يحيا هذا النوع من الحياة ، ان جاز أن نسميه حياة .

وقد كان بينى وبينه ، منذ أعوام ، جدال كبير حول هذه المسألة . قال : صحيح أنك لا تستطيع أن تكسب شيئاً إلا بالقوة . ولكن ما هذه القوة ؟ ثم ما هذا الكسب ؟ أن القوة التى أومن بها هى القدرة على التخلّى . فأجبتة متعجبا : اذن فأنت مفتون بعظمة الافلاس ! فأجاب : أشد الفتنة . كفتنة الفرخ الصغير بافلاس بيضته . أن البيضة شئ واقعى ماثل ولكنها تتحرك من أجل نور وهواء لا يلسمان . أحسبك تقول انها تجارة خاسرة ؟

عندما يعمد نيكهيل الى المجاز فلا أمل فى أن تجعله يرى أنه يتعامل مع كلمات لا مع أمور واقعية . حسنا ، فليبق سعيدا بمجازاته . اننا آكلو اللحوم فى هذا العالم . ان لنا أسنانا وأظافر . اننا نطارد ونمسك ونمزق . اننا لا نقنع بأن نجتر فى المساء العشب الذى أكلناه فى الصباح . نحن على كل حال لا نستطيع أن نسمح لتجار المجاز بأن يوصدوا الباب دون غذائنا ، فان فعلوا فما علينا الا أن نختلس أو نسرق ، لأننا يجب أن نعيش .

سيقول الناس انى أبتكر نظرية جديدة ، لا شئ الا لأن الذين يسمعون فى هذا العالم تعودوا أن يقولوا غير هذا الكلام ، وان كانوا يعملون به دائما فى الواقع . لهذا يعجزون عن أن يفهموا كما أفهم ان هذا هو المبدأ الخلقى الوحيد الفعال . والحقيقة انى أعلم أن فكرتى ليست بالنظرية الفارغة ، فالحياة العملية تثبت صدقها ، وقد وجدت أن طريقتى تكسب قلوب النساء ، وهن بنات هذا العالم انواقى اللاتى لا يحلقن بين عالم السحب فى بالونات ملأى بالأفكار كما يفعل الرجال .

النساء يجدن فى قسماتى وطريقتى ومشيتى وكلامى انفعالا ملؤه السيطرة ، لا انفعالا جففته حرارة الزهد . انفعالا ملؤه الدم ، لا انفعالا يدير وجهه الى الخلف عند كل خطوة فى شك وتساؤل . انه يزمجر ويندفع كالطوفان صائحا : « أريد ، أريد » . والنساء يشعرن فى أعماق قلوبهن أن هذا الانفعال الذى لا يمكن اخضاعه هو دم الحياة للعالم ، فهو لا يعترف بقانون غير ذاته ، ولذلك ينتصر . من أجل هذا السبب كثيرا ما استسلمن ليجرفهن مد انفعالى ، غير مباليات ان قادهن الى الحياة أو الى الموت . أن القوة التى تستحوذ على هؤلاء النساء هى قوة الرجال الأشداء ، هى القوة التى تستحوذ على عالم الواقع .

ان الذين يتخيلون مزيدا من الصلاح فى عالم آخر أولئك انما

ينقلون رغباتهم من الارض الى السماء . فلننتظر لنرى الى اى مدى يعلو يثبوعهم المتدفق ، وحتام يستمر . أما الذى لاشك فيه فهو ان النساء لم يخلقن لهذه المخلوقات الشاحبة آكلى اللوتس المثاليين .

« الوفاق ! » كثيرا ما قلت ، حين كنت فى حاجة الى هذا القول ، ان الله خلق أزواجا معينة من الرجال والنساء ، وان اتحاد مثل هؤلاء الأزواج هو الاتحاد الوحيد المشروع ، وانه فوق كل اتحاد يصنعه القانون . وسبب قولى هذا ان الانسان وان أراد اتباع الطبيعة فانه لا يسر بذلك الا أن يستتر خلف عبارة ما ، لهذا يمتلىء العالم بالكاذيب .

« الوفاق » ولماذا يكون هناك وفاق واحد فقط ؟ قد يوجد وفاق مع الالوف . وما دخل قط فى عهدى مع الطبيعة ان أنسى كل موافقاتى التى لا تحصى من أجل وفاق واحد فقط . وقد اكتشفت كثيرا من الموافقات فى حياتى حتى الآن ، ولكن ذلك لم يفلق الباب دون المزيد - وذلك الوفاق يلوح واضحا لعينى . وهى أيضا قد اكتشفت وفاقها معى .

واذن :

واذن فانى جبان لم أكسب .

الفصل الثالث

حكاية ييمالا

- ٦ -

عجبا . أين ذهب حيائي ؟ الحق أنى لم أجد وقتا لأفكر فى
أمرى . كانت أيامى وليالى تمر خاطفة كدوامة أنا فى مركزها ، ولم
يكن ثمة منفذ ليدخل منه التردد أو التلطف .

و ذات يوم قالت سلفتى لزوجى : كان البكاء حظ النساء فى
هذا المنزل حتى الآن . وها قد جاء دور الرجال .
ومضت تقول ، والتفتت الى : علينا ألا نضيع عليهم نصيبهم .
انى أراك قد برزت للمعركة يا « تشوتا رانى » (١) فصوبى سهامك
الى قلوبهم .

وفحصتنى عيناها الحادثتان من فرعى الى قدمى ، فلم يفتنها لون
من الألوان التى ازدهرت فى زينتى و ثيابى وشارتى وكلامى . انى
أخجل اذ أتحدث اليوم عن هذا ، ولكن لم أشعر بخجل آنذاك ،
فقد كان يعتمل فى باطنى شىء لا أعياه مجرد وعى . حقا لقد كنت
أبالغ فى العناية بملابسى ، ولكنى كنت أفعل ذلك وأنا أشبه
بالآلة ، لا أرمى الى قصد معين . ولا شك انى كنت أعرف ما الذى
سيستحسنه سنديب بابو من جهودى ، ولكن ذلك لم يكن يحتاج
الى حدس ، فكان يتحدث عنه فى صراحة أمام الجميع .

ذات يوم قال لزوجى : أتدرى يا نيكهيل .. عندما رأيت ملكتنا
للمرة الاولى كانت جالسة هناك ساكنة الطائر فى ساريها ذى
الحاشية الذهبية ، وكانت عيناها تحدقان فى الفراغ مستفهمتين

(١) ييمالا هى زوجة الاخ الاصغر [A] فهى « التشوتا رانى » أو الاميرة الصغيرة .
(المترجم) .

كنجمتين ضلتا طريقهما ، وكأنها قضت عصورا وهي واقفة على حافة ظلام تنظر ، ترتقب شيئا مجهولا . ولكنى حين رايتها شعرت بهزة تشملنى ، وخيل الى ان الحاشية الذهبية لساريها كانت هى نارها الباطنة تتلهب وتلتف حولها . تلك هى الشعلة التى نريدها ، النار المنظورة ! بالله يا ملكة الا أحسنت الينا بأن تلبسى مرة أخرى كشعلة حية .

كنت قبل كنهر صغير على حافة قرية . كان ايقاعى ولغتى غير ما هما الآن . ولكن المد جاء من البحر ، وجاش صدرى ، وتداعى شاطئائى . وتجاوبت أمواج البحر ثقرا قرع الطبول فى تيارى المجنون . لم أستطع أن افهم معنى ذلك الصوت فى دمي . أين كانت نفسى الاولى ؟ من أين جاء هذا السيل الانى من المجد يزد فى باطنى ؟ كانت عينا سنديب الجائعتان تشتعلان كمصباحين للعبادة أمام هيكلى . كانت كل رنوته تعلن انى المحبوبة فى الجمال والقوة ، وعلو مديحه المنطوق وغير المنطوق يفرق كل الاصوات الاخرى فى عالمى . وتساءلت هل خلقتى الخالق من جديد ؟ وهل أراد أن يعوضنى الآن عن طول ما نبذنى ؟ أنا التى كنت خلوا من الجمال أصبحت فجأة جميلة . أنا التى كنت ولا شأن لى أصبحت الآن أشعر فى نفسى بكل بهاء البنغال .

فان سنديب بابو لم يكن فردا مجردا . لقد التقت فيه ملايين النفوس فى البلاد ، وعندما سمانى ملكة الخلية ردد كل رجالنا الوطنيين آيات الثناء . وبعد ذلك لم أعد آبه للمرات سلفتى الجهيرة ، فقد تغيرت علاقاتى بالعالم بأسره ، وأوضح لى سنديب بابو أن الوطن كله فى حاجة الى ، ولم أجد صعوبة فى تصديق ذلك ، فقد شعرت بأن لدى القوة لأفعل كل شيء . لقد جاءتنى قوة الهية ، كانت شيئا لم أشعر به قط من قبل ، شيئا اكبر منى ، لم يتسع لى الوقت لأتبين طبيعته . كان يبدو أنها لى ، ولكنها تعوقنى ، لقد كانت تشمل البنغال كلها .

وكان سنديب بابو يحب أن يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالحركة ، وكنت فى أول الأمر أشعر بالحرص وأميل الى التوارى ، ولكن سرعان ما زال عني ذلك ، وكنت كلما أشرت بشيء بدت عليه الدهشة ، وطار من البهجة ، وقال : الرجال لا يحسنون الا أن يفكروا ، أما أنتن معشر النساء فلكن طريقة فى الفهم دون أن تفكرن . ان الله خلق المرأة من خيال ، أما الرجل

فقد طرقه كى تعتدل صورته .

وكانت الرسائل ترد الى سنديب بابو من أنحاء البلاد فيعرفونها على الأبدى رأى فيها . وربما اختلفنا دون أن أحاول مجادلته ، فيبعث في طلبى بعد يوم أو يومين وكأنما لاحت له فجأة فكرة جديدة ، ويقول : لقد كنت مخطئا . كان رأيك هو الصواب . وكثيرا ما يعترف لى بأنه حيثما عمل بخلاف نصيحتى كان الخطأ رائده . وهكذا تكون عندى اليقين بأن سنديب بابو وراء كل ما يحدث ، وان وراء سنديب بابو بداهة عادية لامرأة . وامتلأ كيانى بمجد مسئولية عظيمة .

ولم يكن لزوجى مكان فى مشاوراتنا . فقد كان سنديب بابو يعامله كأخ أصغر قد يكون المرء شديد الحب له ولكنه لا يأخذ برأيه فى الأمور . وربما تكلم بحنان وابتسام عن براءة زوجى التى تشبه براءة الطفل ، قائلا ان مذهبى الفريب وأفكاره الشاذة لا يخلوان من فكاهاة تزيدهما ظرفا ، وكأنما كان عطفه على نيكهيل هو نفسه الذى يمنع سنديب بابو من أن يحمله أعباء البلاد . ان فى صيدلية الطبيعة مسكنات كثيرة تقدمها خفية حين تقطع الروابط الحية على غير انتظار ، فلا يدرى أحد بالجراحة حتى يصحو المرء أخيرا ليعلم بما أحدث من شق كبير . فبينما كان المشرط يعمل جاهدا فى أمس حياتى كانت ترين على عقلى أبخرة غاز مسكر ، فلم أشعر أدنى شعور بقسوة ما يحدث . لعل هذه هى طبيعة المرأة . فحين تثور عاطفتها تفقد القدرة على ادراك كل ماعداها . عندما نبقى نحن النساء كالنهر داخل شطآنه ، نفذو بكل ما لدينا ، فاذا فضنا على الشيطان دمرنا بكل ما فىنا

حكاية سنديب

- ٢ -

يبدو لي أن ثمة خطأ ما . وقد شعرت بهذا الخطأ منذ يومين .
فمنذ قدومي أصبحت حجرة جلوس نيكهيل شيئاً خلاسيا ، بين
جناح للنساء وجناح للرجال . فكانت بيমা لا تدخلها من «الزينا» ،
ولم تكن مقفلة دونى من الجانب الآخر . ولو أننا أبطأنا فى السير
وآثرنا القصد فى الاستفادة من امتيازاتنا لما اصطدمنا بأناس آخرين .
ولكننا مضيئنا مندفعين فلم نفكر فى العواقب .

فكلما كانت « الملكة » تدخل حجرة نيكهيل كنت أعرف ذلك
بطريقة ما وأنا فى حجرتى . فهناك رنين الخلاخيل ورسومات أخرى ،
وقد يصفق الباب بقوة غير ضرورية ، ولخزانة الكتب صرير حين
تفتح لأن مصاريحها غير ناعمة . وحين أدخل أجد الملكة وظهرها
الى الباب عاكفة على اختيار كتاب من بين الأرفف ، فاذا تطوعت
لمساعدتها فى هذه المهمة الصعبة نفرت وأبت ، ثم ننتقل دون تعمد
الى موضوعات أخرى .

وأمس الاول ، وكان يوم خميس منحوسا (١) ، انطلقت بعد
الظهر من حجرتى على نداء الاصوات نفسها ، فوجدت حارسا فى
الممر ؟ فمضيت فى سبرى دون أن أعيره نظرة ، ولكنه اعترض
طريقى حين اقتربت من الباب قائلا : ليس هذا هو الطريق
ياسيدى .

- ليس هذا هو الطريق ؟ لماذا ؟

- أمنا الرانى هناك .

- أوه ، حسنا ، قل لأملك الرانى أن سنديب بابو يريد أن
يراه .

(١) وفقا للتقويم الهندى . (المترجم) .

— هذا لا يكون ياسيدى . انه مخالف للأوامر .
واستبد بى الغضب ، فقلت بصوت عال : انى أمرك . اذهب
وأعلنها بقدمى !

واجفل الرجل شيئاً ما ازاء مسلكى ؟ وكنت قد دنوت من
الباب وأوشكت أن أبلغه حين تبعنى وأمسك بذراعى قائلاً : لا
ياسيدى ، يجب ألا تفعل !

ماذا ! خادم يلمسنى ! جذبت ذراعى وصفعت الرجل صفعة
رنانة ، وفى هذه اللحظة خرجت الملكة من الحجرة لتجد الرجل
موشكا أن يعنف بى .

ولن أنسى صورة غضبها ! اننى أنا الذى اكتشفت جمال الملكة ،
ونعل معظم قومنا لا يرون فيها شيئاً ، فقوامها الطويل المشقوق
يسميه هؤلاء الاجلاف « نحىلا » ، ولكن هذه اللدونة فيها هى
التي تعجبنى ، كينبوع حياة متوثب ، صادر من أعماق قلب الخلق .
وبشرتها سمراء ولكنها سمرة الفرند اللامعة فى حدة والألاء .

أشارت بأصبعها وهى واقفة بالوصيد وأمرت : نانكو ! اتركنا !
فقلت : لا تفضبى عليه ، ان كان هذا مخالفاً للأوامر فأنا الذى
يجب أن أذهب .

وكان صوت الملكة لا يزال مرتعشاً وهى تجيب : يجب ألا
تذهب . ادخل !

لم يكن ذلك رجاء بل أمراً جديداً ! وتبعتها داخلاً ، وجلست
على كرسى وأخذت أروح عن نفسى بمروحة وجدتها على المنضدة .
وخطت الملكة شيئاً بقلم رصاص على قطعة من الورق ونادت خادماً
سلمتها اليه قائلة : خذ هذه الى المهرابا .

فعدت أقول : معذرة ، لم أستطع أن أملك نفسى ، فضربت
رجلك هذا .

قالت الملكة : انه يستحق .

— ولكن ذلك لم يكن خطأ المسكين . انما كان يطيع أوامره .
وهنا دخل نيكهيل ، وفى أثناء دخوله تركت كرسى مسرعاً
ووقفت قرب النافذة وظهرى الى الحجرة . قالت الملكة لنيكهيل :

— لقد أهان الحارس نانكو سنديب بابو .

وبدت دهشة نيكهيل صادقة حتى انى لم أتمالك أن التفت
وحدقت فيه . حتى الرجل الفاضل فوق ما يتصور يعجز أن
يحافظ على عزة الصدق أمام زوجته — ان كانت حقاً امرأة .

ومضت الملكة تقول :

— لقد اعترض طريق سنديب بابو بوقاحة وهو قادم الى هنا .
قال ان لديه أوامر ..

فسأل نيكهيل : أوامر من ؟

وصاحت الملكة بصبر نافذ وعيناها تطفحان غضبا وقهرا :
كيف لى أن أعلم ؟

فبعث نيكهيل فى طلب الرجل وسأله ، فأجاب نانكو عابسا : لم
يكن هذا خطئى . كانت لدى أوامر .
— من أمرك ؟

— أمنا البارا رانى .

وصمتنا جميعا برهة . وبعد أن انصرف الرجل قالت الملكة :
يجب أن يذهب نانكو !

فظل نيكهيل صامتا . وكان بوسعى أن أرى أن عدله لايسمح
بهذا ، فقد كانت الشكوك تتلجج دائما فى صدره ، ولكنه كان
أزاء مشكلة عنيدة هذه المرة ، فلم تكن الملكة بالمرأة التى تلاين أو
تخضع ، وكان لابد لها أن تكيل لسلفتها مثل كيلها بأن تعاقب هذا
الرجل ، وكانت عيناها تقدحان شررا ، ونيكهيل ملازم لصمته ،
وهى لاتدرى كيف تصب احتقارها على خور زوجها . وترك نيكهيل
الحجرة بعد لحظة دون أن يضيف كلمة .

وفى اليوم التالى اختفى نانكو ، وحين استفسرت علمت أنه
أرسل الى مكان آخر فى الإمارة ، وأن راتبه لم يخفض لهذا النقل .
واستطعت أن ألمح — خلف المناظر — آثارا مما خربته العاصفة
انتى أثارها هذا العمل . كل ما أستطيع قوله ان نيكهيل كائن غريب
خارج عن المألوف .

وكانت النتيجة أن أصبحت الملكة تستدعينى الى حجرة الجلوس
للحديث دون احتيال لذلك أو زعم بأنه مصادفة . وهكذا خرجنا من
الايماء الى التلميح الواضح ، فأصبح المفهوم منطوقا . ان الكنة
فى بيت الإمارة تعيش فى حجرة نائية عن الاجنبى العادى حتى انه
لايوجد طريق معلوم ليقترّب منها . فما كان أعظمه من تقدم ظافر
للحقيقة ألقى قناعا للتقاليد المضللة بعد قناع ، متدرجا ولكن فى
أصرار ، حتى تجلت الطبيعة نفسها آخر الأمر .

الحقيقة ؟ أجل انها كانت الحقيقة ، فتجاذب الرجل والمرأة
أصل رأسخ ، يؤكد عالم المادة كله من ذرة الفبار الى مافوقها .

ولكن الرجال يريدون أن يحجبوه عن الانظار خلف قناع من الكلمات ، ويجعلوا منه أداة منزلية بما يصنع في البيت من المقدسات والمحظورات . ان هذا ليس أقل سخفا من صهر النظام الشمسى لصنع سلسلة ساعة لزوج البنت ! (١) .

فاذا استيقظ الواقع - رغم كل شيء - لنداء ما لا يعدو أن يكون حقيقة عارية ، فيا لصير الاسنان ويا لصك الصدور ! ولكن هل يستطيع المرء أن ينازع عاصفة ؟ انها لن تعنى نفسها بالرد بل ترجه رجا .

وانى لأستمع بمرأى هذه الحقيقة وهى تتكشف رويدا رويدا . هذه الارتجافات في الخطا ، وهذه الاشاحات من الوجه أجدها حلوة ، وحلوة هى الخدع التى لا تخدع الآخرين فحسب بل الملكة نفسها . فحين يضطر الواقع الى أن يلقي الزيف يكون الخداع سلاحه الرئيسى ، لأن أعداء الواقع يحاولون دائما اخزائه اذ ينعتونه بالفظاظة ، فلا بد له أن يختفى أو يتنكر ، والمقام لا يسمح له أن يعلن في صراحة . نعم اننى فظ ، لأنى حق . أنا الجسم . أنا العاطفة . أنا الجوع الذى لا يخجل ولا يرحم .

كل شيء واضح لى الآن . الستارة تهتز ، ومن خلالها أستطيع ان أرى الاعداد للفاجعة . الشريط الاحمر الصغير الذى يطل من خصل شعرها الاثيث متضرجا بشوقه الدفين هو اللسان الذى يتدلى من سحابة العاصفة الحمراء . انى أحس الدفء في كل ثنية من ساريها ، وكل ايماءة في ملابسها . ولعل اللابسة زمنها لا تشعر بذلك شعورا جليا .

ان الملكة لم تشعر ، لأنها خجلة من الواقع الذى نبذه الناس بلقب الشيطان ، فاضطر أن يتسلل الى جنة النعيم في صورة ثعبان ، ويهمس بالاسرار في أذن رفيقة الرجل المختارة ، واذا هى تثور ، فسلاما على كل راحة ، وبعد ذلك يأتى الموت ! ان ملكتى الصغيرة المسكينة تعيش في حلم . هى لا تدرى في أى طريق تسير ، وايقاظها قبل الاوان غير مأمون ، فخير لى أن ادعى من عدم الوعى مثل ما عندها .

منذ أيام كانت تتأملنى على الغداء بنظرات غريبة ، جاهلة معنى هذه النظرات . وحين التقت عيناي بعينيها أشاحت بوجهها الذى تخرج خجلا . فقلت : أتدهشك شهيتى ؟ اننى أستطيع أن أخفى

(١) زوج البنت هو الشخص المدلل فى البيت الهندى . (المترجم) .

كل شيء الا نهيم . وعلى كل حال لماذا يحمر وجهك من أجلى وأنا لا أستحي ؟

فلم يزد ذلك وجهها الا احمرارا ، وتمتت : كلا ، كلا . لقد كنت فقط ..

فقاطعتها قائلا : انى أعلم . النساء يملن الى الرجال النهمين ، فنهمننا هذا هو الذى يجعل لهن اليد العليا . وقد تلقيت من أيديهن اكراما زادنى عدم حياء ، فلست أبالى البتة أن تنظرى الى الطيبات تختفى ، فانى عازم على أن أستمتع بكل واحدة منها .

ومنذ أيام كنت أقرأ كتابا انجليزيا يعالج مشكلات الجنس بطريقة واقعية جريئة . فتركته فى حجرة الجلوس . وحين دخلتها بعد ظهر اليوم التالى لبعض الشأن وجدت الملكة جالسة وهـذا الكتاب فى يدها ، فحين سمعت خطواتى ألقته بسرعة ووضعته فوقه كتابا آخر - مجلدا من أشعار مسز هيمان .

وبدأت الحديث قائلا : لست أدري لماذا نخجل النساء اذا ضبطن يقرأن الشعر . قد يكون لنا نحن الرجال - محامين أو مهندسين أو غير ذلك - أن نخجل من هذا ، واذا لم يكن لنا من قراءة الشعر بد فينبغى أن يكون ذلك فى هدوء الليل خلف أبواب مغلقة . أما أنتن معشر النساء فيمكن وبين الشعر نسب قريب . ان الخالق نفسه شاعر ، ولا بد أن جايدايفا (١) قد تعلم الفن القدسى جالسا عند قدميه .

فلم تحر الملكة جوابا ، غير أن وجهها احمر فى قلق ، وهمت بمغادرة الحجرة ، فقلت مستنكرا : كلا ، كلا ، أرجوك أن تمضى فى قراءتك . انا لا أبغى الا كتابا تركته هنا ، وسأنطلق من فورى - وأخذت الكتاب من على المنضدة - من حسن الحظ أنك لم تفكرى فى تصفحه فيدعوك ذلك الى معاقبتى .

فسألت الملكة : حقا ! لماذا ؟

قلت : لأنه ليس شعرا ، بل أشياء صريحة ، فى لغة صريحة ، لا تتحرز ولا تتحرج . وددت لو يقرأه نيكهيل .

فعبست الملكة قليلا وهى تتمتم : وما الذى يجعلك تود ذلك ؟ - ألا ترين أنه رجل ، واحد منا ؟ كل الخلاف بينى وبينه أنه يحب أن ينظر الى هذا العالم نظرة مغلقة بالضباب . ألم تلاحظى

(١) شاعر غنائى تصلح قصائده فى تمجيد الله للتعبير عن مختلف المواطن الإنسانية . (المترجم) .

ان هذه الصفة فيه تجعله ينظر الى « السواديشى » كأنها قصيدة شعر يجب أن يسلم وزنها فى كل خطوة ؟ أما نحن فانا محطمو الوزن بهراواتنا النثرية .

— وما شأن كتابك بالسواديشى ؟

— ستعلمين متى قرأته . ان نيكهيل يريد أن يتبع مبادئ موضوعه . يريد ذلك السواديشى كما يريد فى كل شيء آخر ، ولهذا يصطدم بالطبيعة البشرية عند كل منعرج ، ثم يأخذ فى ذمها ، ولا يريد أن يدرك أبدا أن الطبيعة البشرية قد خلقت قبل أن تخلق العبارات بوقت طويل ، وستعيش بعدها أيضا .

فصمت الملكة لحظة ثم قالت برزانة : أليس من الطبيعة البشرية انها تحاول السمو على نفسها ؟

وابتسمت فى باطنى ، وقلت لى نفسى : ليست هذه كلماتك ، لقد حفظتها من نيكهيل . « أنت » بشر سوى . لقد استجاب لحملك ودمك لنداء الواقع . كل عروقت تشتعل بنار الحياة — أليست أعلم ذلك ؟ فحتام يبقونك باردة بهذه المنشقة المبللة ، المبادئ الخلقية ؟

وقلت بصوت مرتفع : ان الضعفاء أغلبية ، وهم دائما يسممون آذان الناس بترديد هذه المزاعم . لقد حرمتهم الطبيعة من القوة ، ولهذا يحاولون أن يضعفوا الآخرين .

فردت بيما لا : نحن النساء ضعيفات ، وأحسبنا يجب أن ننضم الى مؤامرة الضعفاء .

فصحت ضاحكا : النساء ضعيفات ! ان الرجال يمتدحونكن بالنعومة والرقه حتى يوهموكن انكن ضعيفات . ولكن القوة فيكن معشر النساء . ان الرجال يبالفون فى التظاهر بما يسمونه حریتهم ، ولكن الذين يعرفون تفكيرهم الباطنى يدركون عبوديتهم . لقد كتبوا الكتب بأيديهم ليقيدوا أنفسهم . وبمثاليتهم صنعوا أغلالا ذهبية للنساء يلفونها حول أجسامهن وعقولهن . ولو لم تكن للرجال هذه القدرة العجيبة على إيقاع أنفسهم فى أشراك من صنعهم لما استطاع شيء أن يبقينهم فى القيد . أما أنتن معشر النساء فقد رغبتن أن تحتوين الواقع . بالجسم والروح ، لقد ولدتن الواقع وأرضعتن الواقع أئداءكن .

وكانت الملكة واسعة الاطلاع بالنسبة الى غيرها من النساء ، ولم يكن من اليسير أن تسلم بحججى . فقالت تناقضنى : لو

صح ذلك لما وجد الرجال جاذبية في النساء .
فأجبتها : ان النساء يدركن الخطر . هن يعلمن ان الرجال
يحبون الاوهام ، لذلك يعطينهم كفايتهم منها بأن يستعرن عباراتهم
نفسها . هن يعلمن ان الرجل - ذلك السكر - يفضل النشوة
على الطعام . ولذلك يحاولن أن يبدون في مظهر شيء يثيرالنشوة .
والواقع انه لولا الرجل لما احتاجت المرأة الى التمثيل .
- اذن لماذا تعنى نفسك بتحطيم هذا الوهم ؟
- من أجل الحرية . اننى أريد الحرية للبلاد ، وأريد الحرية
للعلاقات الانسانية .

- ٣ -

كنت أعلم ان مفاجأة من يمشى في النوم بايقاظه أمر غير محمود
العاقبة ، ولكن في طبعى اندفاعا ينفرنى من المشية المتثدة . وقد
علمت انى مسرف فى الجسارة ذلك اليوم ، وعلمت ان صدمة مثل
هذه الافكار توشك أن تكون غير محتملة ، ولكن الجسارة هى التى
تكسب دائما مع النساء .

بينما كنا نتقدم بخطا حثيثة اذ بأستاذ نيكهيل الشيخ -
تشاندرانات بابو - يدخل علينا . ان العالم ليذهب منه أكثر من
نصف رداءته مكانا للعيش لو خلا من هؤلاء المعلمين الذين يجعلون
المرء يود أن يفاديه فى اشمئزاز . وأمثال نيكهيل يريدون أن يبقى
العالم أبدا مدرسة . وقد ظهرت هذه المدرسة المتجسدة عصر ذلك
اليوم فى لحظة سيكولوجية .

نحن جميعا نطل تلاميذ صفارا فى ركن ما من قلوبنا . وحتى أنا
شعرت بشيء من الارتباك . أما الملكة المسكينة فقد انتظمت فى
مكانها على الفور كأول الصف على المقعد الاول ، وكأنها تذكرت
فجأة أن عليها أن تواجه الامتحان .

ان بعض الناس أشبه « بعمال تحويل » دائمين ينتظرون بجانب
الخط الحديدى ليحولوا قطار أفكار المرء من قضيب الى قضيب .
ماكاد تشاندرانات بابو يدخل حتى أخذ يتلمس عذرا للانصراف
متمتما : معذرة .. اننى ..

ولكن الملكة أسرعته اليه قبل أن يتم ، وانحنيت فى خشوع
قائلة : أتوسل اليك ألا تتركنا ياسيدى . ألا تتفضل بالجلوس؟
كانت كفرىق يتعلق به طالبا النجدة ...! الرعيدة الصغيرة !

ولكن من الجائز انى اخطات الفهم فلعل دعوتها اياه كانت تنطوى على شيء من مكر النساء . لعلها كانت تريد أن ترفع قيمتها في عينى . لعلها كانت تقول لى فى وضوح وايجاز : لا يخطرنب ببالك لحظة انى خضعت لك . بل ان احترامى لتشاندرانات بابو الأكثر من ذلك .

حسنا ، أسبفى احترامك كما تشائين . فالمعلمون يعيشون عليه ، ولكنى لست معلما ، ولا حاجة لى بتلك التحية الفارغة . وبدأ تشاندرانات بابو يتكلم عن « السواديشى » ، فظننت انى أستطيع أن أدعه يتكلم وحده ، فلا شيء يعدل أن تترك شيخا عجوزا يفرغ ما عنده فى الكلام ، يخال أنه يربط العالم فى حزمة ، ونسى طول الوقت كم يبعد العالم الواقعى عن لسانه الثرثار . ولكن أعدى أعدائى لا يستطيع أن يتهمنى بالصبر . وحين بدأ تشاندرانات بابو يقول : « اذا كنا ننتظر أن نجنى الثمار من حيث لم نضع بذورا . . » اضطررت أن أقاطعه . فصحت : من الذى يريد الثمار ؟ نحن نتبع صاحب « الجيتا » الذى يقول : ان علينا أن نسعى وليس علينا أن ننتظر ثمار أعمالنا .

فسأل تشاندرانات بابو : اذن فما الذى تريدونه حقا ؟ فصحت : الاشواك ! الاشواك التى لا تكلف شيئا لتزرع . فأجاب : الاشواك لا تعوق الآخرين فحسب ، بل ان من شأنها أن تجرح أقدام من يزرعها .

فرددت عليه قائلا : هذا حق ليكتب فى مشق . ولكن الشيء الواقعى هو أن لدينا هذه الأكلة فى قلوبنا . ليس علينا الآن الا أن نزرع الشوك لأقدام غيرنا ، وعندما يؤلمنا فيما بعد سيكون لدينا من الفراغ ما يسمح لنا بأن نندم . ومع ذلك فلماذا نخاف حتى ان حدث هذا ؟ عندما يكون علينا أن نموت أخيرا سنجد متسعا من الوقت لنبرد ، أما والنار تلهبنا فدعنا نحتدم ونغلى .

فابتسم تشاندرانات بابو قائلا : لك أن تحتدم كما تشاء ، ولكن على ألا تحسب هذا عملا أو بطولة ، فالأمم المتقدمة فى العالم قد تقدمت بالعمل لا بالفليان . وأولئك الذين رقدوا دائما فى خوف من العمل اذا استيقظوا فجأة لحالهم المحزنة بحثوا عن خلاصهم فى اختصار الطرق ولهوجة الاعمال .

وكنت أتحفز لالقاء رد قاطع حين عاد نيكهيل . فنهض تشاندرانات

بابو ونظر الى الملكة قائلاً : دعيني اذهب الآن يا أمي الصغيرة
لأعني ببعض شأني .

ولما خرج أريت نيكهيل الكتاب الذي بيدي وقلت له : لقد
كنت أحدث الملكة عن هذا الكتاب .

ان تسعة وتسعين في المائة من البشر يجب خداعهم بالأكاذيب ،
ولكن الطريق الاسهل مع هذا التلميذ الابدی لمعلم المدرسة هو
خداعه بالحقيقة . فأفضل ما يفش به هو الصراحة . ولهذا كانت
أسر الطرق حين أقامره أن أضع أوراقى على المائدة .

قرأ نيكهيل العنوان على الفلاف ولم يقل شيئاً . فمضيت أقول :
هؤلاء الكتاب يعملون مكانسهم بهمة ، مزيجين تراب النعوت التي
غطى بها الناس عالمنا هذا . لذلك كنت أقول انى أود لو تقرأوه .
فقال نيكهيل : لقد قرأته .

— حسناً ، وما رأيك ؟

— انه نافع لمن يريدون حقاً أن يفكروا ، ولكنه سم لمن يفزعون

من التفكير .

— ما الذى تعنيه ؟

— أولئك الذين يدعون الى « المساواة فى حقوق الملكية » يجب

الأن يكونوا لصوصاً ، لأنهم ان كانوا لصوصاً فما يعلمونه أكاذيب .
وعندما يتغلب الانفعال لا يفهم مثل هذا الكتاب على وجهه .

فأجبت : الانفعال هو مصباح الشارع الذى يرشدنا . وتسميته
باطلاً عبثاً ، كتوقع أن تحسن الرؤية باقتلاع العينين الطبيعيتين .

وكان واضحاً أن نيكهيل قد أخذته الحماسة . قال : اننى لا

أسلم بحقيقة الانفعال الا حين أسلم بحقيقة التحكم فيه . وحين

ندفع ما نريد رؤيته داخل عيوننا لا نرى وانما نؤذى عيوننا ،

وكذلك عنف العاطفة الذى لا يترك مسافة بين العقل وموضوعه

يؤدى الى عكس المقصود .

فأجبت : انما هو تأنقك الفكرى الذى يجعلك تترسل فى

لطائف أخلاقية ، متجاهلاً الجانب الوحشى للحقيقة . وهذا

لايساعدك الا على اضعاف غلالة من الابهام على الاشياء فلا تستطيع

أن تعمل بشيء من القوة .

فقال نيكهيل نافد الصبر : ان اقحام القوة فى غير محلها لايساعدك

فى عملك . . ولكن لماذا تجادل فى هذه الأمور ؟ ان الجدل الفارغ

لايذهب الا نضارة الحقيقة .

وكنـت أريد أن تشترك الملكة فى المناقشة ، ولكنـها لم تنطق بكلمة الى تلك اللحظة . فهل صدمتها صدمة عنيفة تركتها نهبا للريب ، راغبة فى أن تحفظ درسها من جديد على يدى معلم المدرسة ؟ بيد أن الهزة الكبيرة كانت لازمة . فيجب أن يبدأ المرء بادراك أن الامور التى تظن راسخة يمكن أن تهتز .

قلت لنيكهيل : يسرنى انى تحدثت معك ؟ فقد كنت موشكا أن أعير هذا الكتاب للملكة كى تقرأه .

فقال نيكهيل : واى بأس فى ذلك ، اذا كنت أستطيع قراءة الكتاب فلماذا لا تقرأه بيـمـالا أيضا ؟ كل ما أريد قوله هو أن الناس فى أوربا ينظرون الى كل شىء من وجهة العلم . ولكن الانسان ليس علم وظائف الاعضاء فحسب ، ولا علم الاحياء ، ولا علم النفس ، بل ولا علم الاجتماع . بربك لاتنس هذا . ان الانسان أكبر كثيرا من العلم الطبيعى عن نفسه . أنت تضحك منى ، تسمينى تلميذ معلم المدرسة ، ولكنك أنت هذا التلميذ لا انا . فأنت تريد أن تعرف حقيقة الانسان من مدرس العلوم لا من

وجودك الداخلى .

فقلت ساخرا : ولكن لماذا كل هذه الحماسة ؟

— لأنى أراك عاكفا على تحقير الانسان واذلاله .

— وفيم بالله ترى كل هذا ؟

— فى الهراء . فى مشاعرى المهانة . انك دائب على جرح ما هو عظيم وغيرى وجميل فى الانسان .

— أى فكرة مجنونة هذه التى تزعم !

فهب نيكهيل فجأة وقال : أصارحك القول ياسنديب ، ان الانسان قد يخرج حتى الموت ويأبى مع ذلك أن يموت . لهذا السبب انا مستعد لأن أتحمـل كل شىء ، وأنا أعلم كل شىء ، وعيناي مفتوحتان .

قال هذه الكلمات وغادر الحجرة مسرعا .

وكنـت أحملق زائف البصر فى شخصه المتباعد عندما سمعت صوت كتاب يسقط عن المنضدة ، فالتفت لأرى الملكة تتبعه بخطا سريعة عصبية وقد خطت طريقا دائريا لتتجنب المرور بقربى .

مخلوق عجيب نيكهيل هذا ! انه يشعر بالخطر يتهدد بيته ، ولكن لماذا لا يطردنى منه ؟ انا أعلم السبب . انه ينتظر بيـمـالا أن تعطيه الاشارة . فان قالت له بيـمـالا أن زواجهما كان خطأ

فسيحني رأسه ويسلم بأنه ربما كان خطأ ! فليست لديه الصلابة ليدرك ان الاعتراف بالخطأ هو افدح الاخطاء ، وانه لمثل واضح يبين كيف تورث الأفكار ضعفا . ما رأيت أحدا مثله أعجوبة من بدوات الطبيعة ! انه لا يكاد يصلح شخصية في رواية أو مسرحية ، بله واقع الحياة .

والملكة ؟ أخشى أن تكون حياتها الحاملة قد انتهت منذ اليوم . فقد فهمت أخيرا حقيقة التيار الذي يحملها معه ، وعليها الآن أن تتقدم أو تتأخر مفتوحة العينين . ولعل الأقرب الى الظن أنها ستتقدم خطوة ثم تتأخر خطوة ، ولكن ذلك لا يقلقني . فعندما تشتعل النار بانسان يكون اندفاعه ذهابا وجيئة سببا لاحتدامها ، وان يكون الخوف الذي شعرت به الا مذكيا لانفعالها .

لعل الاحجى الا أكلها كثيرا ، بل أكتفى بأن أختار لها بعض الكتب الحديثة لتقرأها . فلتصل رويدا رويدا الى الايمان بأن الانسان يكون عصريا حين يعترف بالانفعال ويحترمه على أنه الواقع الاسمي ، لا حين يخجل منه ويمجد السيطرة عليه . واذا وجدت ملاذا في كلمة مثل « العصرية » فسوف تجد قوة .

ومهما يكن من شيء فيجب أن أرى هذا الأمر الى نهاية الفصل الخامس . على اننى لا أستطيع - ويا للأسف ! - أن أزهو بكوني متفرجا وحسب ، أجلس في المقصورة الملكية وأصفق من حين لآخر . ان فى قلبى عصرة ، وفى كل عصب وخزة . عندما أطفئ النور وأرقد فى فراش ترف حوالى وتملاُ الظلام لمسات ونظرات وكلمات صغيرة ، وعندما أصحو فى الصباح تعرونى هزة اذ أستبق الزمن ، ويخيل الى ان الدم يجرى فى عروقى على نغمات الموسيقى ..

كان على المنضدة اطار مزدوج فيه صورة الملكة الى جانب نيكهيل . فنزعت صورتها . وأمس أريتها الجانب الخالى وقلت لها : السرقة لا تصبح ضرورية الا بسبب البخل ، فيجب أن يقسم اثمها بين البخل والسارق . الا ترين ذلك ؟ فلم تزد على أن قالت وابتسمت ابتسامة صغيرة : انها لم تكن جميلة .

قلت : وما العمل ؟ لن تكون الصورة أفضل من صورة . وعلى أن أقنع بها مهما كانت . فأخذت الملكة كتابا وراحت تقلب صفحاته . ومضيت أقول :

ان كان هذا يضايقك فعلى ان أحتال لملء الفراغ .
وقد ملأته اليوم . ان صورتى هذه أخذت وأنا فى ريق الشباب ،
وكان وجهى آنذاك أنضر ، وكذلك كانت نفسى . ثم كانت لدى
بعد أوهام عن هذا العالم والعالم الآخر . والايمان يخدع الرجال ،
ولكن له فضيلة واحدة عظيمة : انه يطفى على القسمات بهاء .
صورتى ترقد الآن بجانب صورة نيكهيل . السنا صديقين
قديمين ؟

الفصل الرابع

حكاية نيكهيل

- ٣ -

ما كنت قط عاكفا على ذاتي ، ولكنني كثيرا ما أحاول في هذه الايام أن أنظر الى نفسي من الخارج .. أن أرى نفسي كما تراني بييمالا . وبإلها من صورة قاتمة كئيبة ، تلك التي تصنعها عادتي في تناول الأمور تناولا مسرفا في الجد !

لخير لك أن تصرف الدنيا بالضحك من أن تفرقها بالدموع . هكذا - في الحق - تسير الدنيا . فنحن لا نلذ طعامنا وراحتنا إلا لأننا نطرد الاحزان المنتشرة في كل مكان ، في البيت وفي العالم الخارجي ، كما لو كانت أشباحا خاوية ، ترى أين كانت تذهب شهيتنا ونومنا لو أننا نظرنا الى تلك الاحزان ، ولو مرة واحدة ، على أنها حقائق ؟

ولكنني لا أستطيع أن أطرد نفسي كما لو كانت واحدا من تلك الاشباح . ولهذا يرقد حمل حزني ثقila ثقل الابد على قلب عالمي . لماذا لا تقف متفردا متباعدة على جادة العالم ، وتشعر أنك جزء من الكل ؟ ما بييمالا بالنسبة اليك وسط تيار البشرية الضخم الممتد عبر العصور؟ زوجك ..؟ وما الزوجة ؟ فقاعة أسم ، تنفخها نفسك حتى تكبر ، تحرسها حذرا بالليل وبالنهار ، ولكنها توشك أن تنفجر لأي شكة دبوس من الخارج .

زوجتي .. اذن فهي - ولأريب - ملكي ! فان قالت : « لا ، انني ملك نفسي » ، فهل لي أن أجيب : « كيف يكون ذلك ؟ أليست لي ؟ » .

زوجتي .. وهل تصلح هذه الكلمة حجة ، بله أن تكون

حقيقة ، هل يستطيع امرؤ أن يسجن شخصية كاملة في ذلك الاسم؟ زوجتى ! .. ألم أودع ذلك العالم الصغير أنقى ما في حياتى وأحلاه ، كل ما هو أنقى وأحلى ، ولم أدعه لحظة يسقط من حضنى الى التراب ؟ أى بخور للعبادة ، وموسيقى للعاطفة ، وزهور لربيعى وخريفى لم أقدم عند هيكله ؟ فان جرفتها مياه البالوعة العكرة كزورق ورقى صغير - ألسنت أيضا ..؟

مرة أخرى هذه النظرة القاتمة التى لا أستطيع الخلاص منها! لماذا هى بالوعة ولماذا هى عكرة ؟ ان أسماء تقال فى نوبة غيرة لن تغير حقائق العالم . ان لم تكن بيمالا لى فليست لى ، ولن يثبت الغضب والفيظ والجدل انها لى . وان كان قلبى ينصدع فلينصدع! فلن يغدو العالم مفلسا بسبب ذلك - ولا أنا نفسى ، فالإنسان اكبر كثيرا مما يفقده فى هذه الحياة . حتى بحر الدموع له شاطئه الآخر ، ولولا ذلك ما بكى انسان .

ولكننا يجب أن ننظر الى رأى المجتمع .. فلندع المجتمع يرى . ان كنت أبكى فعلى نفسى أبكى لا على المجتمع . وهل أبالى - ان قالت بيمالا انها ليست لى - أين تكون زوجتى التى يعرفها المجتمع ؟

لأبد من بلاء . ولكننى يجب أن أنقذ نفسى - بكل وسيلة فى يدي - من أحد أنواع تعذيب النفس ، يجب ألا أفكر أبدا ان حياتى تفقد قيمتها لأنها ابتليت باهمال ما . ان القيمة الكاملة لحياتى لا تذهب كلها ثمنا لعالمى البيتى الضيق ، فتجارتها العظيمة لا تنتعش ولا تهبط لنجاح تافه أو خيبة تافهة فى مقايضة مسراتى وأحزاني الشخصية .

لقد حان الوقت لأجرد بيمالا من كل زينة مثالية خلعتها عليها . لقد كان افراطى فى هذه العبادة ناشئا عن ضعفى . كنت شديد الطمع ، فخلقت من بيمالا ملاكا لأضعف سعادتى ، ولكن بيمالا هى كما هى ، وليس بمعقول أن تلبس لبوس ملاك لترضىنى . ولا يلزم أن يمدنى الخالق بملائكة لأنى ظامئ الى الكمال الخيالى . يجب أن أعترف بأننى لم أكن الا مصادفة فى حياة بيمالا . ولعل طبيعتها لا تستطيع أن تعرف الاتحاد الحقيقى الا مع رجل مثل سنديب . على انى لا أستطيع باسم التواضع الزائف أن أعد رفضى جزاء أستحقه . ان لسنديب ولا شك صفات جذابة كان لها سلطان على أيضا . ولكننى أشعر يقينا انه ليس رجلا أفضل منى

واذا كان غار النصر نصيبه اليوم والاهمال لى ، فسوف يدعى مانح الفار ليوم حساب .

انى لا أقول هذا مفاخرا . لقد الجأتنى الضرورة نفسها الى حيث يجب أن أقرر كل قيمتى الحقيقية لأنقذ نفسى من الدمار الكامل - فلتقبل على من خلال تجربة العذاب المخيفة فرحة الخلاص - الخلاص من شكى فى نفسى .

لقد وصلت الى التمييز بين ما هو حقيقة فى وما كنت اتوهم غفلة منى انه فى ، وسوى حساب الربح والخسارة وأصبح الباقي هو نفسى - لا نفسا كسيحة مكسوة بالخرق والمزق ، ولا نفسا مريضة تغذى بطعام المرضى ، بل روحا خاضت أشد البلاء واستطاعت أن تعيش .

مر أستاذى بحجرتى منذ لحظة وقال ويده على كتفى : قم الى فراشك يانيكهيل فقد تقدم الليل .

والواقع انه أصبح من العسير على أن آوى قبل أن يتأخر الوقت - أى قبل أن تستغرق بيما لا فى النوم . فنحن نتلاقى فى النهار ، وربما تحدثنا ، ولكن ماذا عساي قائلا لها حين ننفرد فى سكون الليل ، وبنفسى وجسمى ما بهما من الخجل ؟

سألت بدورى : وكيف بقيت ساهرا حتى الآن ياسيدى ؟ فابتسم شيخى قليلا وهو يتركنى قائلا : لقد انتهت أيام نومى ، وبلغت سن اليقظة .

كنت قد بلغت من الكتابة هذا الحد وهممت بالقيام لأذهب الى الفراش حين رأيت سحاب تموز ينفرج غطاؤه الثقيل فجأة : فرجة صغيرة لمع فيها نجم كبير ، وكأنه يقول لى : مواثيق أرض الاحلام تبرم ، ومواثيق أرض الاحلام تنقضى ، ولكنى هنا أبدا ، المصباح الخالد لليلة العرس .

وأمثلا قلبى فجأة بفكرة أن حبنى الخالد ينتظرنى صابرا خلال العصور ، خلف حجاب الاشياء المادية ، خلال حيوات كثيرة . فى مرايا كثيرة رأيت صورتها - مرايا مكسورة ، مرايا معوجة ، مرايا مغبرة . وكلما حاولت أن أجعل المرأة مرآتى أنا ، وأغلق عليها صندوقى ، غابت الصورة عن ناظرى . ولكن ماذا فى ذلك ؟ ماذا أصنع بالمرأة ، بل بالصورة نفسها ؟

ياحبيبتي ، ان بسمتك لن تغيب أبدا ، وفى كل فجر سيظهر لى الطابع القانى بكرا على جبينك !

يهذا شيطان مر ركنه المظلم : ياله من ملق صبياني لخداع النفس !
ثرثرة حمقاء تبقى الاطفال هادئين .

قد يكون ذلك صحيحا . ولكن ملايين وملايين من الاطفال
بملايين من الصيحات يجب أن يبقوا هادئين . فهل يمكن أن يكون
ما يهدىء هذا الجمع كله كذبة ؟ كلا ، ان حبي الخالد لا يمكن أن
تخدعنى ، لأنها حق !

انها حق ، ولهذا رأيته وسأراها كثيرا حتى فى أخطائى ، حتى
فى اكثف غمامة من الدمع . لقد رأيته وفقدته فى زحمة سوق
الحياة ، ووجدتها ثانية ، وسأجدها مرة أخرى عندما أنجو خلال
ثغرة الموت .

آه يا حبيبتي القاسية ، لا تمضى فى لعبك بى ! ان كنت قد
عجزت عن الاهتداء اليك بآثار خطاك على الطريق ، وعبق جدائك
فى الهواء فلا تجعلينى أبكى ذلك أبدا . النجمة المسفرة تأمرنى ألا
أخاف ، فما هو أبدي لأبد أن يكون موجودا دائما .

فلأذهب الآن ولأر بيمالا . لأبد أنها قد مدت أعضائها المتعبة
على السرير ، مسترخية بعد طول جهادها ، واستغرقت فى النوم .
سأترك قبلة على جبينها دون أن أوقظها ، لتكون قربان الزهر
لعبادتي . أعتقد انى أستطيع نسيان كل شيء بعد الموت ، كل
أخطائى وكل عذاباتي ، ولكن صدى لذكرى هذه القبلة سوف
يبقى ، فان الاكليل الذى نسج من قبلات ولادات كثيرة متعاقبة
سيتوج المحبوبة الخالدة .

عندما دقت الساعة الثانية دخلت زوجة أخى الحجر ، وصاحت :
« ماذا تصنع يا أخى العزيز (١) بالله قم الى سريرك ولا تشغل
بالك . اننى لا أطيق النظر الى ذلك الظل المخيف من الألم على
وجهك . . » . وفاضت الدموع من عينيها وهى تدعونى هذا الدعاء .
فلم أستطع أن أنبس بكلمة ، ولكنى مسحت التراب عن
قدميها ومضيت لأنام .

(١) عندما تقوم رابطة بين شخصين بطريق الزواج أو التفاهم المشترك الناشئ عن
صداقة أو مودة خاصة فانهما لا يناديان أحدهما بالآخر بالاسم بل باللفظ الذى يدل على
تلك العلاقة . (المترجم) .

حكاية ييمالا

- ٧ -

في مبدأ الأمر لم أكن أرتاب في شيء ولا أخاف شيئا ، انما كنت أشعر انى مندورة لبلادى . وكم كان في ذلك التسليم المطلق من فرح عظيم ! ثم عرفت كيف يمكن أن يجد الانسان السعادة القصوى في تمام تدميره لذاته .

مهما يكن من شيء فقد كان يمكن أن تنتهى لوثنى هذه نهاية تدريجية طبيعية . ولكن سنديب بابو لم يشأ ذلك . بل أصر على أن يكشف نفسه . أصبحت نبرة صوته حميمة كلمسة ، وكل نظرة تركع على ركبتيها مستجدية ، وفي ثنايا ذلك كله يتلهب شوقا كأنه يوشك من حدثه أن يقتلعنى من الجذور ، ويجرنى من الدوائب . لن أروغ من الحقيقة . ان هذه الرغبة الجارفة كانت تجذبني نهارا وليلا ، وكان ذلك التخريب لنفسى يبدو مغريا مهلك الاغراء . كم كان يبدو مخجلا ومروعا ، وحلوا على الرغم من ذلك ! ثم كان هناك تطلعى المستبد كأنه لا يقف عند حد . ذلك الرجل الذى لا أعلم عنه الا القليل ، الذى لا يمكن أبدا أن يكون خالصا لى ، الذى يفور شبابه بمائة شعلة من اللهب . . آه ، أى سر في عواطفه الجياشة العريضة الصاخبة !

بدأت بشعور بالعبادة ، ولكن ذلك سرعان ما ذهب . حتى اننى لم أعد أحترم سنديب ، بل بدأت أحتقره . ولكن قيثارتي هذه المصنوعة من لحم ودم ، والمشكلة بوجدانى وخيالى ، وجدت فيه عازفها البارع . ومع اننى كنت أنفر من لمسه ، بل أصبحت أكره القيثارة نفسها ، فقد ظلت أنغامها تستثار .

يجب أن أعترف بأنه كان في شيء . . ماذا أقول ؟ . . شيء يجعلنى أتمنى لو استطعت أن أموت !

ان تشاندرانات بابو يجيئنى حين يتسع وقته لذلك . وله من

القوة ما يرفع نفسى الى قمة أستطيع منها أن أبصر حدود حياتى
فى لحظة واحدة وقد امتدت من كل جانب ، فأدرك ان الخطوط التى
حسبتها حدودا لم تكن الا أوهاما .

ولكن ما فائدة ذلك كله ؟ هل أرغب فى التحرير حقا ؟ لكأنى
أدعو : ليأت الشقاء الى بيتنا ؟ لينكمش أفضل ما فى ويسود ،
على ألا تتركنى هذه الفتنة .

عندما كنت أرى سلفا لى قبل زواجى - وقد مات الآن -
مخمورا يضرب زوجته بجنون ثم يبكى ويجأ فى ندم السكرارى ،
مقسما ألا يمس الشراب ثانية ، ولكنه يجلس فى ليلة ليعب الخمر
عبا - كانت نفسى تمتلىء تقززا . بيد أن نشوتى اليوم أظطع ،
والخمر لا تشتري ولا تسكب ، بل تنبع من عروقى ولا أستطيع
لها صمودا .

هل يجب أن يستمر هذا الى آخر أيامى ؟ اننى أنتبه مرة بعد
مرة وأنظر الى نفسى ، وأفكر أن حياتى كابوس سيختفى فجأة
بكل ما فيه من مجافاة للحقيقة . لقد أصبحت متناقضة تناقضا
مخيفا ، لا ارتباط لها بماضيها . أما ماذا تكون ، وكيف صارت
الى هذا المأزق ، فذلك ما لا أستطيع أن أفهمه .

ذات يوم قالت سلفتى بضحكة لاذعة : يا ما أكرم تشوتا رانى
التي عندنا ! ان ضيفها لا يريد أن يتزحزح . فى أيامنا كان هناك
ضيوف أيضا ، ولكنهم كانوا لا يجدون مثل هذا السخاء ، فقد
كنا - يا لحمقنا ! - مشغولات بأزواجنا ، ان أخى المسكين نيكهيل
يغرم ثمن ميوله العصرية المرفقة . كان يحب أن يأتى ضيفا ان
كان يريد البقاء ، أما الآن فالظاهر انه قد آن الأوان ليرحل ..
أيتها الشيطانة الصغيرة ! ألا تخزين مرة حين تقع عينك على وجهه
المعذب ؟

لم تنل منى هذه السخرية ، لعلمى ان هؤلاء النسوة لا يملكن
القدرة على فهم كنه عبادتى . وكنت وقتئذ فى درع واق من نشوة
التضحية ، لا أستطيع مثل هذه السهام أن تنفذ منه لتخجلنى .

- ٨ -

انتهى كل كلام عن قضية البلاد منذ بعض الوقت . وأصبح
حديثنا فى هذه الايام حافلا بمشكلات الجنس العصرية ، وشتى
امور أخرى مع شىء من الشعر فيه الفياشنى القديم والانجليزى

الحديث ، يتخلله لحن خفى أجش الطبقة لم أسمع مثله فى حياتى من قبل ، وكأنه يصور نفمة الرجولة الحققة . . نفمة السلطان . لقد جاء اليوم الذى انكشف فيه كل غطاء ، ولم يبق سبب ولا تعلقة لبقاء سنديب ، أو انفرادى وایاه فى الحديث كل حين . وشعرت بالسخط الشديد على نفسى وعلى سلفتى وعلى أحوال الدنيا ، وآليت ألا أذهب الى الجناح الخارجى أبدا ولو كان فى ذلك موتى .

وأضیت یومین کاملین دون أن أغادر مكانى . ثم تبینت للمرة الاولى الى أى مدى أبعدت فى السير . فقد شعرت أن حیاتی لا طعم لها . كنت كلما لمست شیئا أود أن أطرحه بعيدا ، وكنت أشعر بأننى أنتظر - من قمة رأسى الى أطراف أصابعى - أنتظر شیئا ما ، انسانا ما ، ودمى لا يننى ينبض بالتوقع . حاولت أن أشغل نفسى بعمل زائد . كانت أرضية غرفة النوم نظيفة ، ولكنى أصررت على أن تفصل ثانیة أمام عینى . وكانت الأشياء مرتبة فى الخزائن بنظام معين ، فأخرجتها جميعا وأعدت ترتيبها بنظام آخر . ولم أجد وقتا عصر ذلك اليوم حتى لتمشيط شعرى ، ففقدته دون أن أضفره ، ورحت أزعج الجميع ، وأثير المشكلات حول حجرة الخزین . وبدا أن ثمة نقصا فى المخزن ، وأن السرقة لابد كانت جارية على قدم وساق ، ولكنى لم أستطع أن أستجمع الشجاعة لمحاسبة شخص معين ، فقد كان يمكن أن تخطر هذه الفكرة فى عقل انسان ما : « وأین كانت عیناك طوال هذه الأيام ! »

خلاصة القول انى تصرفت كالمجنونة فى ذلك اليوم . وفى اليوم التالى حاولت أن أقرأ . ولست أدرى ماذا قرأت ، ولكنى شعرت بعد نوبة من الذهول انى شردت . والكتاب فى یدى ، عابرة الدهليز المؤدى الى الجناح الخارجى ، وأصبحت واقفة الى جانب نافذة تطل على الشرفة الملاصقة لصف الحجرات على الجانب المقابل من المستطیل . وشعرت ان واحدة من هذه الحجرات قد عبرت الى شاطئ آخر ، وقارب التعديّة لم يعد يعمل . وشعرت انى شبّح لنفسى التى كنتها قبل یومین ، مقضى على أن أظل حیث أنا ولست هناك فى الحقيقة ، ناظرة أبدا الى بعيد نظرة فارغة . وفيما أنا واقفة هناك رأیت سنديب يخرج من حجرته الى الشرفة وفى یده صحيفة . واستطعت أن أرى على سیماه قلعا غير

عادي وكأنما كان الفناء والحاجز الحديدي أمامه يثيران غضبه ،
فألقي الصحيفة بعيدا في حركة كأنها تريد أن تمزق الفضاء أمامه .
وشعرت اني لم أعد أستطيع البر بقسمى ، وكنت موشكة أن
أمضي نحو حجرة الجلوس حين وجدت سلفتي خلفي . صاحت
وهي تدلف مبتعدة : « رباه ! لم يبق الا هذا ! » ولم أستطع أن
أتقدم الى الجناح الخارجى .

وعندما جاءت وصيفتى تنادى فى الصباح التالى : « يا أمنا
الرائى ، لقد حان الوقت لاجراج المئونة » ألقيت اليها بالمفاتيح
قائلة : « قولى لهاريماتى تتولى الأمر » ، ومضيت أعمل فى قطعة
من التطريز انجليزية الرسم كنت متشاغلة بها ، وأنا جالسة قرب
النافذة .

ثم جاء خادم برسالة . قال : « من سنديب بابو » . يا للجسارة !
ماذا عسى أن يظن الرسول ؟ كانت فى صدرى رعشة وأنا أفض
الفلاف . لم يكن على الرسالة عنوان ، ولم يكن فيها الا هذه
الكلمات : « أمر عاجل - يتعلق بالقضية . سنديب » .
ألقيت بالتطريز جانبا ، وفى لحظة كنت على قدمى ، أسوى
شعرى فى المرأة بلمسة أو لمستين . وأبقيت « السارى » الذى
كان على ، ولم أغير الا مئزرى - فقد كان لأحد مآزرى ذكريات .
وكان طريقى على شرفة تعودت سلفتى أن تجلس فيها صباحا
تشقق جوز « التنبول » (١) فلم أتهيب ، وصاحت : الى أين
ياتشوتا رانى ؟

- الى حجرة الجلوس فى الخارج .

- فى هذا الوقت المبكر ؟ « ماتينيه » ؟ هه ؟

وبينما كنت أمر دون أن أرد ثانية ، دندنت من ورائى بأغنية
خليعة .

- ٩ -

بينما كنت مقبلة على حجرة الجلوس رأيت سنديب عاكفا على
دليل مصور للوحات الاكاديمية البريطانية ، وظهره الى الباب ،
وكان يعد نفسه خبيرا فى أمور الفن .

وذاث يوم قال له زوجى : « اذا احتاج الفنانون الى معلم فلن
يعوزهم وأنت موجود » . ولم يكن من عادة زوجى أن يسخر ،

(١) نوع من الافاويه . (المترجم) .

ولكنه تغير في الايام الاخيرة ، ولم يعد يتجاوز لسنديب عن شيء .
ورد سنديب : ما الذى يجعلك تظن ان الفنانين غير محتاجين الى معلمين ؟

فأجاب زوجى : الفن خلق . فينبغى ان نقنع شاكرين بتلقى دروسنا عن الفن من عمل الفنانين .

فضحك سنديب من هذا التواضع قائلا : انت تحسب الخشوع رأس مال يزيد ثروتك كلما استعملته . ويقيني ان من تعوزهم الكبرياء يطفون كأعشاب الماء التى لا جذور لها فى الارض .
وكانت نفسى تحفل بالمتناقضات حين يتكلمان على هذا النحو .
فأنا شديدة الرغبة فى ان يفوز زوجى فى المناقشة وتستخذى كبرياء سنديب ، ولكن كبرياء سنديب هى التى تجتذبنى مع ذلك أيما اجتذاب . كانت تنير كماسة ثمينة لا تعرف الخجل ، بل تتألق فى وجه الشمس نفسها .

دخلت الحجرة . وكنت أعلم ان سنديب يستطيع ان يسمع وقع خطاى وأنا أتقدم ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع ، وأبقى عينيه على الكتاب .

وكنت أخاف أحاديثه عن الفن ، لأنى لا أستطيع التغلب على حساسيتى نحو الصور التى يتحدث عنها ، والأشياء التى يقولها ، وكان يشق على أن أتكلف الجمود لأخفى ألمى . لهذا كنت موشكة أن أعود أدراجى حين رفع سنديب عينيه وهو يزفر زفرة عميقة ، وتظاهر بالدهشة لرؤيتى وقال : آه لقد جئت !

كان فى كلماته ونبرته وعينيه عالم من اللوم المكتوم ، وكان حقوقه التى اكتسبها على جعلت غيابى - ولو يومين أو ثلاثة - ظلما بليفا .

وعرفت ان فى هذا المسلك اهانة لى ، ولكنى - ويا للأسف ! - لم أجذ القوة لأستنكره .

لم أجب ، ولكنى وان نظرت الى جهة أخرى لم أستطع ان أفر من الشعور بأن نظرة سنديب الشاكية لا تبرح وجهى ، ولن تقبل حرمانا . وتمنيت لو يقول شيئا ما ، حتى أستطيع الاحتماء خلف كلماته . ولست أدري كم استمر ذلك ، ولكنى أخيرا لم أطق احتماله ، فسألت : ما هذا الأمر الذى تريد ان تحدثنى عنه ؟..

وتظاهر سنديب بالدهشة مرة أخرى وهو يقول : أمن اللازم ان

يكون هناك دائما أمر ما ؟ هل الصداقة بذاتها جريمة ؟ أوه يا ملكتي ! كيف تستخفين بأعظم ما على الأرض ! هل تطرد عبادة القلب وكأنها كلب ضال ؟

ومرة أخرى شعرت بتلك الرغبة في باطنى . كان فى استطاعتى أن أحس باقتراب الأزمة ، ملحة بحيث يمكن أرجاؤها . تنازع السيادة فرح وخوف . سألت نفسى : هل تستطيع كفاف احتمال صدمتها ، أم تتركنى طريحة ووجهى فى التراب ؟

كان جسمى كله يرتعد . وتماسكت بجهد وكرزت : لقد دعوتنى لأمر يتعلق بالقضية ، فتركت واجبات بيتى لأنظر فيه .

قال بضحكة جافة : هذا ما كنت أحاول شرحه . ألا تعلمين أنى أجيء الأعبء ؟ ألم أخبرك أنى أتمثل فىك روح بلادنا ؟ أن جغرافية بلد ما ليست كل الحقيقة ، لا أحد يمكنه أن يهب حياته لخريطة ! عندما أراك أمامى ، هنالك فقط أدرك كم أن بلادى جميلة . عندما تمسحيننى بيديك سوف أعلم أن بلادى باركتنى ، فإذا سقطت فى الصراع وهذه البركة فى قلبى فلن يتلقانى تراب أرض تصورها الخرائط . بل ثوب نسائى منشور بحب . أتعلمين أى ثوب ؟ كذلك السارى الداكن الحمرة الذى كنت تلبسينه بالأمس ، ذى الحاشية الحمراء بلون الدم . هل أستطيع نسيانه أبدا ؟ مثل هذه الرؤى تمنح الحياة قوة ، والموت فرحا !

اشتعلت عينا سنديب وهو يتكلم ، ولكننى لم أر أكانت نار العبادة أم نار الانفصال . وتذكرت يوم سمعته يتكلم لأول مرة فلم استطع أن أحكم أشخص هو أم شعلة حية .

لم أجد القوة لأنطق بكلمة واحدة . أنك لا تستطيع أن تحتفى بأسوار الاحتشام حين تثب النار فى لحظة لتدمر كل خزائن البخل بلمعان سيفها وزئير ضحكها . وخفت أن ينسى نفسه ويمسك يدى ، فقد كان يهتز كلسان مرتعش من نار ، وعيناه تمطراننى بشواظ محرق .

صاح بعد وقفة : أعازمة أنت أبدا أن تتخذى واجبات بيتك التافهة آلهة ، وأنت التى فى يدك أن تبعثينا الى الحياة أو الى الموت ؟ هل يجب أن تحجب قوتك هذه فى « زينانا » ؟ أضرع اليك أن تطرحى كل ادعاء للخجل بعيدا ، وتهزئى بالهمس الذى يحيط بنا وتفتحى اليوم حرية العالم الخارجى .
عندما تمتزج فى دعوات سنديب عبادته للوطن بعبادته لى -

هنالك يرقص دمي حقا ، وتترنج أسوار ترددى . ان أحاديثه عن
الفن والجنس وتمييزه بين الواقع والزيف ، لم تكن الا أقذاء
منعت - بقبحها الكريه - ما هممت به من الاستجابة . ولكن
هذه العبادة تشتعل الآن مرة أخرى بوهج يذوب أمامه أشمئزازى .
شعرت ان طبيعتى النسائية المتألقة تجعلنى الهة حقا . فلماذا
لا يشرق مجدها من جبينى بلألاء تجتليه العيون ؟ لماذا لا يجد صوتى
كلمة ، صيحة مسموعة ، تكون رقية مقدسة لبلادى وهى تفتح
نار التطهير ؟

فجأة اندفعت وصيقتى « خيما » الى الحجرة مشعة صائحة :
اعطينى أجرتى ودعيني أذهب . أبدا فى حياتى ما رأيت ..
وغرق باقى كلامها فى الدموع .
- ماذا جرى ؟

فظهر أن « ثاكو » وصيفة البارارانى قد سبتها سبا قبيحا بدون
سبب . وعبثا حاولت تهدئتها بقولى انى سأنظر فى الأمر فيما بعد .
لقد طفا وحل الحياة البيتية الراقد تحت شط اللوتس ، وكان
لابد أن أسرع داخله حتى لا يطيل سنديب النظر اليه .

- ١٠ -

كانت سلفتى عاكفة على جوزها ، يحوم حول شفيتها شبح
انتسامة ، وكأن شيئا لم يكن . وكانت لا تزال تدندن نفس الأغنية
فانفجرت صائحة : لماذا شتمت خادمك ثاكو خيما المسكينة ؟
- حقا : الملعونة ! سأجعلهم يكنسونها من المنزل بمكنسة .
يا للخجل ! تفسد عليك زيارتك الصباحية هكذا ؟ وخيما ؟ أين
أدب هذه البنت حين تذهب وترعجك وأنت مشغولة ؟ على كل حال
لا تشغلى نفسك بمشاجرات الخدم ياتشوتا رانى ، دعها لى ،
وعوذى الى صديقك .

ما أسرع ما تتحول الرياح فى قلوب عقولنا ! لقد بدا خروجى
لمقابلة سنديب فى ضوء قانون « الزينانا » أمرا شاذا خارقا للعادة ،
حتى اننى ذهبت الى حجرتى وأنا لا أدري بماذا أجيب . وأدركت
ان سلفتى هى التى دبرت الأمر ، وحرضت خادماتها لتثير هذه
المشاجرة ، ولكننى كنت فى حالة من الاضطراب لم أجرؤ معها
على الرد .

أجل ، لقد تبينت منذ أيام قليلة انى لا أستطيع المضى الى

النهاية في كبريائي العنيدة حين طلبت من زوجي أن يفصل الرجل نانكو . وشعرت بالخجل فجأة حين جاءت الباراء راني وقالت : « اننى أنا المخطئة يا أخى العزيز . نحن ناس من النوع القديم وأحوال صديقك سنديب بابو لم تعجبني ، فأمرت الحارس .. ولكن من أين أعلم أن تشوتا راني ستعد هذا اهانة - كنت أظن العكس ! هى بلاهتي التى لايمكن اصلاحها ! » .

ان الشيء الذى يبدو مجيدا مجيدا حين ينظر اليه من قمم القضية الوطنية ، يبدو موحلا حين ينظر اليه من القاع . فى أول الأمر نفضب وبعد ذلك نشمئز .

حبست نفسى فى حجرتى ، وجلست الى النافذة أفكر كم تغدو الحياة سهلة لو استطاع الانسان أن يعيش فى تناعم مع ما يحيط به . بأى يسر تجلس الرانى الكبرى فى شرفتها مع جوزها ، وكم أصبح مقعدى الطبيعى بجانب واجباتى اليومية عسيرا على ! وسألت نفسى : الام ينتهى كل هذا ؟ هل أفيق يوما وأنسى كل شيء ، كما لو كنت فى بحران ، أم أسحب الى أعماق لا نجاة منها فى هذه الحياة ؟ وانى استطعت أن أضيع طالعى الحسن ، وأفسد حياتى هذا الفساد ؟ ان كل حائط فى مخدعى هذا الذى دخلته عروسا منذ تسع سنين يحدق فى مدعورا .

عندما عاد زوجى الى البيت بعد امتحان الماجستير أحضر لى شجرة « الاوركيد » هذه التى تنتسب الى بلد بعيد وراء البحار . ومن تحت هذه الاوراق الصغيرة القليلة نبع شلال من الزهر كأنما كان يصب من كأس جمال مقلوبة . وقررنا معا ان نعلقها هنا فوق هذه النافذة . انها لم تزهر غير تلك المرة ، ولكننا ظللنا نأمل أن تزهر مرة أخرى . والعجيب انى واطبت على سقيها فى هذه الأيام بحكم العادة وانها لا تزال خضراء . مضت أربع سنوات منذ صنعت اطارا من العاج لصورة زوجى ووضعته فى تلك الفجوة . اذا حانت منى نظرة الى تلك الناحية فلا بد أن أنكس عيني . حتى الاسبوع الماضى كنت أضع هناك زهور عبادتى دائما كل صباح بعد الحمام ، وكثيرا ما وبخنى زوجى على هذا ، ويوما قال لى : انى أخجل اذ أراك ترفعينى الى مكان لا أستحقه .

- هذا غير صحيح ... !

- لست خجلا فقط ، بل أنا أيضا غيران !

- ماذا تقول ؟ وممن تراك غيران ؟

— من هذه الصورة الكاذبة لى . انها لا تدل الا على انى أتفه
مما ينبغى لك ، وأنت تريد أن رجلًا خارقًا يستحوذ عليك بسطوته،
ولهذا لابد لك أن تلجئ الى اصطناع صورة أخرى منى .
قلت : مثل هذا الكلام يفضبنى .

فأجاب : ولماذا تفضبنى منى ؟ لومى نصيبك الذى لم يدع لك
خيارا ، بل جعلك تأخذيننى مغمضة العينين . فهذا ما يجعلك
تدأين على اصلاح غلطته بأن تصنعى منى مثالا للكمال .
وساءتنى هذه الفكرة وحدها حتى ان الدموع جالت فى عينى ذلك
اليوم . وكلما فكرت فى ذلك الآن لم أستطع أن أرفع عينى
الى الفجوة .

فشمة الآن صورة أخرى فى صندوق حلى . منذ أيام كنت أرتب
حجرة الجلوس فأخذت ذلك الاطار المزدوج الذى يضم صورة
سنديب وصورة زوجى . اننى لا أقدم لهذه الصورة زهور العبادة
ولكنها تبقى مخبوءة تحت جواهرى ، ولها مزيد من السحر لأنها
تبقى سرا . اننى أنظر اليها بين الحين والحين والابواب مغلقة .
وبالليل أضئ المصباح ، وأجلس وهى فى يدى أنظر وأنظر ، وكل
ليلة أفكر فى أن أحرقها فى شعلة المصباح لأخلص منها الى الأبد ،
ولكنى كل ليلة أتهد وأكتمها ثانية بين لآلى وماساتى .

يا لك من امرأة تعيسة ! أى ثروة من الحب لفت حول كل واحدة
من هذه الجواهر ! أوه ، لماذا لا أموت ؟

لقد أوحى الى سنديب أن التردد ليس من طبيعة المرأة . ليس
اليمين ولا للشمال وجود عندها ، فهى انما تتحرك الى الأمام . وكان
يكرر ويلح أن نساء بلادنا متى استيقظن فسوف يكون صوتهن
ثابتا وثقا اذ يصيح : « أريد .. » .

ومضى سنديب يقول ذات يوم : « أريد ! » هذه كانت الكلمة
الاولى عند بدء الخليقة . لم يكن لديها حكمة تسترشد بها ، ولكنها
أصبحت نارا وصنعت من نفسها شموسا ونجوما . انها مخيفة اذ
تحابى فلرغبتها فى الانسان لم تبال ان ضحت بملايين الوحوش
ملايين السنين لتحقيق تلك الرغبة . هذه الكلمة المخيفة « أريد »
قد تجسمت فى المرأة ولهذا يحاول الرجال الجبناء بكل قوتهم أن
يحجزوا هذا الفيضان الابدى بسدودهم الطينية ، فهم يخافون أن
يكسح فى طريقه الضاحك الراقص كل سياج وعماد فى حقل القرع
الذى زرعه . يقول رجال كل عصر لأنفسهم راضين . انهم قد

كبحوا هذه القوة داخل حدود منافعهم ولكنها تتجمع وتنمو .
انها الآن ساكنة عميقة كالبحيرة ، ولكن ضغطها سيزداد شيئاً
فشيئاً ، وستنهار السدود ، وتندفع القوة التي ظلت خرساء هذا
الأمم الطويل صائحة ، زائرة : « أريد ! » .

ان كلمات سنديب هذه ليردد صداها في دقات قلبي كطبله
حرب . انها لتفحم كل صراعاتي مع نفسي . ماذا على مما يقوله الناس
عني ؟ ما قيمة تلك الاوركيدة وتلك الفجوة في مخدعي ، اى سلطان
لها حتى تحقرنى وتزدرينى ؟ ان نار الخلق الابدية تشتعل في .
شعرت برغبة عاتية في أن أنتزع الاوركيدة وأرميها من النافذة ،
وأجرد الفجوة من صورتها ، وأكشف عن روح التدمير الجسور
التي هاجت في باطنى . وارتفعت ذراعى لأفعل ذلك ، ولكن شبكة
مفاجئة اخترقت صدرى ، وجالت الدموع في عيني ، فارتميت
منتحبة : « ما آخر كل هذا ؟ ما آخر كل هذا ؟ » .

حكاية سنديب

- ٤ -

حين أقرأ هذه الصفحات من قصة حياتي أسأل نفسي جادا :
أهذا سنديب ؟ أمجبول أنا من كلمات ؟ أما أنا غير كتاب له جلد
من لحم ودم ؟

ان الارض ليست شيئا ميتا كالقمر . انها تتنفس . أنهارها
ومحيطاتها تبعث الأبخرة التي تكتسي بها . وعليها عباءة من غبارها
الذي يطير في الهواء . والناظر الى الارض من خارج لا يمكنه ان
يرى الا النور الذي يعكسه هذا البخار وهذا الغبار فجدد
القارات العظائم لاتبين .

والانسان الحي كهذه الارض مغلف مثلها أبدا بضبابة الافكار
التي يتنفسها . فأرضه وماؤه الحقيقيان يبقيان محجوبين ، ويبدو
انه لم يصنع الا من أضواء وظلال .

لكأني في قصة حياتي هذه كوكب حي ، أبدي صورة عالم مثالي .
ولكنني لست ما أريده وما أفكر فيه فحسب - بل أنا أيضا ما
لا أحبه ولا أريد أن أكونه . وقد بدأ خلقي قبل أن أولد ، ولم
يكن لي خيار فيما يحيط بي ، ولهذا يجب أن أحسن الانتفاع بما
يقع في يدي .

ان نظريتي في الحياة تجعلني على يقين أن العظيم قاس . أن تكون
عادلا فذلك ما يصلح للرجال العاديين ، أما العظماء فقد خصوا
بالظلم . كان سطح الارض مستويا فضربه البركان بقرنه النارى
وبرز بروزه - لم يكن عادلا مع ما عاقه ولكنه كان عادلا مع
نفسه . والظلم الناجح والقسوة الاصيله هما القوتان الوحيدتان
اللتان يصبح بفضلهما الفرد أو المجموع مليونيرا أو ملكا .

لهذا أدعو الى المبدأ العظيم ، مبدأ الظلم . وأقول لكل أحد :
الخلاص قائم على الظلم . الظلم هو النار التي يجب أن تكون دائما

في احراق شيء حتى تنقذ نفسها من أن تصير رمادا . وكلما عجز فرد أو أمة عن ارتكاب الظلم جرفا الى مزبلة العالم .
على ان هذه لا تزال فكرتى فقط . فهى ليست نفسى كاملة .
وهناك شقوق في الدرع يطل منها شيء شديد الطراوة ، شديد الحساسية . لأن الجزء الأكبر من نفسى - كما قلت - مخلوق من قبل أن آتى الى هذا الطور من أطوار الوجود .

اننى أختبر أتباعى ، من حين الى حين ، فى درس القسوة الذى تعلموه . ذات يوم خرجنا فى رحلة . وكانت ثمة عنزة ترعى . فسألتهم : من منكم يقدر أن يقطع ساقا من هذه العنزة وهى حية بهذا السكين ويحضرها الى ؟ ولما ترددوا جميعا ذهبت أنا وفعلت ذلك ففشى على أحدهم ، ولكنهم حين رأونى لم أتأثر مسحوا التراب عن قدمى قائلين اننى فوق كل ضعف بشرى . ومعنى ذلك انهم رأوا فى ذلك اليوم غلاف البخار الذى هو فكرتى ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلمحوا نفسى الباطنة ، التى شاءت نزوة غريبة من نزوات القدر أن تخلق رقيقة رحيمة .

هناك أيضا أشياء كثيرة لا تزال تترقد مختفية فى هذا الفصل الحاضر من قصة حياتى ، حيث يزداد الاهتمام كل يوم ببيمالا ونيكهيل . ان مرض الافكار الذى أعانيه يشكل حياتى الباطنة ، غير ان قسما كبيرا من حياتى لا يزال خارجا عن تأثيرها ، ولذلك يقوم نوع من التنافر بين حياتى الخارجية وشكلها الداخلى الذى أحاول جهدى أن أبقيه مختفيا عن نفسى ، حتى لا يحطم خططى ، بل حياتى نفسها .

ان الحياة غير محدودة - انها حزمة من المتناقضات . ونحن البشر نجاهد بأفكارنا لنعطيهما شكلا معيناً بأن نصهرها فى قالب معين ، هو قالب النجاح المحدود . فكل غزاة العالم من الاسكندر الى أصحاب الملايين الامريكيين يطبعون من أنفسهم سيفاً أو داراً لسك النقود ، وبذلك يجدون تلك الصورة الواضحة من أنفسهم ، التى هى مصدر نجاحهم .

والخلاف الرئيسى بينى وبين نيكهيل ينبع من هذا : انه وان قلت : « اعرف نفسك » كما يقول نيكهيل : « اعرف نفسك » ، فتفسيره يجعل هذه « المعرفة » مساوية « لعدم المعرفة » .

اعترض على نيكهيل مرة قائلا : ان كسب النجاح الذى تريده لنجاح تغرم الروح ثمنه . ولكن الروح أعظم من النجاح .

فلم أزد في جوابه على أن قلت : ان كلماتك مسرفة الغموض .
فأجاب نيكهيل : لا حيلة لى فى ذلك . ان الآلة واضحة ، ولا
كذلك الحياة . ان أردت أن تعرف الحياة على أنها آلة لتنال الوضوح
فمثل هذا الوضوح المجرد لا يقوم مقام الحقيقة . ان الروح ليست
واضحة كوضوح النجاح ، ولذلك فأنت لا تزيد على أن تخسر روحك
حتى تلتمسها فى نجاحك .

— وأين اذن هذه الروح العجيبة ؟
— حيث تعرف نفسها فى اللامحدود ، وتسمو فوق نجاحها .
— ولكن ما علاقة هذا كله بعملنا من أجل البلاد ؟
— ان الأمر واحد . حيث تجعل بلادنا نفسها هى الغرض النهائى
تكسب النجاح على حساب الروح . وحيث تعترف بالأكبر على انه
أكبر من كل شىء فهناك قد لا تصيب النجاح ولكنها تكسب
روحها .

— أفى التاريخ مثل على هذا ؟
— ان عظمة الانسان تجعل فى مقدوره أن يزدري لا التاريخ وحده
بل المثل أيضا . لعل المثل غير موجود كما انه لا مثل للزهرة
الكامنة فى البذرة . ولكن اندفاع الزهرة قائم فى البذرة على
كل حال .

ليست القضية انى لا أستطيع أن أفهم وجهة نظر نيكهيل فهما
ما : بل ان الخطر يكمن هنا . لقد ولدت فى الهند ، وان سم
روحانيتها ليجرى فى دمي ، ومهما أرفع صوتى معلنا جنون السير
فى طريق انكار الذات فانى لا أستطيع أن أبتعد عنه كل الابتعاد .
هكذا تحدث مثل تلك الشواذ الغريبة فى بلادنا اليوم . يجب أن
يكون لنا ديننا ووطنيتنا فى الوقت نفسه . « بهاجا فادجيتا »
و « باندى ماترم » . والنتيجة هى الضرر لكليهما . كما تعزف
نرقة موسيقى عسكرية انجليزية بجانب أنايبينا الهندية . يجب أن
أجعل غرض حياتى هو القضاء على هذا الخلط الفظيع .

أريد أن يسود الطراز العسكرى الغربى لا الطراز الهندى .
واذن لا نخجل من راية انفعالنا التى أرسلتها معنا أمنا الطبيعة
لتكون علمنا فى معركة الحياة . الانفعال جميل ونقى . تقى كالزنبقة
التى تطلع فى الوحل . انها تستعلى على أوضارها ولا تحتاج الى
صابون لتنظيفها .

كان يقلقنى فى الايام القليلة الماضية سؤال : لماذا ادع حياتى
تتشابك مع حياة بيمالا ؟ أخشبة تائهة أنا ليستوقفنى كل عائق ؟
ليس الأمر أمر خجل زائف أن تكون بيمالا هدفا لرغبتى . انها
تريدنى ولا خفاء بذلك ، ولذا أعدّها لى حقا مشروعا . ان الثمرة
تتدلى على غصن بجانب الجذع ، ولكن ذلك لا يصلح سببا لأن
يدعيها الجذع لنفسه أبدا . ولن تبقى الثمرة الناضجة الى الأبد
تقسم بقبضة جذعها المتراخية . لقد تجمعت كل حلاوتها من أجلى ،
واستسلامها ليدى هو علة وجودها وكنه طبيعتها ، وصريح خليقتها .
واذن فيجب أن أقطفها ، لأنه لا يجدر بى أن أجعلها تذهب عبثا .
على ان الذى يفيظنى هو انى بدأت أتخبط . ألم أولد لأحكم ؟
لأركب جوادى الحقيقى ، الجماهير ، وأسوقه كيف أريد ، العنان
فى يدى ، والفاية معروفة لى وحدى ، وله الشوك والوحل على
الطريق ؟ هذا الجواد ينتظرنى الآن عند الباب ، يفحص بقدميه
ويعلك لجامه ، وصهيله يملأ السماء ولكن أين أنا ، وبم أشتغل ،
تاركا الفرصة الذهبية تمر يوما بعد يوم ؟

كنت أفكر أنى أشبه عاصفة ، وان الزهور الممزقة التى نثرتها على
طريقى لن تعوق قدمى . ولكننى لا أنفك أدور حول زهرة واحدة
كأنى نحلة لا عاصفة . اذن فلون الافكار الذى يعطيه المرء لنفسه
ليس الا شيئا ظاهريا كما قلت من قبل . والإنسان الجوانى يظل
عاديا كشأنه أبدا . ولو جاء انسان ليكتب سيرتى ، وعرف دخيلة
نفسى ، لجعلنى لا أختلف عن ذلك الاحمق بانشو ، بل ولا عن
نيكهيل .

كنت فى الليلة البارحة أقلب صفحات يومياتى القديمة . . اننى
حديث عهد بالتخرج ، رأسى يوشك أن ينفجر من الفلسفة . وحتى
فى ذلك العهد المبكر كنت قد آليت على نفسى الا أستسلم لوهم من
الأوهام ، سواء أكان من صنعى أم من صنع غيرى ، بل أبنى حياتى
على أساس مكين من الواقع . ولكن ماذا كانت قصتها الحقيقية
من بعد ؟ أين بناؤها المكين ؟ لقد كانت أقرب الى شبكة ، ان اتصلت
خيوطها فمعظم مساحتها ثقوب . ومهما أحارب فلن تعرف هذه
بالهزيمة . هأنذا قد وقعت فى شرك ثقب بينما كنت أهيه نفسى
بأنى أسير مستقيما على الخيط ! لقد أصبحت عرضة لتأنيب
الضمير .

« أنا أريد هذا الشيء ، وهو هنا ، فلاخذه » . ان هذه سياسة صريحة محددة ، من يتبعها بهمة فلابد ان يكسب اخيرا . ولكن الآلهة لا يريدون ان تكون مثل هذه الرحلة سهلة ، ولذلك أوقدوا حورية البحر « الشفقة » لتضل المسافر ، لتغشى بصره بضبابها الباكي .

لا يغيب عني ان بيমালা تصارع كظبية في الحبال . أى خوف يستدر العطف في عينيها ! وكم يمزقها الجهد اذ تحاول التخلص من قيودها ! نعم . ان هذا المنظر ينبغى ان يسر قلب الصياد الحقيقي : وانى لمسور ، ولكنى أشعر بالاشفاق أيضا ، ولهذا اضييع الوقت ، وأقف على الحافة مترددا فى أن أجذب الانشودة لتزداد اطباقا .

أعلم ان لحظات مرت كان يمكننى فيها أن أهجم عليها وأمسك يديها وأضمها الى صدرى دون أن تقاوم . ولو فعلت ذلك لما قالت كلمة واحدة . فقد كانت تعلم أن ثمة أزمة تقترب لتغير معنى العالم كله فى لحظة . وكان وجهها يشحب وعيناها تومضان بنشوة مخيفة وهى واقفة أمام ذلك الكهف ، كهف المجهول الذى لا يمكن تقديره وان كان منتظرا . حين تجيء تلك اللحظة يتشكل فيها أبد ، ينتظر مصيرنا ممسكا أنفاسه .

ولكننى تركت تلك اللحظة تمر . لم أحول ، بقوة نافذة ، ما يوشك أن يكون يقينا الى قضاء مبرم . وانى لا أرى الآن فى وضوح أن ثمة عناصر خفية فى طبيعتى قد احتشدت جهرة لتعوق طريقي . هكذا لقي « رافانا » حتفه ، وهو فى نظرى البطل الحقيقى « للرامايانا » ، فقد استبقى « سيتا » فى جنة آسوكا منتظرا آية رضاها ولم يأخذها على الفور الى حريمه . ان هذا المفزالوحيد فى شخصيته العظيمة يجعل قصة الاختطاف كلها عبثا . ومثل هذا التورع جعله يغمض عن أخيه الخائن ببهيسان ، ويظهر الرأفة به ، ليجد نفسه مقتولا جزاء له على مجهوده .

وهكذا تأتى المأساة فى الحياة من تلقاء نفسها . فى أول الأمر ترقد كالشيء الصغير فى قبو مظلم ، وفى آخر الأمر تهدم البناء كله . ان المأساة الحقيقية هى أن الانسان لا يعرف نفسه على حقيقتها .

ثم هناك نيكهيل . فمهما يكن من بلاهته ومهما أسخر منه فانى لا أستطيع التخلص من فكرة انه صديقى . وقد كنت لا أبالى بوجهة نظره فى أول الأمر ولكنها بدأت تخجلنى وتؤذنى أخيرا . لهذا أحاول أن أكلمه وأناقشه بحماستى القديمة ولكننى لا أجد فيها رنة الصدق، بل انها تقودنى أحيانا الى مدى من التكلف أظهار معه بآنى أوافق . ولكن مثل هذا التكلف ليس فى طبيعتى ولا فى طبيعة نيكهيل . فبيننا اشتراك فى هذه الناحية على الأقل ، ولذلك أصبحت أفضل - فى هذه الايام - ألا ألتقى به ، وتعودت أن أتجنب محضره .

وهذه كلها آيات ضعف . فانك لا تكاد تسلم بإمكان الخطأ حتى يصبح قائما ويمسك بتلابيبك مهما تحاول أن تنفض عنك كل ايمان به . والشئ الذى أتمنى لو أستطيع قوله لنيكهيل فى صراحة هو أن مثل هذه الحوادث يجب أن تواجه دون موارد - على أنها أمور واقعية عظيمة - وان ما هو حق ينبغى ألا يسمح له بأن يقف بين صديقين .

لأريب انى قد ضعفت . ولم يكن هذا الضعف هو الذى استمال بيমা . لقد أحرقت جناحيها فى لهب عنفوان رجولتى التى لا تتردد . وكلما حجب الدخان وهجها اضطربت هى وتراجعت . ثم يأتى انقلاب تام فى الشعور حتى لتود لو تسترد العقد الذى طوقت به عنقى ، ولكنها لا تستطيع ، فتكتفى بأن تغمض عينيها لكيلا تراه .

ولكننى يجب ألا أحميد عن الطريق الذى رسمته . لا يجوز أن أتخلى عن قضية البلاد أبدا ، ولا سيما فى الوقت الحاضر . فلتكن بيমা وبلادى شيئا واحدا . ان الريح الغربية العاتية التى أزالته برقع الضمير عن بلادى ستزيل أيضا برقع الزوجة عن وجه بيমা ولن يكون ثمة خجل فى ذلك الكشف . وستهتز السفينة وهى تحمل الجمع الكبير على المحيط رافعة راية « باندى ماترم » وستكون مهذا لقوتى وحبى جميعا .

سترى بيমা صورة للخلاص فيها من الجلال ما يجعل قيودها تنزلق عنها بلا خجل ، بل دون أن تشعر بها . سيسحرها جمال هذه القوة المخربة المخيفة فلا تتردد لحظة فى أن تكون قاسية . لقد رأيت فى طبيعة بيমা تلك القسوة التى هى القوة الكامنة فى

الوجود ، تلك القسوة التى تبقى على الحياة جمالها بما لها من
قوة لا تلين .

لو حررت النساء من الاغلال المصنوعة التى وضعها الرجال
حولهن لرأينا على الارض الصورة الحية « لكالى » تلك الالهة التى
لا تخجل ولا ترحم . اننى من عبدة كالى ، وسأعبد لها حقاً فى
يوم من الايام واضعاً ييمالا على مذبح تخريبها . فلأتأهب لذلك .
ان طريق التراجع مسدود أمام كلينا . سنتناهب ونتباغض
واكننا أبداً لن نعود أحرارا .

الفصل الخامس

حكاية نيكهيل

- ٤ -

كل شيء يرتكض ويتموج في فيض آب . شطاء الأرز له نضرة أطراف طفل رضيع ، والماء قد غزا الحديقة المجاورة لمنزلنا ، ونور الصباح يهراق على الأرض كأنه حب السماء الزرقاء ، فلماذا لا أقدر أن أغنى ؟ ماء النهر البعيد يرعش النور ، وأوراق الأشجار تتلألأ ، وحقول الأرز تنتابها رعدات فيندلع منها لمعان الذهب ، وفي سيمفونية الخريف هذه لا يبقى صامتا إلا أنا . ان اشراق العالم يصيب قلبي ولكنه لا ينعكس منه .

وحين أدرك عجزى عن الافصاح أعلم سبب حرمانى . فمنذا الذى يستطيع أن يتحمل صحبتى ليل نهار بغير انقطاع ؟ ان بيমা لا منعمة بطاقة الحياة ، ولهذا لم أجدها تافهة قط في لحظة واحدة طوال هذه السنوات التسع من زواجنا . أما حياتى فليس لها إلا أعماقها الخرس ولكن دون همهمة الجريان . فى مقدورى أن أتلقى الحركة لا أن أبعثها ، ولهذا فان صحبتى كالصوم . وانى لأدرك اليوم فى وضوح أن بيমা كانت تزدى لجوعها الى الصحبة . اذن فمن ألوم ؟ اننى مثل فدياباتى لا أستطيع إلا أن أندب :

« آب اتى والسماء تنهل ،

وا حسرتاه ! منزلى خالى . »

وانى لأرى الآن أن منزلى قد بنى لبقى خاليا ، فأبوابه لا يمكن أن تفتح . ولكننى لم أعلم قط قبل اليوم أن معبودته كانت تجلس فى خارجه . لقد هدهدت اليقين بأنها قبلت قربانى ، وكافأتنى بنعمتها . لكن وا حسرتاه ! ان منزلى كان خاليا أبدا .

كان من عادتنا في مثل هذا الوقت من كل عام أن نذهب في عوامة الى بحيرة ساملدا . وكنت أقول لبيمالا انه لابد لكل أغنية من « مذهب » يتردد كل حين ، والمذهب الاصيل لكل أغنية هو في الطبيعة حيث تمر الريح المحملة بالمطر على النهر المرتكض ، وتسبغ الارض الخضراء قناعها المنمنم على وجهها لتصفى الى حديث الماء . هناك في مطلع الزمان التقى رجل وامرأة ، لم تحجبهما جدران . وهناك يجب أن نرجع نحن الاثنان الى الطبيعة ، على الاقل مرة كل عام ، لنوقع حبنا من جديد على النعمة الصافية الاولى لالتقاء قلبيين .

لقد قضيت العيدين الاولين لذكرى زواجنا في كليتنا حيث كنت أؤدي امتحاني . ولكننا لم ننقطع طوال السنوات السبع التالية عن الاحتفال بقراننا بين زهور النيلوفر المتفتحة . والآن يبدأ المقطع التالي في حياتي .

كان من العسير على أن أتجاهل ان شهر آب نفسه قد عاد من جديد هذا العام . ترى هل تذكره ييمالا ؟ انها لم تذكرني به . وكل شيء حولى صامت .

« آب أتى والسماء تنهل ،

وا حسرتها ! منزلى خالى . »

ان المنزل الذى خلا بافتراق الحبيين تظلل في قلب فراغه موسيقى . ولكن المنزل الذى خلا لأن القلبين انقسما يكون مخيفا في صمته . حتى صرخة الألم لا مكان لها هناك .

صرخة الألم هذه يجب أن أسكتها في ، فلن تعرف ييمالا الحرية الحقيقية ما بقيت أتعذب ، ويجب أن أحررها تماما والا فلن أنال أنا حريتي من الزيف ..

أحسبني قد أوشكت أن أفهم شيئا واحدا ، ان الانسان قد أذكى شعلة الحب بين الرجال والنساء حتى جعلها تتجاوز مجالها الحق ، وهو الآن عاجز عن أن يعيدها الى سيطرته ولو باسم الانسانية نفسها . ان عبادة الانسان قد جعلت من عاطفته صنما ، ولكن يجب ألا تقدم قرابين انسانية جديدة على مذبح ذلك الصنم . دخلت مخدعي هذا الصباح لأحضر كتابا . ولم أكن قد دخلته بالنهار منذ زمن طويل ، فسرت في وخزة ألم وأنا أجيل النظر فيه اليوم في ضوء الصباح . كان على رف الملابس « ساري » لبيمالا ، مهيا للبس ، وعلى منضدة الزينة عطورها ومشطها

ودبابيس شعرها ، ومعها - لايزال صندوق الدهان القانى ! وأسفل
منها كوئها الصغير الموشى بالذهب .
وكنت فى الايام الخالية قد أحضرت هذا الكوئ لبيمالا من لکنو
لأغريها به حين لم تكن قد تغلبت بعد على كرهها للأحذية : وفى المرة
الأولى كادت تهوى خجلا أن تخرج به ولو من الحجرة الى الشرفة
وقد أبلت بعد ذلك أحذية كثيرة ، ولكنها حافظت على هذا الزوج .
وحين أريتها الكوئ لأول مرة قلت لها مازحا : لقد ضببـطـتـك
تمسحين التراب عن قدمى وأنت تحسبيننى نائما ! اليك قربان
عبادتى ليمنع التراب قدمى معبودتى الساحرة . »
فقلت مستنكرة : « يجب ألا تقول مثل هذا الكلام . والا فلن

ألبس أحذيتك . ! »

ان مخدعى هذا له جو خفى ينفذ الى قلبى . وما شعرت قط
مثلما أشعر اليوم كيف يبعث قلبى الظامى جذوره لتلتف حول كل
قطعة مألوفة ، وانى لأرى قطع الجذر الاصلى غير كاف لأن يطلق
للحياة حريتها ، فحتى هذا الكوئ الصغير يشد المرء الى الوراء .
وتقع عيناي السائحتان على الفجوة . صورتى هناك تنظر كما
كانت تنظر دائما ، وان كانت الزهور المنثورة حولها قد ذبلت
واسودت ، أشعر بالصدق فى تحيتها وحدها دون سائر الاشياء التى
فى الحجرة . انها لم تبق هنا الا اهمالا لأمر ازالتها . لا بأس ، فلأرحب
بالصدق وان جاء فى هذا الرداء الكالح الكئيب ، ولأتطلع الى
الوقت الذى أستطيع فيه أن أرحب ولا أهتز . كما ترحب صورتى .
بينما كنت واقفا هناك جاءت بيمالا من خلفى . فحولت عينى
من الكوة الى الرفوف مسرعا وأنا أتمتم : « جئت لأخذ يوميات
أميل » . فيم التطوع بتفسير ؟ لقد أحسست أنى مذنب واغل ،
أتدسس الى سر لايراد أن أطلع عليه . ولم أستطع أن أنظر الى
وجه بيمالا بل أسرعت خارجا .

- ٧ -

كنت قد اكتشفت أن تظاهرى بالقراءة فى حجرتى الخارجية عبث
وانه فى غير مقدورى كذلك أن أشغل نفسى بشيء ما - وبدا أن
أيامى المستقبل كلها سوف تتجمد فى كتلة واحدة صلبة وترزح على
صدرى الى الأبد - عندما قدم الى بانشو الذى يعمل مزارعا عند
أحد ملاك الاراضى القريبين ، ومعه سلة من جوز الهند ، وحيانى

بانحناء عميقة فقلت : حسنا يا بانشو ، لم كل هذا ؟
وكان أستاذى هو الذى عرفنى ببانشو . كان شديد الفقر ، ولم
أكن أستطيع له شيئا ، فحسبته أراد بهذه الهدية أن أمنحه ما
يستعين به على الحياة ، وأخرجت من كيسي شيئا من النقود
مددتها اليه ولكنه أطبق يديه مستنكرا : « لا أقدر أن آخذ هذه
النقود ياسيدى ! » .

— كيف ؟ ما الأمر ؟

— فلأصرح لك بالحق ياسيدى . مرة كنت فى ضائقة ، فسرقت
بعض ثمار الجوز من الحديقة هنا . انى كبرت ، وقد يأتينى الموت
فى أى يوم ، ولهذا جئت أردنها .

لم أخط بظائل من يوميات أميل فى ذلك اليوم ، ولكن كلمات
بانشو أنعشت قلبى . أن فى الحياة أشياء كثيرة غير اجتماع رجل
وامرأة أو افتراقهما . فالعالم الكبير يمتد بعيدا وراء ذلك ، ولا
يستطيع المرء أن يقيس مسراته وأحزانه حقا الا حين يقف فى وسطه .
كان بانشو شديد الولاء لأستاذى . وانى لأعلم كيف يكدح
ليحصل على رزقه . انه يستيقظ كل يوم قبل الفجر ويخوض فى
مياه المستنقع التى تبلغ الركبتين حاملا سلة مليئة بأوراق «البان»
وقطع التبغ وخيوط القطن الملونة والأمشاط والمرايا وسائر الطرف
انتى تحبها نساء القرى ، ويذهب الى أحياء « الناماسودرا » (١)
حيث يقايض بضائعه بأرز فيحصل على مقدار أزيد قليلا من ثمنها
نقودا . واذا أمكنه الرجوع مبكرا فانه يخرج ثانية بعد أن يتناول
وجبة سريعة ليذهب الى بائع الحلوى حيث يساعد فى دق السكر
الكعك .

ولا يكاد يعود الى داره حتى يجلس لصنع أساور الصدف .
وربما استمر فى ذلك حتى منتصف الليل . وهو لا يكسب لنفسه
وأسرته من كل هذا الجهد الشاق وجبتين فى اليوم الا لمدة لا تكاد
تتجاوز نصف العام . وطريقته فى الأكل أن يبدأ بشربة ماء كبيرة ،
وطعامه الأساسى هو أرخص أنواع الموز الهزيل ، ومع ذلك فلا بد
للأسرة أن تكتفى بوجبة واحدة فى اليوم بقية العام .

وفكرت مرة فى أن أجرى عليه راتبا من الصدقات ، فقال أستاذى
« ان هبتك قد تقضى على الرجل دون أن تقضى على شقاء حظه .
فأمننا البنغال ليس فيها بانشو واحد فقط ، واذا كان درها قد جف

(١) طائفة من الطوائف الهندية الدنيا ، مساكنهم شرق البنغال . (المترجم) .

فانه لا يمكن اجتلابه من الخارج » .
هذه أفكار تستوقف المرء ، وقد عازمت أن أعكف على درسها ،
فقلت لييمالا في ذلك اليوم نفسه : لنهب حياتنا لازالة أسباب
الشقاء في بلادنا .

فأجابت باسمه : أرى انك أميرى سيد هارتا (١) ، ولكن لاتدع
فيض مشاعرك يجرفنى معك .
- لقد نذر سيد هارتا نذره وحيدا ، وأريد أن يكون ميثاقنا
مشتركا .

وذابت الفكرة في الحديث . والحق ان بييمالا هى فى صميمها
« سيدة » كما يقولون ، وان يكن أهلها غير أثرياء فقد ولدت
« رانى » ، وليس يخالجه شك فى أن هناك وحدة أدنى لقياس
شدائد « الطبقات الدنيا » ومتاعبهم . فالحاجة ، ولأريب ، صفة
ملازمة لحياتهم . لكن لا يلزم أن يكون معناها « الحاجة » بالنسبة
لهم . وان فى صفرهم لحماية لهم ، كما تحمى الشواطئ البركة ،
ولو اتسعت حدودها لما ظهر الا الوحل .

والأمر الثابت أن بييمالا انما جاءت الى بيتى لا الى حياتى . وقد
عظمتها وتركت لها مكانا كبيرا حتى انى لما فقدتها أصبحت طريقة
حياتى كلها ضيقة محصورة . لقد ألقيت كل الاشياء الاخرى فى ركن
لأفسح المكان لييمالا ، اذ كنت عليها عاكفا أزينها وألبسها وأعلمها
وأدور حولها ليل نهار ناسيا أن البشرية عظيمة عظيمة ، وحياة
الانسان ثمينة ثمينة . وعندما تستولى وقائع الاشياء اليومية على
الرجل يحتجب الحق وتضيع الحرية . وقد جعلت بييمالا للوقائع
المجردة قيمة بلغ من ضررها أن الحق بقى محجوبا عني ، ولهذا
السبب لا أجد ثفرة فى شقائى ، بل أبسط نقطة الخلو الصغيرة هذه
على العالم كله ، وتظل الكلمات تدندن فى أذنى ساعات فى هذا
الصباح الخريفى :

« آب أتى والسماء تنهل ،
وا حسرتاه ! منزلى خالى . »

(١) الاسم الذى عرف به بوذا وهو أمير قبل أن يتنسك (المترجم) .

حكاية ييمالا

- ١١ -

كان التغير الذى طرأ على عقل البنغال فى لحظة تغيرا عظيما .
وكان مياه الكنج لمست رفات أبناء « ساجار » (١) الستين ألفا ،
التي لم تكن لتشعلها نار ولا ليحيلها ماء آخر الى صلصال حى .
وفجأة نطق رفات البنغال : « انى هنا . »

لقد قرأت فى بعض الكتب أن مثالا فى بلاد الاغريق أتيح له أن
يمنح الحياة لتمثال صنعته يداه . فى تلك المعجزة نفسها كان
التشكيل سابقا للحياة ، ولكن أين كانت الوحدة فى تلك الكومة
من الرماد العقيم ؟ لو كانت صلدة كالحجارة لكان لنا أن نأمل
فى شكل ما ينشأ منها ، كما استردت « أهاليا » انسانيته بعد أن
مسخت حجرا ، ولكن هذا الرماد المتناثر قد تساقط ولا شك
حين الخلق لتذروه الرياح هنا وهناك . وتكوم ولم يتوحد قط من
قبل . لكن فى هذا اليوم الذى أتى على البنغال اكتسبت تلك
المجموعة المفككة شكلا ، وأعلنت عند بابنا بصوت قاصف : « انى
هنا » .

كيف لا نظن أن هذا كله كان خارقا للطبيعة ؟ لكان هذه اللحظة
من تاريخنا وقعت فى يدنا مثل جوهرة من السماء . لم تكن تشبه
ماضينا فى شيء ، فحسبنا أن كل فاقتنا وشقائنا سيختفيان
بسحر ساحر ، وأنه لم تبق بالنسبة لنا ثمة حدود بين الممكن
والمستحيل . بدا أن كل شيء يقول لنا : « انه آت ! لقد جاء ! »
وهكذا دخل فى روعنا أن تاريخنا لا يحتاج الى جواد بل سيتحرك
بقوته الداخلية كعربة السماء . على الأقل لن يلزمنا أن ندفع أجرا
لسائق العربة ، فحسبنا أن نملا كأسه بالنبيذ مرة بعد مرة ، ثم

(١) قضت اللعنة التى أحالتهم رمادا ألا يعودوا الى الحياة الا اذا أجرى اليهم نهر
الكنج . (المترجم) .

نصل إلى هدف آمالنا في جنة مستحيلة .
رأى يخل زوجي من تأثر بذاك ، ولكن نعمة حزنه هي التي ظلت
تعمق وتعمق خلال حماسنا كلها . وكان يبدو أنه يرى شيئاً وراء
الحاضر الفوار .

وأذكر أنه قال يوماً في أثناء مناقشاته المستمرة مع سنديب :
إن الحظ يأتي إلى بابنا ويعلن عن نفسه فيثبت عجزنا عن استقباله
— اننا لم نهيهء ما عندنا لنكون قادرين على دعوته إلى منزلنا .
فكان جواب سنديب : كلا . إن حديثك حديث ملحد لأنك
لا تؤمن بآلهتنا . لنا قد تبين أن الآلهة جاءت بنعمتها ، ولكنك
تنكر آيات حضورها .

قال زوجي : لأنني قوى الإيمان بالهي أعتقد أن استعدادنا
لعبادته ناقص . الله قادر على الانعام ولكننا يجب أن نكون قادرين
على تلقي النعمة .

ما كان هذا الحديث من زوجي إلا ليضجرني . فما تمالكت أن
أدليت بقولي : أنك تحسب هذه الحماسة نار السكر فقط . أفلا
يمنح بعض السكر قوة ؟

فأجاب زوجي : نعم ، قد يمنح قوة ولكنه لا يعطي سلاحاً .
فمضيت قائلة : ولكن القوة منحة من الله ، أما الأسلحة
فيمكن أن تقدمها الميكانيكا وحدها .

وابتسم زوجي قائلاً : ستطالب الميكانيكا بأجرها قبل أن تقدم
بضاعتها .

وانفخ سنديب صدره وهو يرد : لا تشغل بالك بذلك . إن أجرها
سيُدفع .

فأجاب زوجي : سأعد موسيقى الفرح عند الدفع لا قبله .
فقال سنديب بازدراء : لا تحسبن أنا نعتمد على كرمك لنحصل
على الموسيقى . إن عندنا فوق كل ما تدفعه من النقود .
وبدأ يغني بصوته الأجرس :

« حبيبي بحبه الغالي يزدرى المال .

« وبلا شيء اشترى الناي الذي يعزف ألحانه .

« فيسلب قلبي » .

ثم التفت إلى مبتسماً وقال : إذا غنيت يا ملكتي فلأثبت أن
فقد الصوت الجميل ليس بشيء متى دخلت الموسيقى حياة
المرء . عندما يغني معتمدين على انسجام الصوت وحده نجف

الاغنية . الآن اذ عمر بلادنا فيض من الموسيقى فليتدرب نيكهيل على سلامه بينما نوقظ البلاد بأصواتنا المشققة .

« يصيح بى منزلى : لماذا تخرج لتفقد كل شيء ؟ »

« وتقول حياتى : الق كل ما عندك للرياح ! »

« ان كان لابد أن نفقد كل شيء ، فلنفقده . فما قيمته آخر الأمر ؟ »

« ان طلبتى هى جرعة الموت التى تمنح الخلود »

الحق يا نيكهيل اننا كلنا فقدنا فنوبنا . ولا يمكن أن يمسكنا شيء داخل حدود المسكن اليسير ، ونحن نتقدم مسرعين الى المستحيل الذى لا أمل فيه .

« من يريدون أن يجذبونا الى الخلف »

« لا يعرفون فرحة الاندفاع المخيفة ، »

« لا يعرفون أننا سمعنا النداء . »

« من آخر الطريق المعوج . »

« كل ما كان طيبا معتدلا مهذبا . »

« فليهو فى التراب . »

وظننت أن زوجى سيمضى فى النقاش ، ولكنه نهض عن كرسيه صامتا وتركنا .

ان الشيء الذى كان يضطرب فى باطنى لم يكن الا صورة من الانفعال الذى يعصف فى الخارج جارفا البلاد من أقصاها الى أفصاها . كانت عربة صانع مصيرى تقترب بسرعة ، وصوت عجلاتها يتردد صدها فى كيانى ، وكنت أشعر دائما أن شيئا غير عادى يمكن أن يحدث فى أية لحظة ، ولن أكون - مع ذلك - مسئولة عنه . ألم أنقل من المستوى الذى يجب فيه اعتبار الصواب والخطأ ومشاعر الآخرين ؟ وهل كنت أريد ذلك قط - هل أنتظرت قط مثل هذا الأمر أو رجوته ؟ انظر الى حياتى كلها وأخبرنى ان كان على من شيء !

خلال ماضى كله كنت ثابتة على ولائى - حتى اذا حان الوقت لتلقى النعمة ظهر اله آخر ! وكما تهتز البلاد المستيقظة محيية أمامها المستقبل الذى لم يتحقق : « باندى ماترم » ، كذلك تبعث كل عروقى وأعصابى نبضات الترحيب للغريب الطارئ المجهول الملحاح .

ذات ليلة تركت فراشى ودلفت من حجرتى الى الشرفة

المكشوفة . ان حقول الارز الناضج تمتد وراء أسوار حديقتنا ،
ولحات من النهر تبدو خلال بساطين القرية الى الشمال . وكان
المنظر كله ينام في الظلام كجنين مبهم لمخلوق مقبل .

في ذلك المستقبل رأيت بلادي ، امرأة مثلى ، تقف منتظرة .
أخرجها من كسر بيتها نداء مفاجيء من مجهول . لم تجد وقتا
لتتلبث أو تتأمل ، أو لتشعل لنفسها مصباحا وهى مندفعة في الظلام
الممتد . أنا أدري كيف تستجيب روحها لأنغام الناي البعيدة
التي تناديها ، كيف يعلو صدرها ويهبط ، كيف تشعر أنها تقترب
منه ، بل انه ملكها فعلا ، فلا بأس أن جرت معصوبة العينين .
انها ليست أما . لا يناديها أطفال جياع ، ولا بيت توقد مصابيح
في المساء ، ولا عمل تدبره في المنزل . لا ، انها عجلت الى
ميعادها ، فهذه أرض شعراء « الفياشتافا » . لقد تركت بيتها ،
ونسيت واجبات منزلها ، وليس فيها الا حنين لا يسبر غوره ،
يدفعها قدما - في أى طريق ؟ ولأى هدف ؟ انها لا تبالى .

أنا أيضا يتملكنى مثل ذاك الحنين . أنا أيضا فقدت بيتي
وضلت طريقى . الغاية والوسيلة كلاهما غمضتا على . لم يبق
الا الحنين والأسراع . آه ! أيتها الجوابة التعسة بالليل ، حين
يحمر الفجر لن تبصرى أثرا لطريق الرجوع . ولكن لم الرجوع ؟
في الموت غناء عنه . ان كان الظلام الذى عزف على الناي قائدا الى
الهلاك ففيم الشغل بالآخرة ؟ عندما يفمرنى السواد لن أكون ، لا
أنا ، ولا الخير ولا الشر ، ولا الضحك ولا الدموع .

- ١٢ -

حين أدير آلة الزمن فى البنغال - هكذا فجأة - بأقصى قوتها ،
سهلت الاشياء العسيرة ، وتتابعت واحدا بعد واحد . لم يعد فى
الامكان أن يكبح جماح شيء ما ، حتى فى ركننا من البلاد . وكان
اقليمنا فى المؤخرة أول الأمر . لأن زوجى أبى أن يجبر أهل القرى
على شيء ، وكان يقول : « حقا ان الذين يضحون فى سبيل بلادهم
هم خدامها ، ولكن الذين يجبرون غيرهم على التضحية باسمها
هم أعداؤها . أنهم يقطعون الحرية عند الجذور لينالوها فى القمة » .
لكن لما جاء سنديب وأقام هنا ، وبدأ أتباعه يتجولون فى
البلاد ، وبخطبون فى المدن والأسواق ، امتدت موجات الحماسة

الينا نحن أيضا . والتف حوله طائفة من شباب الاقليم ، ومنهم من كانوا يعدون معرة للقرية ، لكن وهج حماستهم الصادقة أضاءهم ظاهرا وباطنا ، وتبين انه حين تنتظم البلاد أنسام نقية من فرح عظيم وأمل كبير ، تظهر من كل درن وعفن . نعم ، انه لعسير على الناس أن يكونوا صرحاء مستقيمين أصحاء وبلادهم تعاني آلام البأس .

وهنا تحولت كل العيون الى زوجي ، اذ كانت ولاياته وحدها هي التي لم يمنع فيها السكر والملح والمنسوجات الاجنبية . وبدأ موظفو الامارة أنفسهم يشعرون بالقلق والخجل من ذلك ، مع أن زوجي حين بدأ - منذ زمن - يستورد البضائع الوطنية الى قريتنا لامة الشيوخ والشباب على جنونه ، سرا وعلانية . فقد كنا نحترق « السواديشي » من كل قلوبنا قبل أن تصبح دعوة يستمد منها الفخر .

وما زال زوجي يبرى أقلامه الهندية بمبراة هندية ، ويكتب بأقلام « البسط » ويشرب الماء في طاس ، ويعمل بالليل في ضوء مصباح زيتي قديم . ولكن أسلوبه « السواديشي » الراكد البارد لم يستهونا قط ، بل اننا كنا نخجل دائما من الاثاث الخشن العتيق الطراز في حجرات استقباله ، وبخاصة حين يزوره قاضي التحقيق أو غيره من الاوربيين .

وكان زوجي يستخف بماخذي ، فيقول باسمي : لماذا تسمحين لهذه التفاهات أن تزعجك ؟

- سيظنوننا همجا ، أو على الاقل غير متمدنين .
- ان فعلوا فسوف أكافئهم بالظن ان مدنيتهم ليست أعمق من جلودهم البيضاء .

وكان عند زوجي وعاء نحاسي عادي على مكتبه ، يتخذه زهرية . وكثيرا ما حدث أن تسلفت الى حجرته عند سماعي بقدم زائر أوربي لأضع في مكانه زهرية بلورية أوربية الصنع .

وأخيرا أنكر فعلى بقوله : انظري يا بيمالا . ان هذا الوعاء النحاسي لا يشعر بنفسه ، كما لا تشعر تلك الأزهار . أما ذلك الشيء فانه يعلن عن غرضه بصوت عال ، ولا يصلح الا للأزهار الصناعية .

وكانت « الباراراني » هي وحدها التي تتملق نزوات زوجي . فمرة تجيء لاهثة لتقول : « أوه يا أخى ! هل سمعت ؟ لقد ظهر

صابون هندي بديع ! ان أيام ترفى قد ذهبت ، لكن اذا لم يكن في هذا الصابون شحم حيوانى فانى أود أن أجربه » .

ومثل هذا يجعل زوجى يتהל فرحا ، فاذا بالمنزل يفرق في العطور الهندية والصابون الهندي . وأى صابون : انه أشبه بقطع الصودا الكاوية . وبعد فأنا أعلم ان سلفتى لا تستعمل غير الصابون الاوربى المعهود ، أما هذه الانواع الهندية فانها تسلم الى الخادومات لفصل الملابس .

ومرة ثانية تقول : « أوه يا أخى العزيز ! أحضر لى شيئا من أيدي الاقلام الهندية هذه ! » .

فيتحمس « أخوها » كعادته ، وتمتلىء حجرات البارارانى بكل صنف من العصي القبيحة التى تسمى أيدي أقلام « سواديشى » . وهى لا تبالى بذلك لأن القراءة والكتابة ليستا من شغلها . ومع ذلك فان اليد العاجية لا تزال فى صندوق أدواتها الكتابية ، وهى اليد الوحيدة التى نستعملها ، حين تستعمل يد قلم على الاطلاق .

وحقيقة الأمر أن هذا كله كان ضربة موجهة انى لأنى لا أجارى زوجى فى بداوته . وكان من العبث أن أظهر زيف سلفتى ، فزوجى يتصلب وجهه اذا أشرت الى ذلك مجرد اشارة . اننا لا نجنى غير التعب اذ نحاول انقاذ مثل هؤلاء الناس ممن يحتالون عليهم !

والبارارانى تحب الخياطة . وذات يوم لم أتمالك أن انفجرت قائلة : يا لك من كذوب يا أختى ! عندما يكون « أخوك » حاضرا يجرى لعبك اذا ذكرت المقصات « السواديشى » ولكنك لاتستعملين الا المقص الانجليزى حين تخيطين .

فأجابت : وما الضر ؟ ألا ترين سروره بذلك ؟ لقد كبرنا معا فى هذا المنزل منذ كان صبيا . وأنا لا أطيق مثلك ، أن تبرح الابتسامة وجهه . هذا العزيز المسكين ! انه لا يجد تسلية الا هذا اللعب بأشياء الدكاكين . أنت وحدك التى يضيع عليك ماله ، ومع ذلك تريدن أن تهلكيه ؟

فأجبت : مهما تقولى فان الزفاق لا يجوز .

فضحكت سلفتى فى وجهى : يا المتشوتا رانى الصغيرة الصريحة ! مستقيمة كعصا المعلم ، أهو هذا ؟ ولكن المرأة لم تخلق كذلك . انها ناعمة مرنة ، بحيث تنحنى دون تعوج .

لم أستطع أن أنسى تلك الكلمات : « يضيع عليك ماله ،

وتريدون أن تهلكيه ! » واليوم أشعر أن الرجل ان كان لابد له من مسكر فيحسن ألا يكون امرأة .

- ١٣ -

« سكسار » التي تقع في امارتنا هي من أكبر المراكز التجارية في الاقليم فهناك مجرى ماء تعقد على أحد جانبيه سوق يومية وعلى الجانب الآخر سوق أسبوعية . وحين يتصل هذا المجرى بالنهر في وقت الامطار وتستطيع القوارب أن تبلغه ، تجلب للبيع مقادير كبيرة من الخيوط القطنية والمنسوجات الصوفية للشتاء المقبل .

وفي قمة حماسنا قرر سنديب أن جميع البضائع الأجنبية يجب أن تطرد من بلادنا مع شبح النفوذ الأجنبي .

وقلت وأنا أتأهب للصراع : أجل !

فقال سنديب : لقد تحدثت مع نيكهيل وهو يقول لي انه يقبل الدعوة الى ذلك ولكنه لا يقر حمل الناس عليه .

فقلت مزهوة بقوتي : سأتولى هذا الأمر .

لقد كنت أعلم عمق محبة زوجي لي ، ولو كنت في رشدي لرضيت أن أمزق أربا ولا أتخذ لنفسى هذا الحق ، في مثل ذلك الوقت ، ولكن كان يجب أن يقتنع سنديب بقوة « الروح » تتسلل في .

وكان سنديب قد أوحى الى ، بطريقته التي لا تقاوم ، ان الطاقة الكونية تتجلى لكل فرد في شكل جاذبية خاصة . وقال ان فلسفة الفياشنافا تتحدث عن « روح » المسرة التي تسكن في قلب الوجود ، وتجذب دائما حبيبها الخالد .

والناس يتوقون أبدا أن يخرجوا هذه « الروح » من الاعماق المستورة في طبيعتهم ، فمن استطاع منا أن يفعل ذلك فانه يفهم على الفور في وضوح معنى الموسيقى التي تأتينا من الظلام . وانطلق يغنى :

« نايبى الذى كان مشغولا بأغنيته

« الآن يصمت حين التقينا وجها لوجه .

« ندائى ذهب يبحث عنك من سماء الى سماء

« وأنت ترقدين مختفية ،

« ولكن صحبتى كلها تلقى بسمتها الآن
فى وجه محبوبتى »

ونسيت وأنا أصفى الى استعاراته اننى بيمالا العادية البسيطة .
اقد كنت « روحا » وكنت تجسيدا لفرحة الكون ، لم يكن شىء
ليفللنى ، ولا كان شىء مستحيلا على ، فكل ما ألمسه يكتسب
حياة جديدة . لقد كانت الحياة من حولى مخلوقة جديدة لى . ألا
ترى ان سماء الخريف لم تكن تحتوى على هذه الثروة من الذهب قبل
أن تلمسها استجابة قلبى ؟ وهذا البطل ، هذا الخادم للوطن ،
هذا العابد لى - هذا الذكاء المتوقد ، هذه الطاقة المشتعلة ، هذه
العبقرية المتألقة - اننى أخلقه أيضا من لحظة للحظة . ألم أر كيف
يسكب فيه حضورى حياة جديدة مرة بعد مرة ؟

منذ أيام قليلة رجائى سنديب أن أستقبل شابا صغيرا من
حواريه المخلصين اسمه اموليا . وفى لحظة أستطعت أن أرى نورا
جديدا يومض فى عيني الفتى ، وعرفت أنه هو أيضا قد تجلت له
آية « الروح » ، وأن قوتى الخالقة قد بدأت تعمل فى دمائه .
وفى اليوم التالى قال لى سنديب متعجبا : « ما هذا السحر الذى
لك ! ان اموليا لم يعد صبيا ، ان فتيلة حياته تسطع اشتعالا .
من ذا الذى يقدر أن يخفى نارك تحت سقف بيتك ؟ كل واحد
منهم يجب أن تمسه تلك النار ان قريبا وان بعيدا ، وعندما يشتعل
كل مصباح فستشهد البلاد احتفالا رائعا بتجلى الروح .

حين أعمانى بريق مجدى عزمت على أن أمنح عبادى تلك النعمة .
وكنت واثقة ثقة ملؤها الكبرياء أن أحدا لن يستطيع منعى مما
أریده حقا . فلما عدت الى حجرتى بعد حديثى مع سنديب أرسلت
شعري وعقصته ثانية من فوق ، وكانت مس جلبى قد علمتنى طريقة
لتمشيطة من العنق وجمعه فى عقدة على رأسى . وكان زوجى يحب
هذا النمط ، وقد قال مرة : « خسارة أن السماء اختارتنى أنا
بدلا من الشاعر كاليداس لأذيع كل محاسن جيد المرأة لعل الشاعر
لو رآه لشبهه بعنق زهرة . ولكنى أشعر أنه مشعل يرفع شعلة
شعرك السوداء . » قال ذلك و . . ولكن لماذا ، أوه ، لماذا
أعود الى ذلك كله ؟

أرسلت فى طلب زوجى . لقد كان فى وسعى قديما أن أخترع مائة
علة وعلة ، مقبولة ، أو غير مقبولة لأجعله يأتى الى . أما الآن وقد
انقطع ذلك أياما كثيرة فانى فقدت فن الاختراع .

حكاية نيكهيل

- ٦ -

توفيت زوجة بانشو منذ قليل بعد أن لازمها مرض ذات الرئة مدة طويلة . وكان على بانشو أن يدخل في مراسم التطهير ليخلص من الاثم ويرضى طائفته . وقد حسبت الطائفة تكاليف ذلك وأخبرته انها ثلاث وعشرون ومائة روبية .

وصحت غاضبا : ما هذا السخف ! لا تخضع لهم يا بانشو ! ما الذى يستطيعون أن يفعلوه بك ؟

فرفع الى عينيه الصابرتين كعيني دابة مجهدة ، وقال : هناك بنتى الكبرى يا سيدى ، يجب أن تتزوج ، ولا بد من اتمام المراسم الاخيرة لزوجتى المسكينة .

فرفعت صوتى بما كان يجرى فى ذهنى : حتى لو كان الذنب ذنبك يا بانشو لقد كفرت عنه بما يكفى فيما سلف .

فوافق بسداجة : هذا صحيح ياسيدى . لقد اضطررت أن أبيع جزءا من أرضى وأرهن الباقي لأدفع ما يطلبه الطبيب . ولكن لا مهرب من الهبات التى يجب أن أقدمها الى البراهمة .

ما فائدة الجدل ؟ وسألت نفسى : متى يحين الوقت لتطهير البراهمة أنفسهم وهم الذين يقبلون مثل هذه الهبات ؟

وأسقط فى يد بانشو بعد موت زوجته ودفنها ، وكان من قبل يعيش على شفا الجوع . وحاول يأسا أن ينال شيئا من السلوان بأن تعود الجلوس عند قدمى زاهد جواب آفاق ، واستطاع أن يكتسب قدرا من الفلسفة مكنه من نسيان أن أطفاله جوع . وأغرق نفسه زمنا فى فكرة أن الدنيا غرور ، وأنها وان كانت خالية من المتاع فالألم أيضا وهم . وأخيرا ترك صفاره ذات ليلة فى كوخهم المتداعى وانطلق يجوب الآفاق مستقلا .

لم أعرف شيئا عن ذلك الأمر فى حينه . ففى ذلك الوقت كان

الآلهة والشياطين يمحضون المحيط في عقلى ، ولم يخبرنى أستاذى أنه حمل أطفال بانشو الضائعين الى داره وتولى أمرهم ، وان كان وحيدا في المنزل ، وملزما أن يرعى مدرسته طول النهار .

وبعد شهر عاد بانشو وقد ذهب الكثير من حميته الصوفية ، فالتصق به ابنه الاكبر وبنته الكبرى صائحين : « أين كنت كل هذا الوقت يا أبتاه؟ » وتربع صغيره على حجره ، وانحنت بنته الثانية على ظهره وقد طوقت عنقه بذراعها ، وبكوا جميعا . وأخيرا قال بانشو لأستاذى منتحبا : « آه ياسيدى ! اننى غير قادر على اشباع هؤلاء الصغار ، ولست حرا لأهرب منهم . ماذا كان ذنبى حتى أعذب هذا العذاب ، ويداي مغاولتان وقدماي ؟ » .

وكان خيط علاقات بانشو التجارية الصغيرة قد انقطع ، ولم يعد في استطاعته أن يصله . فظل ملتجئا الى منزل أستاذى حيث وجد المأوى عند عودته ، ولم يقل كلمة واحدة عن رجوعه الى منزله . وأخيرا اضطر أستاذى أن يقول له : « انظر يا بانشو ! ان لم تعن بكوئك فإنه سوف يتهدم . سأقرضك بعض النقود لتبيع بها وتشترى ، وتردها الى شيئا فشيئا . »

لم يسر بانشو كثيرا بذلك : أما بقى على الارض شيء اسمه الاحسان ؟ وعندما سأله أستاذى أن يكتب صكا بالمال شعر أن هذه العطية التى يازم ردها لا تستحق أن تؤخذ . ولكن أستاذى لم يرد أن يقدم منحة ظاهرة تستتبع ديننا باطنا ، فقد كان يرى أن تحطيم احترام المرء نفسه تحطيم للكرامة التى يستمدّها من مكانه في المجتمع .

وبعد أن وقع بانشو الصك فقدت تحيته لأستاذى كثيرا من مظهرها الخاشع ، فلم يعد يمسح التراب عن قدميه ، وكان أستاذى يبتسم لذلك ، فإنه ما كان يريد شيئا خيرا من الاقتصاد في التبجيل ، وكان يعبر عن ذلك بقوله : « الاحترام معطى ومردودا يسبوى الحساب بين الرجلين ، أما التبجيل فمغالاة . »

وبدأ بانشو يشتري المنسوجات في السوق ويقايض بها في القرية . ومع انه لم يحصل على كثير من النقود فان ما استطاع جمعه من السلع كالأرز والقنب وغيرها من المنتجات الزراعية قد ساعده على سداد حسابه ، فاستطاع بعد شهرين أن يرد قسـطا من دين أستاذى ، وصاحب ذلك نقص مقابل في عمق انحناءته . ولعله بدأ يشعر انه كان يقدس رجلا عاديا لم يتسام حتى عن اغراء المال .

وبينما كانت هذه حال بناتو صدمه تيار « السواديشى » بكل قوته .

- ٧ -

كان الوقت عطلة ، وقد عاد كثير من الشباب فى قريتنا وجيرتها من منازلهم وكلياتهم . والتفوا حول زعامة سنديب متحمسين ، وانقطع بعضهم عن الدراسة لفرط غيرتهم . وكان كثير من الفتيان تلاميذ بالمجان فى مدرستى التى أنشأتها هنا ، وبعضهم يتلقون منى معونات ليدرسوا فى كلكتا . جاءنى هؤلاء جميعا مطالبين بأن أ منع البضائع الأجنبية من سوق سكسار .

فقلت لهم انى لا أستطيع ذلك .

قالوا ساخرين : لماذا يا مهراجا ؟ هل نشق عليك الخسارة ؟

فلم أبال بما فى نبرتهم من الاهانة ، وكدت أرد بأن الخسارة لن تصيبنى بل سوف تصيب التجار الفقراء وزبائنهم ، حين أدلى استاذى - وكان حاضرا - بقوله : نعم ، انه هو الذى سيخسر لا أنتم . هذا واضح جلى .

- ولكن الوطن ..

فقاطعهم استاذى مرة أخرى : الوطن ليس معناه الارض ، بل الناس الذين عليها . هل أنفقتم قبل اليوم ولو نظرة على ما يحدث لهم ؟ ولكنكم تريدون الآن أن تقررُوا أى ملح يأكلون وأى ثياب يلبسون ، لماذا يتحملون مثل هذا الاستبداد ، لماذا تدعهم يتحملونه .

- ولكننا نحن قد ألفنا الملح الهندى والسكر الهندى .

- لكم أن تفعلوا ما تشاءون لتذهبوا ضجركم وتبقوا تعصبكم .

فأنتم ميسورو الحال ، ولا حاجة بكم أن تفكروا فى الثمن . ان الفقراء لا يعارضونكم ولكنكم مصرون على أن يخضعوا لما تفرضونه . ان كل لحظة من لحظاتهم - على ما هم الآن - لهى صراع حياة أو موت فى سبيل حفظ الرmq ، وليس بوسعكم أن تتخيلوا الفرق الذى يمكن أن تحدثه لهم دوانق قليلة ، فانكم لا تكادون تشاركونهم فى شىء . لقد قضيتم ماضيكم كله فى طبقة عليا ، والآن تهبطون لتتخذوا منهم أدوات لانزال غضبكم . انى أسمى هذا جبنا .

وكانوا جميعا من تلاميذ استاذى السابقين ، فلم يجرؤوا على أن يسيئوا أدبهم ، وان ارتعدوا من الغضب والتفتوا الى : اذن فهل

تكون الوحيد الذى يضع العقبات أمام سعى البلاد يامهراجا ؟
- ومن أكون حتى أجرؤ على مثل هذا الفعل ؟ أم اننى غير مستعد لأن أهب حياتى فى سبيل تحقيقه ؟

وابتسم طالب الماجستير ابتسامة شوهاء وهو يسأل : هل لنا أن نعلم ماذا تقوم به فعلا فى هذا السبيل ؟

- لقد استوردت غزلا مصنوعا فى الهند وعرضته فى سوق سكسار ، وأرسلت بالات منه الى الاسواق التابعة للملاك المجاورين .

فصاح الطالب نفسه : ولكننا ذهبنا الى سوقك يامهراجا ولم نجد أحدا يبيع ذلك الغزل .

ليس هذا خطئى ولا خطأ سوقى ، انما هو دليل على أن البلاد لم تدخل جميعها فى ميثاقتك .

ومضى أستاذى يقول : ليس هذا كل شيء . انه يدل على انكم ما تعاهدتم الا على مضايقة غيركم . أنتم تريدون التجار الذين لم يدخلوا فى ميثاقتكم أن يشتروا ذلك الغزل . والنساجين الذين لم يدخلوا فى ميثاقتكم أن ينسجوه ، ثم ان تعرض بضائعكم آخر الأمر على مستهلكين لم يدخلوا فى ميثاقتكم أيضا . أما الطريقة فهى الصياح منكم والاضطهاد من ملاك الاراضى . وأما النتيجة فهى أن لكم كل الفضل ولهم كل الحرمان .

فعقب طالب علوم : وهل لنا أن نسأل ماذا كان نصيبكم من الحرمان ؟

فأجاب أستاذى : أتريد أن تعلم ؟ ان على نيكهل نفسه أن يشتري هذا الغزل الهندى ، وقد لجأ الى انشاء مدرسة نسيج لحياته ، واذا حكمنا بأعماله الباهرة السابقة فى هذا الميدان فان ثمن منسوجاته القطنية عند خروجها من النول سيكون كثر من نسيج الذهب ، ولذلك فلن تكون لها فائدة الا أن تتخذ ستائر فى حجرة جلوسه ، ولو كانت أرق من أن تستره . عندما تتعبون من ميثاقتكم ستضحكون بأعلى صوت عن تأثيرها الفنى . وأن أعجبت صناعتها أحدا فانها لن تعجب غير الأجانب .

لقد عرفت أستاذى طيلة حياتى ، ولكن لم أره قط فى مثل هذه الثورة . ولاح لى أن الألم ظل يتجمع فى قلبه زمنا وهو صامت لفرط حبه لى وان ما تعود من امتلاك زمام نفسه قد نيل منه حتى كاد يتداعى .

قال طالب الطب : انتم أكبر منا سنا ، ولا يليق بنا أن

نجددلكم . ولكننا نود أن نعلم أخيرا هل أنتم عازمون على ألا
تخلوا سوقكم من البضائع الأجنبية ؟

قلت : لن أفعل ، لأننى لا أملك هذه البضائع .

فقال طالب الماجستير مبتسما : لأن ذلك يسبب لك غرما !

فرد أستاذى : لأن الذى سيفرم هو أولى الناس بأن يحكم .

فتركونا هاتفين : باندى ماترم .

الفصل السادس

حكاية نيكهيل

- ٨ -

بعد أيام جاءنى أستاذى مصاحبا بانشو . وظهر أن مالك الارض
التي يقيم فيها غرمه مائة روبية وهدده بالطرده .
سألت : وبأى ذنب ؟

فقل لى : لأنه وجد يبيع منسوجات أجنبية وقد رجا
« هاريش كوندو » مالك الارض وتضرع اليه أن يتركه حتى يبيع
ما عنده من بضاعة اشتراها بالدين ، وحلف ألا يعود الى ذلك
العمل مرة أخرى ، ولكن صاحب الارض لم يصغ اليه ، وأصر
على احراق البضائع الاجنبية فى الحال ان أراد اطلاق سراحه .
وصاح بانشو متحديا فى غيظه : أنا لا أتحمل هذا . أنت مقتدر
فلماذا لا تشتريها كلها وتحرقها ؟ فما كان من هاريش كوندو الا أنه
صاح وقد احمر وجهه : يجب تأديب هذا اللعين . اضربوه
بالاحذية ! وهكذا لقي بانشو المسكين فوق الفرامة اهانة .

- وماذا جرى للقماش .

- لقد أحرقت البالة جميعها .

- ومن كان هناك غيره ؟

- عدد كبير من الناس كانوا كلهم يصيحون : « باندى ماترم »
وكان فيهم سنديب أيضا ، فتناول بعض الرماد صائحا : أيها
الاخوة ! ان هذا أول حريق جنزى توقده قريبتكم محيية المراسم
الاخيرة للتجارة الاجنبية . هذا رماد مقدس ، فامسحوا أنفسكم
به آية على انكم أخذتم عهد « السواديشى » .
فالتفت الى بانشو قائلا : يجب أن تقدم شكوى يا بانشو .

فأجاب : لن يشهد لى أحد .
— لن يشهد أحد ؟.. سنديب ! سنديب !
فجاء سنديب من حجرته حين سمع ندائى ، وسأل : ماذا جرى ؟
— ألا تشهد على احراق قماش هذا الرجل ؟
فابتسم سنديب قائلا : سأكون لاشك شاهدا فى القضية . ولكنى
سأشهد عليه لا له .

فصحت : ماذا تعنى بشهادتك عليه ؟ ألا تشهد بالحقيقة ؟
— هل الشئ الذى يحدث هو الحقيقة الوحيدة ؟
— وأى حقائق أخرى يمكن أن توجد ؟
— الاشياء التى ينبغى أن تحدث ! ان الحقيقة التى يجب أن
نبنيها ستحتاج فى سبيل ذلك الى كثير مما يخالف الحقيقة . ان
أولئك الذين شقوا طريقهم فى الحياة قد خلقوا الحقيقة ولم يسيروا
وراءها سيرا أعمى .
— واذن .. ؟

— واذن فسأدلى بما يلذ لكم أن تسموه شهادة الزور ، كما
فعل أولئك الذين أوجدوا الامبراطوريات وأقاموا النظم الاجتماعية
 وأنشأوا المنظمات الدينية . الذين يريدون أن يحكموا لا يخشون
مخالفة الحقيقة ! أما قيود الحقيقة فأولئك الذين يقعون تحت
حكمهم . ألم تقرأ التاريخ ؟ ألا تعلم ان الاكاذيب هى المكونات الرئيسية
فى داخل تلك الصـهاريج الضخمة التى تفتلى فيها التطورات
السياسية العظيمة ؟

— لاشك ان ثمة طبخا سياسيا يجرى على نطاق واسع ، ولكن .
— أوه ، أنا أعلم . انك لن تشترك فى شئ من الطبخ ، فأنت
تفضل أن تكون واحدا من أولئك الذين تدفع الخلطة المطبوخة فى
حلاقيهم . سيقسمون البنغال ويقولون ان ذلك لمصلحتك .
سيوصدون أبواب التعليم ويسمون ذلك رفعا للمستوى ولكنكم
ستبقون أبدا أولادا طيبين ، تبكون فى أركانكم . أما نحن الرجال
الاشرار فعلىنا أن ننظر فى وسيلة لاقامة حصون دفاعية من مخالفة
الحقيقة .

فتدخل أستاذى قائلا : لا فائدة من الجدل فى هذه الأمور
با نيكهيل . أنه ، لمن لا يشعرون بالحقيقة فى داخلهم أن يدركوا أن
اخراجها من الظلام الى النور هو أسمى هدف للإنسان لا المواظبة
على تكديس المادة فى الخارج ؟

فضحك سنديب قائلا : أحسنت ياسيدى ! هذه خطبة تليق
بمعلم . هذا كلام قرأت مثله في الكتب ، ولكنى رأيت في العالم
الواقعى أن هم الانسان هو جمع المادة الخارجية . وأساتذة
هذا الفن يروجون أكبر الأكاذيب في أعمالهم ، ويدخلون الحسابات
الزائفة في سجلاتهم السياسية بأعرض أسنة أقلامهم ويطلقون
صحفهم كل يوم حملة بالمغالطات ، ويبعثون الوعاظ الى الخارج
لينشروا الافك ، كالذباب الذى يحمل جراثيم الوباء . اننى تابع
متواضع لهؤلاء العظماء . وعندما كنت متصلا بحزب المؤتمر لم أتردد
قط فى أن أخلط عشرة فى المائة من الحقيقة بتسعين فى المائة من
الافك . واذا كنت قد أصبحت غير منتسب لهذا الحزب فان ذلك
لم ينسنى الاصل الواقعى الثابت الذى يقول ان هدف الانسان
ليس الحقيقة بل النجاح .

فصحح أستاذى قوله : النجاح الحقيقى .
فأجاب سنديب : ربما . ولكن ثمرة النجاح الحقيقى لا تنضج
الا بزرع حقل الافك ، بعد تمزيق الارض وطحنها ترابا . ان الحقيقة
تنمو وحدها كالأعشاب والأشواك ، ولا ينتظر الثمار منها غير
الديدان !

قال ذلك واندفع خارجا من الحجرة . ونظر أستاذى الى
بابتسام . قال : أتدرى يا نيكهيل . . أنا لا أعتقد أن سنديب
غير مؤمن . ان دينه هو الوجه الآخر للحقيقة . كالقمر المظلم ،
لايزال قمرا وان ذهب نوره الى الجانب الآخر .
فقلت موافقا : لهذا كنت دائما أميل اليه وان لم نستطع قط
ان نتفق . وليس فى وسعى أن أدينه الآن أيضا . وان كان قد
أساء الى أساءة بالغة ، ولعله سيزداد ايدا لى .
قال أستاذى : لقد بدأت أتبين ذلك . وكثيرا ما سألت نفسى :
كيف تستطيع احتماله ، بل اننى نسبتك الى الضعف أحيانا .
والآن أرى أنكما وان لم تتفقا فى الروى فأنتما من بحر واحد .
فقلت متابعا فكرته : كأن القدر صمم على أن يكتب لى «فردوسا
مفقودا» بالشعر المرسل ، فلم ير حاجة الى صديق موافق .
وتابع أستاذى حديثه الاول سائلا : ولكن ماذا عن بانشو ؟
- تقول ان هاريش كوندو يريد أن يطرده من مقر أجداده . فان
أشترت المكان وأبقيته مستأجرا عندى ؟
- وغرامته ؟

- كيف يحصلها صاحب الارض ان أصبح مستأجرا عندي ؟
 - وبالة القماش التي حرقت ؟
 - سأشترى له بالة أخرى . ولعل أحدا يتدخل في شأن مؤاجر من مؤاجري لأنه يتاجر كما يريد !
 فقال بانشو بانكسار : أخشى ياسيدي أن يجتمع نسور الشرطة والقانون ويستمتع الجمهور بالمنظر وانتم تتحاربون معشر الكبراء ، فاذا وصل الأمر الى القتل جاء دورى أنا المسكين !
 - لماذا ؟ أى ضرر يمكن أن يصيبك ؟
 - سيحرقون منزلى ياسيدي ، ولن يبقوا على الاطفال !
 فقال أستاذى : حسنا ، سأعنى بأطفالك . ولك أن تتاجر كما تريد ، فلن يمسوك بأذى .
 وفى ذلك اليوم نفسه اشتريت مسكن بانشو وأصبحت المالك الرسمي له ، ثم بدأت المتاعب .
 كان بانشو قد ورث المسكن عن جده على أنه وريثه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، وكان كل امرئ يعلم ذلك ، ولكن فى هذه اللحظة ظهرت زوجة عمه من مكان ما ، ومعها صناديقها وحزمها وسبحتها ، وابنة أخ مترملة . وتربعت فى منزل بانشو وطالبت بنصيبها - مدى الحياة - فى ريع جميع ما يملك .
 وذهل بانشو . واحتج بقوله : ولكن زوجة عمى ماتت منذ أمد بعيد !
 فأجيب بأنه يعنى زوجة عمه الاولى ، ولكن العم لم ينتظر طويلا حتى اتخذ زوجة ثانية .
 وصاح بانشو وقد زادت دهشته : ولكن عمى مات قبل عمتى . فكيف تسنى له أن يتزوج ثانية ؟
 ولم ينكر عليه قوله ، ولكنه ذكر بأنه لم يزعم قط مجيء الزوجة الثانية بعد وفاة الاولى ، بل ان عمه تزوج الثانية فى حياة الاولى . ولم تسترح الزوجة الثانية للعيش مع ضرة فبقيت فى منزل أبيها حتى وفاة زوجها ، وبعد ذلك تنسكت وأقامت فى أرض برندابان المباركة التى قدمت منها الآن . وكانت هذه الوقائع معروفة لموظفى هاريش كوندو وبعض مؤاجريه . ولو صمم مالك الارض لوجد أيضا بعض من شهدوا وليمة العرس !

ذات أصيل كنت مشغولا بعمل كثير ، واذا برسالة تأتيني في مكتبي أن بيমাلا تطلبني . فدهشت ، وسألت الرسول : تقول من التي بعثت في طلبى ؟

- أمنا الرانى .

- البارا رانى ؟

- لا ياسيدى بل أمنا التشوتا رانى .

التشوتا رانى ! كأنما مر قرن منذ بعثت تطلبني . فتركت الخلق منتظرين هناك ، وذهبت الى الحجرات الداخلية . وعندما خطوت داخلا الى حجرتنا أصابتني دهشة أخرى اذ وجدت بيমাلا واقفة في زينة غير عادية . وكانت الحجرة التي طال اهمالها حتى اكتسبت مظهر الشرود ، قد استعادت شيئاً من نظامها القديم في تلك الساعة . ووقفت صامتا أنظر مستفهما الى بيমাلا .

احمر وجهها قليلا وجعلت أصابع يمينها تلعب بالاسورة على ذراعها اليسرى . ثم قطعت الصمت فجأة : راعنى ! هل يجوز أن تكون سوقنا هي الوحيدة في البنغال التي تباع فيها البضائع الاجنبية ؟

فسألت : وما السبيل الصحيح اذن ؟

- تأمر باخراجها !

- ولكننى لا أملكها .

- ألسنت تملك السوق ؟

- بل هي أولى بأن تكون ملكا لمن يستعملونها في التجارة .

- فليتاجروا في البضائع الهندية اذن .

- ليس أدعى لسرورى من هذا . ولكن ماذا ان أبوا ؟

- هراء ! كيف يجرؤون على مثل هذه الوقاحة ؟ ألسنت ..

- اننى مشغول جدا هذه الساعة ، ولا أستطيع أن أستمع في

الجدل ولكننى لن أكون مستبدا .

- لن يكون استبدادا من أجل كسب شخصى ، بل من أجل

مصلحة الوطن .

- الاستبداد من أجل مصلحة الوطن هو استبداد الوطن .

ولكننى أخشى ألا تفهمى هذا أبدا .

قلت ذلك وخرجت ، وفجأة أضاء لى العالم بنور جديد . وكأنما

أحسست في دمي أن الارض قد فقدت ثقل أرضيتها ، وان واجبها

اليومى فى امداد الحياة لم يعد يبدو عبثا ، وانها تدور فى الفضاء بفيض عجيب من القوة ، مسبحه بايامها ولياليها . يا له من عمل لا ينتهى ، ويا لها من طاقة للحرية لا تحد ! لن يمنعها شىء ما . لا ولن يمكن أبدا أن يمنعها شىء ! وانبعثت من أعماق وجودى دفقة فرح كأنها نافورة ، وارتفعت الى عنان السماء .

وسألت نفسى مرة بعد مرة عن معنى هذا الانبعث ، فلم أجد فى أول الأمر جوابا مفهوما ، ثم وضح لى أن القيد الذى كنت أثور عليه فى باطنى ليل نهار قد انكسر ، وتبينت لدهشتى أن عقلى قد تخلص من كل ضبابية ، واستطعت أن أبصر كل ما يتعلق ببيمالا فى وضوح كأنه مصور على شاشة سينما . كان ظاهرا ماموسا أنها تأنقت فى ملابسها عمدا لتستميلنى الى اصدار ذلك الأمر . ولم أكن حتى ذلك الحين قد نظرت قط الى زينة بيمالا على أنها شىء مستقل عنها . ولكنها اليوم بدت مجرد زخرفة من الطريقة المصطنعة التى عقصت بها شعرها على النمط الانجليزى . وأصبح الشىء الذى كان محملا بسر شخصيتها ، ولم أكن أقدره بثمان ، معروضا للبيع بالثمان الرخيص .

حين خرجت من ذلك القفص المحطم - ذلك المخدع - الى ضوء الشمس الذهبى فى العراء ، كان صفا أشجار « البوهينيا » على جانبى الدرب المواجه لشرفتى يسكبان على السماء ألقا ورديا ، وكان سرب من الزرازير منطلقا فى ثرثرة عالية تحت الاشجار ، وعلى بعد عربة خالية من العربات التى تجرها الثيران ، قد رفعت ذيلها فى الهواء وأنفها على الارض ، وأحد ثوريها المحولين يرعى والآخر راقد على العشب ، وعيناه منكستان استرواحا ، بينما كانت بقرة ترقد على ظهرها عاكفة على تحريك رأسها لطرد الحشرات عن جسمها .

كأنما اقتربت من نبضات قلب الارض العظيمة فى كل بساطة حياتها اليومية . لمستنى أنفاسها الدافئة بعطر أزهار البوهينيا ، وبدا كأن نشيدا تدق عدوبته عن الوصف ينبعث من هذا العالم ، حيث أحيأ بحريتى فى حرية كل شىء آخر .

نحن الرجال فرسان نبتفى تلك الحرية التى تدعونا اليها مثلنا ، والمرأة التى تصنع لنا العلم الذى نسير تحته هى حق المرأة لنا . يجب أن نمزق قناع تلك التى تنسج شباك الفتنة لنا فى البيت وأن نعرفها على حقيقتها . يجب أن نحاذر من الباسها سحر

أشواقنا وخيالاتنا لتضلنا عن مطلبنا الحق .
اليوم أشعر انى سأنتصر . وصلت الى باب البساطة ، وأنا الآن
راض بأن أرى الأشياء كما هى . لقد كسبت الحرية لنفسى
وسأفتح الحرية للآخرين وفى عملى سيكون خلاصى .
أعلم أن قلبى سيتألم مرة بعد مرة ولكننى الآن فهمت ألمه فى
كل حقيقته . أستطيع ألا أراعيه . الآن وقد علمت اننى أنا وحدى
مداره فماذا يمكن أن تكون قيمته آخر الأمر . سيكون عذاب
البشرية كلها هو تاجى .
أنقذنى يا حق ! لا تدعنى أبدا يعاودنى الحنين الى فردوس
الوهم الكاذب ! واذا كان على أن أسير وحيدا فاجعلنى على
الاقبل أسلك طريقك . اجعل دقائق طبول الحق قائدى الى النصر .

حكاية سنديب

- ٧ -

استدعتني بيমা لا في ذلك اليوم ولكنها ظلت مدة لا تستطيع أن تنطق بكلمة ، وعيناها تغرورقان وتوشكان أن تفيضا . وأدركت على الفور أنها لم توفق مع نيخيل . لقد كانت على ثقة ملؤها الكبرياء أنها ستظفر بما تريد ، ولكنني لم أشاطرها قط هذه الثقة . فالمرأة تعرف الرجل معرفة حسنة حيث يكون ضعيفا ، ولكنها عاجزة كل العجز عن سبر غوره حيث يكون قويا . والحق أن الرجل لغز للمرأة كما أن المرأة لغز للرجل . ولو لم يكن ذلك صحيحا لكان التمييز بين الجنسين مضيعة لجهد الطبيعة .

الكبرياء ، وما أدراك ما الكبرياء ! لم يكن الخطب أن الأمر الضروري قد تعذر انجازه بل أن الرجاء الذي كلفها كل هذا الصراع قد رفض . ما أكثر اللون والحركة والایماء والخداع حول كلمة « أنا » عند المرأة ! وهنا جمالها - فهي ذاتية أكثر جدا من الرجل . عندما خلق الرجل كان الخالق معلما حقييته مملوءة بالوصايا والمبادئ ، ولكنه حين خلق المرأة ترك أستاذيته وتحول فنانا ليس له إلا ريشته وصندوق ألوانه .

حين وقفت بيমা هنالك صامته محمرة الوجه باكية في كبرياتها الكسيرة وكأنها سحابة عاصفة مثقلة بالمطر مشحونة بالبرق تحط عنى الأفق ، بدت حلوة حلوة حتى انى لم أتمالك أن أسرعت اليها وأمسكت يديها . كانت ترتعد ولكنها لم تنتزعها من يدي . فقلت : يا ملكتي ، نحن الاثنان زميلان لأن أهدافنا واحدة . فلنجلس ونتحدث في الأمر .

وقدتها الى كرسى وهى لا تقاوم . ولكن أى عجب ! في هذه اللحظة نفسها انحبس اندفاعى دون سبب معلوم ، كتيار «البادما» الجبار يزأر أتيه - ولا مقاومة - وإذا بعقبة صغيرة تحت السطح

تحوله عن الشاطئ المتداعى أمامه . عندما ضغطت على يد ييمالا عرفت أعصابى كأوتار مشدودة ولكن السيمفونية توقفت عن الحركة الاولى .

ما الذى اعترض الطريق ؟ لا شيء بمفرده ، بل خليط من أشياء كثيرة - لا شيء ملموس ولكن ذلك الشعور المبهم بالتعويق . ومهما يكن من شيء فقد وضع لى أمر وهو انى لا أستطيع أن أقسم على أن حقيقتى هى كذا ، وما فتنتى بنفسى الا لأننى لغز محير لعقلى ، ولو مرة عرفت نفسى كاملة لطرحتها كلها بعيدا ووصلت الى نعيم الروح !

انتسف وجه ييمالا وهى تجلس ، ولا بد أنها هى أيضا شعرت بالازمة التى جاءت وذهبت تاركة اياها لم تصب بأذى . لقد مر المذنب ، ولكن لفحة ذنبه المشتعل هزمتها . ولكى أساعدها على استعادة جأشها قلت : لابد من عقبات ولكن دعينا نحاربها حتى نتصر ، وحذار أن نقنط . ألا ترين أن ذلك أفضل ياملكتى ؟ فسعلت ييمالا سعلة صغيرة لتطلق صوتها الا أنها لم تزد على أن قالت : نعم .

ومضيت أقول ، وأخرجت من جيبى قطعة من الورق وقلم رصاص : فلنرسم خطتنا للعمل .

وبدأت أكتب قائمة بأسماء المجاهدين الذين انضموا إلينا من كلكتا وأعين لكل واجباته . فقاطعتنى ييمالا قبل أن أتم ذلك قائلة بملل : « دع هذا الآن ، سألقاك ثانية هذا المساء » . ثم أسرع خارجة من الحجرة . وكان واضحا أنها غير قادرة على النظر فى شيء ما ، بل يجب أن تخلو الى نفسها برهة - أو ترقد على سريرها وتبكى حتى تشتفى !

وعندما غادرتنى بدأت نشوتى تعمق ، كما تغزر ألوان السحب بعد مغيب الشمس . وشعرت بأنى تركت لحظة اللحظات تفلت . أى جبان رعديد كنت ! لابد أنها تركتنى اشمئزا من تورعى - ولقد كانت على حق !

وبينما كنت أغلى بمثل هذه الافكار جاء خادم وأعلن قدوم « أموليا » أحد فتياننا . وهممت أن أبعده بعض الوقت ولكنه دخل قبل أن أعزم ، ثم أخذنا نتناقش فى أخبار المعارك التى نشبت فى جهات مختلفة حول القماش والسكر والملح ، وسرعان ما صفا الجو من كل أبخرة النشوة وكأنما صحوت من حلم ، فهبت شاعرا

أنى على أتم استعداد للصراع « باندى ماترم ! » .
كانت الاخبار مختلفة . فمعظم التجار الذين يقيمون في مقاطعة
هاريش كوندو قد انضموا إلينا ، وكثير من موظفى نيكهيل يناصرونا
سرا ، ويدبرون الأمور في الخفاء لمصلحتنا ، وتجار « مرورى »
مستعدون لدفع غرامة ان نحن تركناهم يتخلصون من البضائع التى
في مخازنهم ، إلا أن بعض التجار المسلمين كانوا لا يزالون على
عنادهم .

وكان أحدهم يحمل الى منزله بعض الشيلان الالمانية الصنع
لأسرته ، فصادرها أحد فتيان قريتنا وأحرقها ، وتفاقم الأمر ،
فعرضنا أن نعوضه أصوفا هندية ، ولكن أين نجد أصوفا
هندية رخيصة الثمن ؟ لم يكن فى وسعنا أن ننعم عليه بشيلان
كشمير ! فجاء نيكهيل شاكيا ، ونصحه هذا بأن يلجأ الى القانون ،
وقد تكفل رجال نيكهيل بأن تذهب القضية سدى ، بل أن محامى
الرجل كان فى صفنا !

والمشكلة هى أننا لن نستطيع أن ندبر المال اذا كان علينا فى كل
مرة أن نعوض الاقمشة المحروقة بأقمشة هندية ، ثم ندخل فى
قضية فوق ذلك ، وأبدع ما فى الأمر أن هذا الاتلاف للبضائع
الاجنبية يزيد الطلب عليها ويرفع أرباح الاجانب - كما حدث لذلك
التاجر السعيد الحظ الذى أغرم « النواب » بتحطيم شمعداناته ،
لأنه كان بتلذذ برنين الزجاج المكسور ؟

والمشكلة الثانية هى هل ينبغى أن نتشدد فى مقاطعة أصواف
الفانلا والمورينو الاجنبية أو نستثنىها من هذه المقاطعة ، ما دامت
لا توجد أصواف هندية أنيقة رخيصة ؟

قلت أخيرا مجيبا عن النقطة الاولى : اسمع ! اننا لن نمضى فى
تقديم هدايا من المنسوجات الهندية الى أولئك الذين صودرت
بضائعهم الاجنبية . انهم هم المقصودون بالعقوبة لا نحن . فاذا
لجأوا الى القضاء فيجب أن نرد باحراق مخازنهم ! - ما الذى
يفزعك يا أموليا ؟ ان منظر النيران لا يخلبنى . ولكن يجب أن
تعلم أن هذه حرب فان كنت تخاف ايقاع الاذى فاذهب لتلتمس
لك حبا فانك لن تصلح لهذا العمل !

وحللت المشكلة الثانية بأن قررت ألا أتوسط فى أمر البضائع
الاجنبية مهما تكن الحال . ففى الماضى حين كانت هذه الشيلان
الاجنبية الزاهية الالوان غير معروفة اعتاد فلاحونا الاكتفاء بالملاحف

القطنية البسيطة - فليتعلموا ذلك ثانية . ولعلها تبدو أقل جمالا ،
ولكن هذا ليس وقت التفكير في المظاهر .
وكان معظم الملاحين قد أقتنعوا بأن يرفضوا نقل البضائع
الاجنبية ، ولكن رئيسهم « ميرجان » بقى على عناده . فسألت
مدير أعمالنا هنا : ألا تستطيع أن تدبر اغراق قاربه ؟
فأجاب : ليس أسهل من ذلك ياسيدى : ولكن ماذا يكون ان
اعتبرت مسئولا بعد ذلك ؟
- ولماذا تسيء التدبير بحيث تترك ثغرة للمسئولية ؟ ومع ذلك
فان وجدت ثمة مسئولية فان كاهلى يستطيع احتمالها .
كان قارب ميرجان مربوطا قرب المرسى بعد أن نقلت حمولته
الى السوق . ولم يكن فيه أحد ، فقد رتب وكيلنا حفلا دعى اليه
الجميع . وبعد الفسق حمل القارب بالنفايات وأرسل مع التيار
فغرق فى وسط النهر .
وفهم ميرجان الأمر كله فجاءنى باكيا مسترحما . وبدأ يقول :
لقد كنت مخطئا ياسيدى ..
فسألته ساخرا : وما يجعلك تدرك ذلك فجأة ؟
فلم يجب جوابا صريحا . قال : لقد كان القارب يساوى ألفى
روبية . اننى أعرف خطئى الآن ، واذا سومت هذه المرة فلن ..
وارتمى على قدمى .
فسألته أن يعود بعد عشرة أيام . لو أننا استطعنا أن ندفع له
هذين الالفين فورا لاشتريناه جسما وروحا ، فمثل هذا الرجل
يستطيع أن يقدم الينا خدمة جليلة اذا كسبناه . لن نستطيع أن
نتقدم ان لم نضع أيدينا على مال كثير .
ما كادت يمالا تدخل حجرة الجلوس فى ذلك المساء حتى قلت
وأنا أنهض لاستقبالها : ياملكتى ! كل شيء معد . والنجاح قريب
ولكننا يجب أن نحصل على مال .
- مال ! كم من المال ؟
- ليس بالشئ الكثير . ولكننا يجب أن نحصل عليه من أى
سبيل !
- ولكن كم ؟
- خمسون ألف روبية تكفى فى الوقت الحاضر .
شجبت يمالا فى باطنها حين سمعت الرقم ، ولكنها حاولت ألا
تظهر ذلك . كيف تسلم بالهزيمة مرة ثانية .

قلت : يا ملكتى ! أنت التى تقدرين أن تجعلى المستحيل ممكنا .
بل أنك قد فعلت هذا قبل الآن . ليتنى أستطيع أن أظهرك على
مدى ما حققته كى تعلمى ذلك . ولكن ليس هذا وقته . اننا
الآن نريد النقود !

فقلت : ستنالها .

وخمنت أنها فكرت فى بيع جواهرها . فقلت : جواهرك يجب أن
تبقى مصونة . اننا لا ندرى متى نحتاج إليها .
وحملت بيמالا نحوى صامته . فأردفت : هذه النقود يجب أن
تأتى من خزانة زوجك .

فزادت بيמالا اجفالا . وبعد صمت طويل قالت : ولكن كيف
أحصل على هذه النقود ؟
— أليس ماله مالك ؟

قالت وقد مست كبرياؤها الجريئة من جديد : لا !
فصحت : ان لم يكن مالك فليس بماله أيضا : انما هو مال
بلادته الذى حرّمها منه فى وقت حاجتها !
فرددت : ولكن كيف أحصل عليه ؟

— ستحصلين عليه ، ويجب أن تفعلى . أنت أدرى بالسبيل .
يجب أن تحصلى عليه لتلك التى هى مالكتها الحقّة . باندى ماترم !
هاتان هما الكلمتان السحريتان اللتان ستفتحان باب خزانته
الحديدية وتخرقان جدران حجرته المحصنة ؟ وتنزلان الرعب فى
قلوب من لا يؤمن بهذا النداء . قولى يا ملكة : باندى ماترم !
— باندى ماترم !

الفصل السابع

حكاية سنديب

- ٨ -

نحن رجال ، نحن ملوك فيجب أن نأخذ الجزية . منذ جئنا الى الارض ونحن نسلبها ، وكلما أمعنا في الطلب أمعنت في الوضوح . منذ أقدم العصور كنا نحن الرجال نقطف الثمار ونقطع الاشجار ونقلب الارض ونقتل الوحش والطيـر والسـمك . انتزاع ثم انتزاع - من قاع البحر ، من أعماق الارض ، من بين أنياب الموت نفسه . لم يحترم صندوق مغلق في خزانة الطبيعة ولا ترك غير منهوب . والمسرة الوحيدة لهذه الارض هي أن تفي بما يطلبه الرجال . لقد أخصبت وجملت وكملت خلال تضحياتها التي لا تنتهي من أجلهم ، ولولا ذلك لضاعت في القفار ولم تعرف نفسها : أبواب قلبها مغلقة ، وماساتها وآلائها لا ترى النور .

وكذلك فتحنا نحن الرجال كل مكنونات النساء بقوة مطالبنا وحدها . وفي استسلامهن لنا كسبن دائما عظمتهن الحققة ، ولأنهن ألزمن أن يجالبن كل ماسات سعادتهن وآلىء حزنهن الى خزانتنا الماسكية وجدن ثروتهم الحققة . فأن يتقبل الرجال هو حقا أن يعطوا ، وأن تعطى النساء هو حقا أن يكسبن .

على أن مطلبى من بيـمـالا لهو مطلب كبير ! وقد شعرت بشيء من التخرج أول الأمر ، أليس من عادة عقل الرجل أن يكون في صراع غير مجد مع نفسه ؟ خلت انى كلفتها أمرا عسيرا . وكان أول ما هممت به أن أناديها لترجع وأخبرها اننى أفضل ألا أشقى حياتها بجرها الى كل هذه المتاعب ، ونسيت في تلك اللحظة أن رسالة الرجل هي أن يعتدى ، أن يجعل وجود المرأة مثمرا باثارة القلق في

أعماق سجيتها ، أن يبارك الحياة كلها اذ يمخض هاوية الألم
السحيقة ! لهذا كانت يدا الرجل قويتين وقبضته صلبة .

لقد كانت بيমা لا تتوق من كل قلبها أن أطلب منها - أنا
سنديب - تضحية عظيمة ، أن أدعوها لاحتفها . كيف تسعد بغير
ذلك ؟ وهل انتظرت كل هذه السنوات المملة الا أن تسنح لها فرصة
نتبكي حتى يشتفى قلبها ، وهى التى أضجرتها رتابة سعادتها
الهائلة ؟ لهذا لم تكن ترانى حين أظلم أفق قلبها بسحاب ماطر من
أيام عذابها المقبل . فلاى غرض اذن ولدت رجلا ان أنا أشفت
عليها وأنقذتها من أحزانها ؟

ان السبب الحقيقى لتحرجى هو أن مطلبى اتفق أن كان مالا ،
وفى ذلك معنى الشحاذة ، فان المال للرجل لا للمرأة . ولهذا
اضطرت أن أرفع الرقم ، فألف أو ألفان يبدوان سرقة حقيرة ،
أما خمسون ألفا منها فلها كل اتساع القرصنة الرومانسية .

آه ، لكن الاموال كان ينبغى حقا أن تكون لى ! كم رغبة لى
توقفت مرة بعد مرة وهى فى سبيل التحقيق لا لشيء الا حاجتى
الى المال ! ان هذا لا يليق بى . ولو كان القدر ظالما فحسب
لسامحته ، ولكن فساد ذوقه شيء لا يغتفر . ليس عناء فحسب
أن يحار رجل مثلى فى دفع أجرة منزله ، أو يضطر الى عد نقوده
لشراء تذكرة قطار فى الدرجة الثانية - ان هذا فظيع !

وواضح كذلك ان الضياع التى ورثها نيكهيل ليست بذات فائدة
له . فلو كان فقيرا لناسبه ذلك ، ولشد مستبشرا أرسان عربية
السوقية الفقيرة هو وأستاذه المبجل .

أتمنى أن تتاح لى مرة واحدة فرصة اللقاء بخمسين ألف روبية
فى خدمة بلادى وارضاء نفسى . لقد ولدت « نوابا » وانه لحلم من
أحلامى الكبيرة أن أطرح رداء الفقر هذا ولو يوما واحدا وأرى
نفسى على حقيقتها .

على انى أشك كثيرا فى أن تصل يد بيমা الى تلك الروبيات
الخمسين ألفا . لعلنا لا نحصل الا على ألف أو ألفين . ان الرجل
العاقل يقنع بنصف رغيف ، بل بكسرة ، فذلك خير من ألا يجد
خبزا .

يجب أن أعود الى هذه التأملات الشخصية فيما بعد . لقد جاء
الخبر أنى مطلوب حالا . هناك عشرة ما ..
يبدو أن الشرطة قد استدلت على الرجل الذى أغرق لنا قارب

ميرجان . انه مجرم عائد ، وهم يتعقبونه الآن ، ولكن خبرته ينبغي أن تمنعه من اذاعة الاسرار . ومع ذلك فمن يدري ؟ ان نيكهيل ثائر ، وقد لا يستطيع وكيله أن يدبر الأمور كما يريد . قال الوكيل حين رأته : اذا وقعت ياسيدى فساؤطر الى جرك معى !

فسألته : وما الحبل الذى يمكنك أن تشدنى به ؟
— لدى رسالة منك وعدة رسائل من أموليا بابو .
لم ألاحظ أن الرسالة التى كانت عليها كلمة « عاجل » والتى سارعت بكتابة ردها كان يقصد بها هذا الغرض وحده على وجه الاستعجال ! لقد بدأت أتعلم أشياء كثيرة .

والنقطة الآن هى أنه يجب رشوة الشرطة واسكات ميرجان باعطائه مبلغا من المال عوضا عن قاربه . وكذلك يظهر أن الجانب الأكبر من ثمن مغامرتنا الوطنية هذه سيتخذ سبيله ربعا الى جيوب وكيل نيكهيل . ولكننى يجب أن أغمض عيني عن ذلك فى الوقت الحاضر . ألا يهتف « باندى ماترم » بمثل حماستى ؟

ان مثل هذا العمل لابد أن يسير بآنية مخروقة يتسرب منها أكثر مما تاتى به . وفيينا جميعا قدر من الحكم الاخلاقى مخبوء ومدخر فى باطننا ، ولهذا كدت أسخط على الوكيل وأدخل فى يومياتى خطبة وعظية فى أن مواطنينا غير جديرين بالثقة . ولكن يجب أن أقر بالشكر لله أن أعطانى عقلا واضح البصيرة لا يسمح بشيء من الغموض فى داخله أو خارجه . اننى قد أخدع غيرى ولكنى لا أخدع نفسى أبدا . ولهذا لم أستطع أن أستمر فى غضبى .

كل ماكان حقيقيا فليس بخير ولا شر ، انما هو حقيقى فحسب ، وذلك هو العلم . ليست البحيرة الا بقية من الماء لم تشربها الارض ، وتحت عقيدة « باندى ماترم » — وفى قرار كل عمل فى هذه الدنيا — هناك منطقة من الوحل يجب أن نحسب حساب قدرتها على الامتصاص . سينال الوكيل مطالبه ، وأنا أيضا لى مطالبى ، وهذه المطالب الاقل هى جزء من مطالب القضية الكبيرة ، فالحصان يجب أن يطعم والعجلات يجب أن تشحم اذا أريد المزيد من التقدم .

وأول الأمر وآخره اننا يجب أن نحصل على النقود سريعا ، ويجب أن نأخذ ما يصل الى أيدينا أولا لأننا لا نملك أن ننتظر .

وانى لأعلم ان العاجلة قد تذهب بالآجلة ، وان خمسة آلاف روبية اليوم قد تضيع علينا خمسين ألفا غدا ، ولكنى يجب ان أقبل هذا الفرم . الم آخذ على نيكهيل ان الذين يسرون فى طريق الحكمة ناظرين الى المستقبل لم يعرفوا قط ما التضحية ؟ اننا نحن الطامعين الذين يجب ان نضحى بطمعنا فى كل خطوة ! من كبائر الانسان الرغبة ، هذه كبيرة الرجال الذين هم رجال . أما الضلال فانه للجبناء وحدهم ، وهو للرجال معطل . لأن الضلال يبقينهم مغلفين فى الماضى والمستقبل ، ولكنه هو الشيطان الذى يربك خطاهم فى الحاضر . ان أولئك الذين ينصتون دائما لنداء البعيد مهملين نداء القريب مثلهم كمثلى ساكونتالا (١) التى تستغرقها ذكريات حبيبها ، ويأتى الضيف ولا يؤبه له ، وتنزل اللعنة لتحرمهم مما يرغبون فيه .

منذ أيام ضغطت على يد ويمالا . لا تزال هذه اللمسة تهز نفسها كما تتموج فى نفسى . ويجب ألا يميت هزتها التكرار ، فينزل ما هو الآن موسيقى الى محض جدال . ليس فى عقلها الآن محل للسؤال « لماذا ؟ » وبيمالا هى احدى تلك المخلوقات التى لا تستغنى عن الوهم ، فيجب ألا أحرما كفايتها منه . أما أنا فعلمى كثير حتى انى يجب ان أقنع فى الوقت الحاضر بحباب كأس العاطفة . ايه يا ابن الرغبة ! اكبح طمعك ، ودرب يدك على مزهر الوهم حتى تبعث كل لطائف الايماء ، فليس هذا وقت اشتفاف الكأس الى الشمالة .

- ٩ -

عملنا يتقدم بخطا سريعة . ولكننا وان بححنا أصواتنا معلنين ان المسلمين اخوة لنا فقد بدأنا ندرك أننا لن نستطيع أبدا أن نحولهم الى صفنا تماما . فيجب اذن كبحهم كبحا تاما وافهامهم أننا نحن السادة . انهم الآن يكثرون عن نواجزهم ولكن سيأتى اليوم الذى يرقصون فيه كالذبابة الاليفة على الانغام التى نعزفها نحن .

لقد اعترض نيكهيل قائلا : اذا كانت فكرة وحدة الهند فكرة حقيقية فالمسلمون جزء ضرورى منها .

(١) بعد أن عاد الملك حبيب ساكونتالا الى مملكته ، على وعد أن يبعث فى طلبها ، استغرقها التفكير فيه حتى انها لم تسمع نداء ضيفها الناسك ، فلعننا قائلا بأن من تحبه سينساها نسيانا . (المترجم) .

قلت : أجل . ولكننا يجب أن نعرف مكانهم ونلزمهم اياه ،
والا فسوف يشيرون المتاعب دائما .
- اذن فأنت تريد أن تثير المتاعب لتمنع المتاعب ؟
- وما خطتك اذن ؟
فقال نيكهيل ملمحا : ليس هناك الا طريق واحد معروف لتجنب

النزاع .
انى أعلم أن حديث نيكهيل ينتهى دائما بحكمة ، كالحكايات التى
يكتبها الناس الطيبون . وأعجب ما فى الأمر انه لايزال يؤمن
بالمبادئ الخلقية مع علمه التام بها . فهو لا يمكن أن يخرج أبدا
عن حدود التلميذ ، وفضيلته الوحيدة هى اخلاصه . ومصيبة
أمثاله هى أنهم لا يريدون الاعتراف بأن ثمة نهاية حتى فى الموت
نفسه ، بل يبقون عيونهم مشدودة أبدا الى الآخرة .

وقد كنت أفكر منذ زمن بعيد فى خطة لو استطعت تنفيذها
لأرسلت فى البلاد كلها ضراما . فالوطنية الحققة لا يمكن أن تبعث
فى أبناء بلادنا الا اذا استطاعوا أن يتمثلوا صورة الوطن . يجب أن
نتخذ من الوطن معبودا .

وقد أدرك زملائى على الفور ما أعنيه فصاحوا : « فلنتخيل
صورة مناسبة ! » فوعظتهم : « لن يصلح الأمر اذا تخيلتموها .
يجب أن نأخذ صورة من الصور الشائعة التى تعد ممثلة للوطن ،
فتتجه عبادة الشعب نحوها فائضة فى مجارى العادة العميقة » .
ولكن نيكهيل يأبى الا أن يجادل حتى فى هذا . قال لى منذ

مدة : يجب ألا نستعين بالاوهام على ما نؤمن أنه الحق .
قلت : الاوهام لازمة للعقول المحدودة ، وهذه هى الطبقة التى
ينتمى اليها القسم الاكبر من العالم . لهذا تقام الآلهة فى كل بلد
حتى تحافظ على أوهام الشعب ، فان الناس يشعرون أنهم
الشعور بضعفهم .

فأجاب : كلا . بل اننا محتاجون الى الله ليبدد أوهامنا . أما
المعبودات التى تستبقى الحياة لأوهامنا فانها آلهة باطلة .
- وأى ضرر فى ذلك ، ان لم يكن بد فلندع الآلهة الباطلة نفسها
ولا ندع عملنا يفشل . من سوء حظنا أن فى أوهامنا قدرا كافيا
من الحياة ولكننا لا نعرف كيف نستغلها . انظر الى البراهمة .
اننا نعاملهم كأنهم انصاف آلهة ولا ننفك نمسح التراب عن أقدامهم
ولكنهم قوة توشك أن تضيع .

ستبقى أبدا طبقة كبيرة من الناس دأبهم التذلل ، لايمكنك أن تدفعهم الى عمل شيء أبدا الا اذا تلوثوا بتراب قدمي شخص ما ، سواء اكان على رءوسهم أم على ظهورهم ! فأى خسارة بعد أن احتفظنا بالبراهمة في مخزن أسلحتنا طوال هذه العصور - مشحوزين صالحين للخدمة - ألا تستطيع الاستفادة منهم لتحريك هذه الفوغاء في وقت حاجتنا !

ولكن اقناع نيكهيل بهذا كله أمر محال . فان في نيكهيل تعصبا للحق - كأنما يمكن أن يوجد واقع موضوعي كهذا ! وكم من مرة حاولت أن أشرح له أنه حيث يوجد الباطل وجودا حقيقيا فانه يكون هو الحق . لقد كان هذا مفهوما في بلادنا في الازمان الماضية، ومن ثم وجدوا الشجاعة ليعلموا أن الباطل هو الحق لضعاف الافهام . فالذين يمكنهم أن يؤمنوا حقا بأن بلادهم الهة معبودة أولئك تقوم صورتها عندهم مقام الحقيقة . ان طبيعتنا وتقاليدينا تجعلنا عاجزين عن ادراك بلادنا كما هي ، ولكننا نستطيع أن نصل في سهولة الى الايمان بصورتها وعلى الذين يريدون أن يعملوا عملا صحيحا ألا يتجاهلوا الحقيقة .

غير أن نيكهيل ثار . وصاح : لأنك فقدت القدرة على السير في طريق التماس الحق فأنت لا تزال تترقب معجزة ، هبة تهبط عليك من السماء . لهذا فان كل ما تستطيع أن تفكر فيه حين تأخرت في خدمة بلادك قرونا هو أن تتخذ منها صنما وتمد يديك منتظرا منه الهبات .

قلت : اننا نريد أن نصنع المستحيل ، ولهذا يجب أن نتخذ بلادنا الها .

فأجاب نيكهيل : تعنى أنك مشفق من الاعمال الممكنة . ما هو قائم فعلا فليترك ولا يمس ، لكن يجب أن تكون ثمة نتيجة خارقة للطبيعة .

قلت أخيرا وقد استبد بي الغضب : اسمع يا نيكهيل . ان ما تقوله قد يصلح دروسا أخلاقية ، هذه الافكار قد استنفدت أغراضها في مرحلة من تطور الانسان ، كاللبن للرضع ولكنها لا تصلح الآن وقد نبتت للانسان أسنان .

ألسنا نرى أمام أعيننا كيف تنبثق في كل جانب أشياء لم نحلم قط بأن نلقى بذورها ؟ فبأى قوة ظهرت ؟ بقوة ألوهية بلدنا التي أخذت تتجلى . وعلى عبقرى هذا العصر أن يمنح الألوهية صورتها ،

والعبقرية لا تجادل بل تخلق . ما أنا الا معط الشكل لما تتخيله البلاد .

سأذيع على الملأ أن الالهة اصطفتنى بحلم . سأقول للبراهمة أنهم اختيروا كهنة لها ، وان سبب سقطتهم هو اهمالهم الواجب في رعى عبادتها . أتقول انى أتفوه اذن بأكاذيب ؟ ولكنى أقول لا ، انها الحقيقة ، بل أكثر من ذلك ، انها الحقيقة التى طالما انتظرت البلاد أن تعلمها من شفتى . لئن تمكنت من ابلاغ رسالتى لترين العجب من فعلها .

قال نيكهيل : الذى أخشاه هو أن عمرى محدود ، وأن الفعل الذى تتحدث عنه ليس بالفعل الاخير ، فسوف تكون له آثار لا تظهر فى الحال . قلت : انما أبحث عن الفعل الذى ينتمى الى اليوم . فأجاب نيكهيل : أما الفعل الذى أبحث عنه فينتمى الى الزمن كله .

لعل نيكهيل نال قسطه من موهبة البنغال العظمى . أعنى الخيال، ولكنه سمح لنوع من التخرج أجنبى عنه أن يحجبه حتى كاد يقتله . انظر الى عبادة « درجا » التى رفعتها البنغال الى تلك المنزلة العليا . اننى أستطيع أن أقسم على أن درجا الهة سياسية تصورت فيها روح البطولة أيام كانت البنغال تتضرع للخلاص من سلطان المسلمين . فأى اقليم آخر فى الهند استطاع أن يعبر عن المثل الاعلى الذى ينشده كروعة هذا التعبير المنظور .

لم يكشف عن فقد نيكهيل لنعمة الخيال المقدسة مثل رده على اذ قال : لقد طلب المراثا والسيخ الثمار من الاسلحة التى حملوها هم أنفسهم ، أما البنغالى فانه اكتفى بوضع الاسلحة فى يدي الهته والتمتمة بالأدعية لها . ولأن بلاده لم تكن الهة حقاً فقد كانت الثمرة الوحيدة التى حصل عليها هى الرعوس المقطوعة ، رعوس الماعز والجاموس المضحى بها . أما يوم أن نطلب خير بلادنا من الطريق المستقيم فسيمنحنا الثمار الحققة من هو أكبر من بلادنا .

الشيء المؤسف هو أن كلمات نيكهيل تبدو جميلة حين توضع على الورق ولكن كلماتى لا يراد بها أن تخط على الورق بل أن ترسم فى قلب البلاد . ان البانديت يسجل « مقالته عن الزراعة » بحبر المطبعة ، ولكن الزارع بسن محراثه يطبع مجهوده عميقا فى الارض .

عندما رأيت بيمالا في المرة التالية لم أحجم عن رفع النعمة الى طبقة عالية . فبدأت بقولى : هل استطعنا أن نؤمن من كل قلوبنا بالاله الذى ولدنا كل هذه الملايين من السنين لنعبده ، حتى تجلى لنا آخر الأمر ؟

ومضيت قائلاً : طالما قلت لك اننى لو لم أرك لما استطعت أبدا أن أعرف بلادى كلها على أنها « واحد » . لست أدري بعد ان كنت تفهمين ما أعنيه . ان الآلهة تكون غير مرئية في سمائها فقط - أما على الارض فانها تظهر نفسها للبشر .

فنظرت بيمالا الى نظرة غريبة وهى تجيب بوقار : بل اننى أفهمك ياسنديب . وكانت هذه هى أول مرة تنادينى فيها « سنديب » مجردا .

ومضيت أقول : ان كريشنا الذى لم يكن أرجونا يعرفه عادة الا على أنه سائق عربية ، كانت له أيضا صورته الكونية ، وقد رأى أرجونا هذه الصورة أيضا ذات يوم . وفي ذلك اليوم رأى الحق . لقد رأيت صورتك الكونية في بلادى . ان الكنج والبراهما هما سلاسل الذهب التى تلتف وتلتف حول عنقك ، وفي الغابات التى تحف بالشواطىء البعيدة لمياه النهر الداكنة رأيت أهدابك المكحلة ، وبريق ساريك القلاب يلمع أمامى في لعب النور والظل على أعواد القمح الاخضر المتمايلة ، وحرارة الصيف المتقدة التى تجعل السماء كلها ترقد لاهثة كأسد أحمر اللسان في الصحراء ما هى الا ضياؤك القاسى .

واذا أنعمت الآلهة على عبدها بتجليها في هذا المظهر الرائع فعلى أن أعلن عبادتها في طول البلاد وعرضها ، وعند ذلك سوف تكون للبلاد حياة جديدة . « في معبد بعد معبد نصنع صورتك » (١) ولكن شعبنا لم يدرك ذلك بعد حق الإدراك . لهذا أريد أن أدعوهم باسمك وأقدم لعبادتهم صورة لا يستطيع أحد أن يظن عليها باعتقاده . امنحني تلك النعمة وذلك السلطان .

مالت أهداب بيمالا الى أسفل وتصلبت في كرسيها كتمثال من الحجر . فلو مضيت في كلامى لأصابتها غيبوبة . وعندما سكنت فتحت عينيها واسعتين وتمتمت وهى شاخصة ببصرها كأنها غائبة

(١) بيت من النشيد الوطنى « باندى ماترم » لبانكيم تشاترجى .

عن الوعي « أيها المسافر في طريق الهلاك ! منذ الذي يستطيع صدك ؟ ألسنت أرى أن أحدا لن يقف في سبيل رغباتك ؟ سيضع الملوك تيجانهم عند قدميك ، ويسارع الأغنياء بفتح خزانهم لمرضاتك ، والذين لا يملكون غير حياتهم سيضرعون أن يؤذن لهم بتقديمها . يا ملكي ، يا الهى ! أنا لا أدري ماذا رأيت في ، ولكنى رأيت جلال عظمتك في قلبى . من أنا أو ما أنا فى محضرها ؟ يا القوة التدمير الرهيبة ! اننى لن أعرف الحياة الحقيقية أبدا حتى تقتلنى وتمحقنى ! اننى لم أعد أستطيع احتمالها . قلبى ينشق . وانزلت بيমালা عن كرسيها وترامت عند قدمى . وعانقتهما وراحت تبكى وتبكى وتبكى .

هذه هى المغناطيسية حقا ، السحر الذى يمكنه أن يخضع العالم ! لا مادة ولا أسلحة بل ضلال الايحاء الذى لا يقاوم . منذ الذي يقول : « ان الحق سينتصر ؟ » (١) الضلال هو الظافر فى النهاية . لقد فهم البنغالى ذلك حين تخيل صورة الالهة ذات الرعوس العشرة ممتطية صهوة أسدها ، ونشر عبادتها فى البلاد . يجب أن تخلق البنغال الآن صورة جديدة لتسحر العالم وتفزوه . باندى ماترم !

رفعت بيমালা برفق الى مقعدها ، ولكيلا يظهر رد الفعل رحت أقول دون أن أضيع وقتا : يامليكتى ! لقد كلفتنى الأم المقدسة أن أؤسس عبادتها فى البلاد ، ولكنى - ويا للأسف فقير . وكانت بيমালা لا تزال متضرجة الوجه ، غائمة العينين غليظة النبرات ، حين أجابت : أنت فقير ! أليس كل ما يمتلكه كل واحد هو لك ؟ لماذا تمتلىء صناديقى بالحلى ؟ خذ منى كل ذهبى وجواهرى لعبادتك . فليس لها فائدة عندى !

لقد عرضت بيমালা على حليها من قبل ، ومع انى لم أعود وضع الحدود فقد وجدت من الضروري أن أضع حدا فاصلا هنا (٢) وانى لأعلم لماذا أشعر بهذا التردد ، فالرجل هو الذى يجب أن يقدم

(١) اقتباس من الاوبانيشاد .

(٢) هناك عالم من العواطف يرتبط بالحلى التى تلبسها المرأة فى البنغال . فهى لا تشير الى حب المعطى واحترامه فحسب ، بل ان لبسها يرمز لكل معنى عزيز فى الزوجية : لعناية الزوجة الدائمة بخبر زوجها ، لقيامها بواجبات المنزل المادية والروحية الموكولة الى رعايتها . وعندما يموت الزوج وتنتقل المسئولية عن المنزل الى امرأة أخرى تهجر الحلى كلها علامة على ابتعاد الارملة عن مشاغل الدنيا . والتخلي عن الحلى فى غير هذه الحالة هو دائما علامة شقاء بالغ . ولذا يثير شهامة أى بنغالى يتفق أن يراه . (المترجم)

كلمة واحدة من هذا تتفق قافيتها مع أغنية رادىكا ! لهذا أقول :
ان الوهم وحده هو الواقع - انه النأى نفسه ، أما الحقيقة
فليست الا جوفه الفارغ . لقد بدأ نيكهيل أخيرا يشعر بهذا الفراغ
المطلق - انه ظاهر فى وجهه وهذا شئ مؤلم ، حتى لى أنا . ولكن
نيكهيل كان يفخر بأنه يطلب الحقيقة ، بينما كان فخرى بأنى لن
أدع الوهم يفلت من قبضتى أبدا . وكل نال مايهواه ، فلم الشكوى ؟
ولكى أستبقى قلب بيমাلا فى هواء المثالية المنقى قطعت كل حديث
آخر فى الخمسة آلاف روبية . وعدت الى الالهة ماحقة الشياطين
وما ينبغى لها من العبادة . متى يقام الحفل وأين ؟ ان سوقا
سنوية كبيرة تعقد فى « رويمارى » داخل امارة نيكهيل ، ويجتمع
فيها مئات الالوف من الحجاج . سيكون هذا مكانا رائعا لادخال
عبادة الهتنا !

واشتعلت حماسة بيমাلا . لم يكن هذا احراقا للأقمشة الاجنبية
أو لبيادر الناس فلن يكون لنيكهيل نفسه اعتراض ما . هكذا
فكرت ، ولكنى ابتسمت بينى وبين نفسى . ما أقل ما يعرف هذان
الشخصان عن أحدهما الآخر ، هذان الشخصان اللذان عاشا معا
ليل نهار ، تسع سنوات كاملة ! لعلهما يعرفان شيئا عن حياتهما
البيتية ، ولكنهما اذا جاءا الى المشاغل الخارجية ضللا ضلالا
مبينا . لقد كانا مطمئنين الى الاعتقاد بتمام الانسجام بين البيت
والخارج ، وهما اليوم يعلمان - لخسارتهم - ان الوقت قد فات
بحيث لا استطاع اصلاح اهمال السنين ، وايجاد الانسجام بينهما
الآن .

وما قيمة ذلك؟ فليعرف المخطئون خطأهم حين يصطدمون بالعالم .
ماذا يعنينى أنا من ارتباكهم ؟ اننى الآن أجد من الممل ترك بيমাلا
تحلق طويلا « كنفخة » أسيرة فى أجواء أثيرية . الافضل أن أفرغ
تماما من الأمر الذى فى يدي .

حين نهضت بيমাلا منصرفة وكادت تبلغ الباب قلت أشد ما أكون
عدم اكتراث : اذن فالنقود ..

فتوقفت بيমাلا وواجهتنى مرتدة وهى تقول : عند نهاية الشهر ،
حين تستحق رواتبنا ..

- أخشى أن يكون الوقت قد فات .

- متى تريدها اذن ؟

- غدا .

- غدا تأخذها .

الفصل الثامن

حكاية نيكهيل

- ١٠ -

بدأت الصحف المحلية تنشر فقرات ورسائل ضدى ، وقد سمعت أن الصور الكاريكاتورية والمقطوعات الهجائية آتية على الاثر . والنكات والفكاهات تتناثر هنا وهناك ، والبلاد كلها تائرة للأكاذيب التى تنشر على هذا النحو : هم يعلمون أن لديهم احتكار القذف بالوحل ، ولا يمكن أن ينجو العابر البرىء دون أن يلوث .

هم يقولون أن سكان امارتى بقضهم وقضـيـضهم مؤيدون « للسواديشى » ، ولكنهم لايجرؤون على الظهور خوفا منى ، والقليلون الذين وجدوا الشجاعة الكافية ليتحدونى قد شعروا بوطأة اضطهادى . وثمة اتفاق سرى بينى وبين الشرطة ، واتصال شخصى بينى وبين قاضى التحقيق . ويعتقد أن جهودى الجنونية لاضافة لقب اجنبى من كسبى الى اللقب الذى ورثته لن تذهب سدى .

ولكن الصحف مملوءة بالمديح لأولئك الأبناء البررة للوطن ، ملاك الاراضى من آل « كوندو » و « تشاكرافارتى » ولو كان فى البلاد - كما يقولون - عدد قليل آخر من مثل هؤلاء الوطنيين المخلصين لندبت مصانع منشستر نفسها على نغمة « باندى ماترم » . ثم تأتى رسالة بالحبر الاحمر الدموى تسرد أسماء ملاك الاراضى الخونة الذين أحرقت خزائنهم لأنهم امتنعوا عن تأييد القضية . وتمضى الرسالة لتقول : ان النار المقدسة قد بعثت لتؤدى وظيفتها السامية فى تطهير البلاد ، وان ثمة هيئات أخرى تعمل أيضا لمنع أولئك الذين ليسوا بأبناء أوفياء للوطن من الاثقال على حجره .

والتوقيع ظاهر انه اسم مستعار .
ولم يخف على أن هذا من فعل طلاب الاقاليم . فبعثت الى بعضهم وأريتهم الرسالة .

فأنبأني طالب البكالوريوس عابسا أنهم قد سمعوا أيضا بأن عصبة من الوطنيين المستقلين قد تكونت وأنهم لن يحجموا عن شيء في سبيل ازالة كل العقبات التي تعترض نجاح « السواديشي » . قلت : لو خضع واحد من مواطنينا لهؤلاء المغامرین الادعياء لتكونن هذه هزيمة للبلاد !

فقال طالب التاريخ : اننا لا نفهم ماذا تعنى يامهراجا . فحاولت أن أشرح : لقد أشرفت بلادنا على الموت بسبب الخوف وحده - من خوف الآلهة الى خوف الشرطة . واذا أسستم باسم الحرية خوف غول جديد مهما يكن اسمه ، واذا أردتم أن ترفعوا علمكم الظافر على جبين البلاد بوسيلة القهر الصريح ، فلن يستطيع محب صادق للوطن أن يخضع لقراركم .

فاستمر طالب التاريخ يقول : هل ثم بلد من البلاد ياسيدى يكون فيه الخضوع للحكومة غير ناشئ عن الخوف ؟

فأجبت : ان الحرية التي توجد في بلد ما يمكن أن تقاس بمدى سلطان الخوف هذا . فحيث يكون تهديده مقصورا على أولئك الذين يميلون الى الأضرار أو السلب تستطيع الحكومة أن تدعى أنها حررت الانسان من عدوان الانسان . ولكن اذا كان الخوف هو الذى يقرر ماذا يلبس الناس أو أين يتاجرون أو ماذا يأكلون فهنا تكون حرية ارادة الانسان غير معترف بها على الإطلاق ، ومعنى الانسانية قد أتلف من الجذور .

وعاد طالب التاريخ يقول : ألسنا نرى مثل هذا القهر للارادة الفردية في البلاد الاخرى أيضا ؟ فقلت : ومن ينكر ذلك ؟ ولكن الانسان في كل بلد قد أهلك نفسه بقدر سماحه للعبودية أن تزدهر .

وتدخل ماجستير في الآداب قائلا : أليس هذا ادعى الى اثبات ان النخاسة فطرة في الانسان - حقيقة أساسية في طبيعته ؟

وقال أحد الخريجين : لقد أوضح سنديب بابو الأمر كله . فضرب لنا مثلا بهاريش كوندو ، المالك المجاور لكم . انك لاتستطيع أن تخرج أوقية واحدة من الملح الاجنبى من ولايته . لماذا ؟ لانه ظل يحكم دائما بيد من حديد . ان أكبر المصائب لمن هم بطبعهم

عبيد هي ألا يكون لهم سيد قوى .

وجاراه في نغمته طالب لم يتخرج بعد : ألم تسمع ياسيدى بذلك المؤاجر المزعج عند تشاكرا فارتى ، المالك الآخر الغريب - كيف سلط عليه القانون حتى انتهى الى الفقر المدقع ؟ ولما لم يجد ما يأكله آخر الأمر لجأ الى بيع حلى زوجته الفضية ، ولكن أحدا لم يجرؤ على شرائها . ثم عرض عليه وكيل تشاكرا فارتى خمس روبيات في الجميع ، وكانت تساوى ثلاثين ، ولكنه كان مضطرا أن يقبل أو يموت جوعا . وبعد أن أخذ الوكيل منه الصرة قال له ببرود ان هذه الروبيات الخمس ستخصم من ايجاره ! وقد هممنا أن نقطع كل صلاتنا بتشاكرا فارتى ووكيله بعد هذا ، ولكن سنديب بابو قال لنا اننا لو أقصينا كل الاحياء فلن نجد الا جثا من المحارق لنواصل العمل معها !

وأوضح لنا أن هؤلاء الرجال الاحياء يعرفون ماذا يريدون وكيف يحصلون عليه ، فقد ولدوا سادة . أما أولئك الذين لا يعرفون كيف تكون لهم رغائبهم فانهم يجب أن يعيشوا وفقا لرغبات أمثال هؤلاء أو يموتوا من أجلها . وقارن سنديب بابو بينهما - كوندو وتشاكرا فارتى - وبينكم يامهراجا . وقال انكم على نبل مقاصدكم لن تنجحوا في غرس « السواديشى » في ولايتكم .

قلت : ان رغبتى هي أن أغرس شيئا أعظم من « السواديشى » . اننى لا أريد أخشابا ميتة بل أشجارا حية ، وهذه تحتاج الى وقت لتنمو .

فقال طالب التاريخ مستهزئا : أخشى ياسيدى ألا تحصل على خشبة ولا شجرة . ان سنديب بابو يعلمنا - وتعليمه الحق - أن من أراد الحصول على شيء فعليه أن ينتزعه . وكلنا نحتاج الى وقت لتعلم هذا ، فهو مناقض لما لقناه في المدرسة . لقد رأيت بعينى أن جابيا من جباة هاريش كوندو حين لم يجد عند مؤاجر شيئا يباع ليفى بالايجارة عمد الى بيع زوجته الشابة ! ولم يعوزه المشترون ، ونال المالك ما طلب . الحق أقول لك ياسيدى : ان منظر مصيبة هذا الرجل قد منع منى النوم ليلالى ! ولكننى على الرغم من تأثرى أدركت أن من يعرف كيف يحصل على النقود التى يطلبها ولو ببيع زوجة مدينه هو رجل أفضل منى . وانى لأعترف أن ذلك فوق طاقتى ، فانى ضعيف ، تمتلىء عيناي بالدموع . لئن كان فى مقدور أحد أن ينقذ بلادنا ليكونن أمثال كوندو وتشاكرا

فارتى وموظفيهما هم منقذيهما !

لقد جزعت لما سمعته جزعا تقصر عنه الكلمات ، وصحت :
ان كان ما تقوله حقا فانى ارى جليا أن جهد حياتى يجب ألا
ينصرف لشيء غير انقاذ البلاد من أمثال كوندو وتشاكرا فارتى
وموظفيهما هؤلاء . ان العبودية التى نفذت الى عظامنا تنطق فى هذه
الفرصة استبدادا فظيعا . لقد تعودتم الخضوع للسلطة من طريق
الخوف حتى آمنتم ان اخضاع الآخرين دين . ليكونن صراعى ضد
هذا الضعف ، ضد هذه القسوة .

هذه الاشياء التى تبدو بسيطة للناس العاديين تلتوى فى عقول
أصحاب البكالوريوسات والماجستيرات عندنا ، وكأن الغرض الوحيد
من مناقشاتهم التاريخية هو ازهاق الحق .

- ١١ -

اننى حائر فى أمر زوجة عم بانشو المزيفة . فمن العسير اثبات
كذب ادعائها ، لأن الحادثة الحقيقية قد يكون شهودها قليلين أو
معدومين ، ولكن من الممكن دائما أن تحشد براهين لا تحصى على
شيء لم يحدث . وظاهر أن الغرض من هذه الخطوة هو جعل بيع
منزل بانشو الى كآن لم يكن .

ولما لم أجد مخرجا آخر فكرت أن أقطع بانشو مكانا فى أرضى
وأسمح له باقامة كوخ عليه . ولكن أستاذى أبى على ذلك ، وقال
اننى يجب ألا أنهزم أمام تلك الاساليب الوضيعة بهذه السهولة ،
وتطوع أن يتولى الأمر بنفسه . فصحت بدهشة شديدة : أنت
ياسيدى !

فأجاب : نعم أنا .

ولم أستطع أن ارى بشيء من الوضوح ماذا عسى أن يفعل
أستاذى ليفسد هذه الحيل القضائية . وفى ذلك المساء لم يظهر فى
الوقت الذى تعود أن يجيئنى فيه . وحين سألت عنه قال خادمه
انه غادر المنزل ومعه أشياء قليلة فى حقيبة صغيرة ، وفراش خفيف ،
قائلا : انه سيعود بعد أيام ، فحسبته خرج لبحث عن شهود
فى قرية عم بانشو . ولكننى كنت موقنا انه ان كان هذا مطلبه
فلن يظفر بطائل ..

فى أثناء النهار نسيت نفسى فى عملى . حين يكتهل نهار الخريف
تربدا ألوان السماء ، وكذلك مشاعر نفسى . كثيرون فى هذه الدنيا

تقيم نفوسهم في منازل مبنية بالآجر ، فهم يستطيعون أن يتجاهلوا ما يسمى بالخارج . ولكن نفسى تعيش في الخلاء تحت الأشجار ، وتستقبل الرسائل التى تحملها الرياح الطليقة دون وساطة ، وتستجيب من أعماق قلبها لكل ترانيم النور والظلام .

في اشراق النهار حين تتزاحم الدنيا سعيا وراء أعمالها التى لا تحصى ، يبدو لى أن حياتى لا تريد شيئا آخر . لكن حين تذوى ألوان السماء وتقل العرش على نوافذها يقول لى قلبى : ان المساء لا ينزل الا ليحجب الدنيا ، ليحدد الوقت الذى يجب أن يمتلئ فيه الظلام « بالواحد » . هذه هى الفاية التى تتأمر من أجها الارض والسماء والمياه ، ولست بقادر على أن أقسى احساسى بحيث لا أتقبل معناها . لذلك حين يعمق الفسق فوق الدنيا كرنوة عيون المحبوبة السود يقول لى وجودى كله ان العمل لا يمكن أن يكون هو وحده حقيقة الحياة ، وان العمل ليس كل ما فى الانسان ولا كل ما ينتهى اليه الانسان ، فالانسان ليس عبدا فحسب ، ولو كانت عبودية للحق والخير .

وا حسرتاه يا نيكهيل ! هل فارقت الى الابد ذاتك تلك التى كانت تنطلق تحت ضوء النجوم ، لتغوص فى أعماق ظلمة الليل اللانهائية بعد أن ينتهى النهار ؟ ما أشد وحشة الذى يفتقد الرفيق فى زحمة الحياة .

منذ أيام وقد بلغ الاصيل نقطة التقاء النهار بالليل لم يكن لى عمل ولا ميل اليه ، ولم يكن أستاذى معى ليؤنسنى . وبقلب خاو تائه يتوق الى أن يرسو على شىء ما قادتنى خطاى الى الحدائق الداخلية . وكنت مولعا بالأقاحى ، لدى صفوف منها على اختلاف أنواعها مرصوفة فى أصص بحذاء حائط من سور الحديقة ، وكانت حين تزهر تبدو كموجة من الخضرة تتكسر زبدا قزحيا . لقد مضى وقت لم أذهب فيه الى ذلك الجانب من الارض ، ومنيت نفسى بلقاء أقاحى بعد فراقنا الطويل .

و حين دخلت كان البدر قد أطل - ولما يكد - من فوق السور ، وأشعته المائلة تترك أسفل السور فى ظل عميق . وبدا كأنه جاء من الخلف على أطراف أصابعه ، ووضع كفيه على عيني الظلام وهو يتسم بخبث . ولما اقتربت من صفوف الأقاحى رأيت أمامها شبحا ممددا على العشب . ودق قلبى دقة عنيفة مفاجئة ، كما أن الشبح قعد مستوفزا لوقع خطاى .

كيف العمل بعد ذلك ؟ كنت أسأل نفسي : هل يحسن أن أسرع بالانسحاب ؟ وكذلك كانت بيمالا ولاشك تتلمس سبيلا للهروب .
ولكن الذهاب لم يكن أقل إحراجا من البقاء ! وقبل أن أعزم على أمر نهضت بيمالا وجذبت طرف ساريها على رأسها ومضت الى الحجرات الداخلية .

كانت هذه الوقفة القصيرة كافية لاشعاري بفداحة ما تحمله بيمالا من شقاء . فزال مني الرثاء لحياتي أنا في لحظة ، وناديت :
بيمالا !

فانتبهت وتوقفت ، ولكنها لم تلتفت . ودرت حتى واجهتها .
كان وجهها في الظل ، ونور القمر على وجهي ، وكانت عيناها منكستين ويدها مطبقتين .

قلت : بيمالا ! ما الذي يدعوني الى أن أسجنك في قفص هذا المفلق ؟ أأست أعلم ان هذا لن يكون الا سببا لذبولك وانكسارك ؟
فظلت ساكنة لا ترفع عينيها ولا تنطق بكلمة .

فمضت أقول : أنا أعلم اني لو صممت على ابقائك أسيرة فلن تكون حياتي كلها الا قيда من حديد . فأى مسرة لي في ذلك ؟
فلم تخرج عن صمتها . وأنهيت مقالتي : لهذا أقول لك حقا يا بيمالا : أنت حرة .

وعلى ذلك ذهبت الى الحجرات الخارجية .
لا ، لا . لم يكن أريحية مني ولا عدم اكتراث . ولكني كنت قد فهمت أخيرا اني لن أكون حرا حتى أعطى الحرية . فلو حاولت أن أبقى بيمالا عقدا حول عنقي لكان معنى ذلك أن أبقى على قلبي ثقلا . ألم أكن أضرع بكل قولي : ان لم تكن السعادة لي فلنذهب ، ان كان الشقاء نصيبى فليأت ، لكن لا أبقى في الاغلال . فلا معنى لأن يمسك المرء بالباطل كما لو كان حقا الا أن يخلق نفسه . ليتني أقي أهلاك نفسي هذا الهلاك !

عندما دخلت حجرتي وجدت أستاذي ينتظرني هناك . وكانت مشاعري المضطربة لا تزال تموج في باطني ، فبدأت أقول بغير احتفال بلا تحية ، ولا بسؤال : الحرية ياسيدي هي أعظم ما للانسان ، فلا شيء يمكن أن يوزن بها ، لا شيء على الإطلاق !
وتطلع اني أستاذي صامتا وقد أدهشه انطلاقي المفاجيء . ومضيت أقول : ان المرء لا يستطيع أن يفهم شيئا من الكتب . اننا نقرأ في الكتب المقدسة أن رغباتنا قيود تغلنا نحن كما تغل

الآخرين ، ولكن هذه الكلمات وحدها لا تعنى شيئا . ولا بد لنا أن نصل الى حد اطلاق الطائر من قفصه حتى ندرك كيف جعلنا الطائر أحرارا . فكل شيء نحسبه يقيدنا برغبة أغلالها أقوى من سلاسل الحديد . أقول لك ياسيدى أن هذا هو ما عجز العالم عن أن يفهمه . كلهم يحاولون أصـلاح شيء خارج أنفسهم ، والإصلاح إنما يطلب فى رغبات المرء ، لا فى أى مكان آخر، لا فى أى مكان آخر !

قال : نحن نحسب أننا سادة أنفسنا حين تقبض أيدينا على الشيء الذى نرغبه - ولكننا لا نكون سادة أنفسنا حقا الا حين نستطيع أن نطرح رغباتنا من نفوسنا .

فمضيت أقول : سيدى ، اننا حين نضع هذا كله فى كلمات يبدو أشبه بموعظة سخيفة ، ولكننا اذا أدركنا ولو بعضا منه وجدناه هو تلك « الأمرينا » التى شربت منها الآلهة وأصبحت خالدة . اننا لا نقدر أن نرى الجمال حتى نرسله من قبضتنا . لقد كان بوذا هو الذى غزا العالم لا الاسكندر . ان هذا يبدو باطلا حين نعبر عنه بكلام منشور جاف . أوه ، متى نستطيع أن نغنيه ؟ متى تفيض هذه الحقائق الكونية العميقة من صفحات الكتب المطبوعة وتقفز الى نهر مقدس كنهر الكنج اذ ينطلق من عليائه المقدسة .

وتذكرت فجأة غياب أستاذى هذه الايام الاخيرة وجهلى بسببه . وشعرت انى أشبه بالاحمق حين سألته : وأين كنت طوال هذه المدة ياسيدى ؟

فأجاب : كنت مقيما مع بانشو .

فصحت : حقا ! أكنت هناك كل هذه الايام ؟

- أجل . أردت أن أنتهى الى اتفاق مع المرأة التى تسمى نفسها زوجة عمه . كادت لا تصدق انه يمكن أن يوجد بين السادة شخص غريب كذلك الذى تضيفهم . قلت لها : لن تتخلصى منى يا أماه ولو شتمتنى ! وما دمت مقيما فسيقيم بانشو أيضا . ألا ترين انى لا أستطيع أن أقف وأنظر الى أطفاله الذين لا أم لهم يطردون الى الشوارع ؟

ظلت تستمع لمثل هذا الكلام منى يومين دون أن تقول نعم أو لا . وفى هذا الصباح وجدتها تربط صررها . قالت : « اننا عائدتان الى برندابان ، أعطنا مصروفات السفر » . وعلمت أنها غير

ذاهبة الى برندابان وأن أجر رحلتها سيكون كبيرا ، ولهذا جئت
إليك .

فقلت : سيدفع الأجر المطلوب .

ومضى أستاذي يقول متأملا : ليست هذه العجوز امرأة شريرة .
إن بانشو لم يكن واثقا الى أى طائفة تنتمى ، فأبى أن يسمح لها
بلمس جرتة أو شيء من أدواته ، ولهذا كانا دائمي الشجار ، ولكنها
حين وجدتني لا أبى ذلك عليها خدمتني باخلاص . إنها طباحة
ماهرة .

ولكن ما بقى من احترام بانشو قد زال . لقد كان يظنني حتى
ذلك الوقت رجلا عاديا على الأقل ، فاذا بى أخطر بعزة طائفتي
دون تخرج لأستميل العجوز الى غرضي . ليس هذا كأن أحاول
التغلب عليها باحضار شاهد زور الى المحكمة ، فالمكر يجب أن
يقابل بالمكر . أما الحيلة على حساب التقوى فشيء لا يمكن
أحتماله !

قلت : قد نستطيع انقاذه وقد لا نستطيع ذلك ، ولكننا إن
متنا فى سبيل انقاذ بلادنا من الحبائل الكثيرة التى لا يألو هؤلاء
القوم جهدا فى نشرها ، حبائل الدين والتقاليد والانانية ، فاننا
على الاقل سنموت سعداء .

حكاية بيبالا

- ١٤ -

من كان يظن أن ذلك كله يمكن أن يحدث في هذه الحياة الواحدة ؟
لكأنى مررت بسلسلة من الولادات ، كان الزمن يمر سريعا سريعا
حتى لم أشعر بحركة ، الى أن جاءت الصدمة منذ أيام .

حين عزمت على أن أطلب الى زوجي منع البضائع الاجنبية من
سوقنا كنت أعلم أن سيكون بيننا كلام . ولكننى كنت موقنة انى
لن أحتاج الى مقابلة الحجة بالحجة ، فقد كان الهواء الذى يحيط
بى نفسه مشبعا بالسحر ، ألم يسقط جبار مثل سنديب عاجزا
عند قدمى كموجة من البحر العظيم تتكسر على الشاطئ ؟ هل
ناديته ؟ لا ، بل ناداه ذلك السحر المحيط بى . وأموليا - ذلك
الصبى العزيز المسكين - كيف احمر تيار حياته كالنهر عند الفجر
حين جاءنى لأول مرة ! لقد عرفت حقا كيف تشعر الالهة حين تنظر
الى وجه عابدها المشرق .

للثقة التى اكتسبتها من هذه الدلائل على قدرتى كنت مستعدة
للقاء زوجي كسحابة مشحونة بالكهرباء . ولكن ماذا حدث ؟ لم
أر قط طوال هذه السنوات السبع مثل تلك النظرة البعيدة
الشاردة بى عينيه - كسماء الصحراء - لا ندى رحيم فيها ولا لون
منعكس مما تنظر اليه . ولو انفجر غضبه لشعرت براحة أى راحة
ولكنى لم أستطع أن أجد فيه شيئا يمكننى أن ألمسه . شعرت
انى كاذبة كحلم ، حلم لن يترك حين ينقضى الا سواد الليل .

فيما مضى كنت أغار من سلفتى لجمالها . ثم سكنت الى الشعور
بأن السماء لم تمنحنى قوة خاصة بى ، وأن كل قوتى هى فى
الحب الذى يفدقه زوجى على . والآن وقد أفرغت كأس القوة
حتى الثمالة - ولا غنى لى عن نشوتها - أجدها فجأة محطمة
عند قدمى ، لم تترك لى شيئا أعيش من أجله .

كم كنت محمومة حين جلست لأعقص شعري ذلك اليوم !
أوه ، يا للعار ، يا خجلتي ، يا ما أشد خزيي ! لقد صاحت سلفتي
حين مرت بي : « آه تشوتا راني ، شعرك يكاد ينط . لا تتركه
يحمل رأسك معه » .

ومنذ أيام ، في الحديقة .. ما أسهل ما قال لي زوجي ، انه
يمنحني حريتي ! ولكن هل الحرية - الحرية الفارغة - يمكن أن
تعطى وتتخذ بهذه السهولة ؟ ان هذا أشبه بإطلاق الحرية لسمكة
في السماء - فكيف يمكنني أن أتحرك أو أعيش خارج جو الحب
العطوف الذي كان يحييني دائما ؟

عندما دخلت حجرتي اليوم لم أر غير الأثاث - الفراش ، المرآة ،
المشجب - لا القلب الذي ينفذ الى كل شيء ، والذي كان يهيمن
على كل ما هناك . بدلا منه كانت هناك الحرية ، لا شيء غير
الحرية ، الفراغ المطلق ! مجرى جاف تعرت صخوره وحصباؤه .
لا شعور ، بل أثاث فقط !

حين وصلت الى حالة من الحيرة الشاملة وسألت نفسي ان كان
قد بقي في حياتي شيء صادق وأين عساه يكون ، صادفت سنديب
مرة أخرى . وهنا اصطدمت حياة بحياة ، وتطايير الشرر كدأبه في
القديم . هنا كانت الحقيقة ، الحقيقة الهوجاء التي تندفع وتتجاوز
كل الحدود ، حقيقة أصدق ألف مرة من البارا راني ووصيفتها ،
وثاكو وأغانيها البلهاء ، وسائر من يتكلمون ويضحكون ويذهبون
ويجيئون ..

لقد قال سنديب : خمسون ألفا !
وصاح قلبي المنتشي : وما خمسون ألفا ؟ ستكون بين يدك !
كيف الحصول عليها ، ومن أين ؟ مسائل فرعية لا تستحق
الاهتمام . انظر الى . ألم أرتفع ، في لحظة واحدة ، من العدم
الذي كنت فيه الى قمة فوق كل شيء ؟ كذلك ستأتي الاشياء كلها
حين أشير اليها بأصبعي . سأحصل عليها ، هذا ما لا ريب فيه .
هكذا تركت سنديب منذ أيام . ثم حين تلفت حولي .. أين كانت ،
تلك الشجرة الدائم أكلها ؟ أوه ، لماذا يهين هذا العالم الخارجي
القلب ؟

ولكنني يجب أن أحصل عليها . كيف لا يعنيني كيف . فلا يمكن
أن يكون ثمة أثم . ان الاثم لا يلوث غير الضعفاء ، وأنا «بروحي»
فوق متناوله . لا يكون اللص الا رجلا من العامة ، أما الملك فانه

يفزرو ويفنم .. يجب أن أعرف مكان الخزانة ، ومن يضع فيها المال ، ومن يحرسها .

أمضيت نصف الليل واقفة في الشرفة الخارجية أتطلع الى صف أبنية الإدارة . ولكن كيف الحصول على تلك الروبيات الخمسين ألفا من قبضة هذه القضبان الحديدية ؟ لو استطعت برقية ما أن أجعل كل أولئك الحراس يسقطون موتى في أمكنتهم لما ترددت - الى هذا الحد كنت أشعر أنى قاسية !

ولكن منزل الراجات الكبير كان ينام في سلام بينما ترقص عصابة كاملة من اللصوص رقصة الحرب في رأس ملكته الدائر . وكانت الساعة تدق ساعة بعد ساعة ، والسماء من فوق تطل في هدوء .

وأخيرا بعثت الى أموليا . قلت له : ان القضية الوطنية محتاجة الى مال . فهل تستطيع أن تحصل عليه من الخزانة ؟ فقال ، ونفخ صدره : لم لا ؟

وا أسفاه ، أترانى قلت « لم لا » لسنديب بهذه الطريقة نفسها؟ ان ثقة الصبي المسكين لم تستطع أن تثير في نفسى أملا ما . سألت : كيف ستفعل ذلك ؟

ان الخطط العجيبة التي بسطها لى لا تحتل الا على صفحات رواية رخيصة مليئة بالرعب .

قلت بقسوة : لا يا أموليا . يجب ألا تكون طفلا .

فقال : حسنا اذن دعيني أرشو أولئك الحراس .

- ومن أين لك بالنقود ؟

فانفجر قائلا دون اجفال : يمكننى أن أنهب السوق .

- دع هذا كله . ان عندى حلى ، وهى تكفيينا .

قال أموليا : ولكنى دهش لأن الصراف لا تمكن رشوته . لا

بأس . هناك سبيل آخر أيسر .

- وما ذاك ؟

- ما حاجتك الى سماعه ؟ انه جد يسير .

- أحب أن أعلمه مع ذلك .

فبحث أموليا في جيب سترته وأخرج أولا نسخة صغيرة من

الجيتا (١) وضعها على المنضدة ، ثم مسدسا أرانى اياه ، ولكنه

لم يزد قولا .

(١) البهاجافاد جيتا : أهم الكتب المقدسة عند الهنود (المترجم) .

يا للفظاعة ! انه لم يحتج الى لحظة واحدة ليقرر قتل صرافنا العجوز الطيب (١) ولو نظرت الى وجهه الصريح الطلق لما ظننته قادرا على أن يؤذى ذبابة ، ولكن الكلمات التي انبعثت من فمه كانت جد مختلفة . لقد كان واضحا أن مكان الصراف في العالم لايعنى شيئا بالنسبة له . انه مجرد فراغ لا حياة فيه ولا شعور ، ليس فيه إلا عبارات محفوظة من الجيتا . « من يقتل الجسم يقتل عدما ! » .

صحت أخيرا : ما الذي تغنيه يا أموليا ؟ ألا تعلم أن لهذا الشيخ العزيز زوجة وأطفالا وأنه . . .

فقاطعنى قائلا : وأين نجد رجالا ليس لهم زوجات وأطفال ؟ انظري يامهرانى ، أن الشيء الذي نسميه شفقة ليس في صميمه إلا اشفاقا على أنفسنا . اننا لا نستطيع أن نحتمل جرح غرائزنا الرقيقة ، ولهذا لا نضرب أبدا . الشفقة حقا ! انها غاية الجبن ! اذهلنى سماع عبارات سنديب من فم ذلك الصبى . كم كانت سداجته جميلة محببة - كان في تلك السن التي لا تزال تستطيع أن تؤمن بالخير على أنه خير ، في تلك السن التي يحيا فيها المرء حقا وينمو ، واستيقظت في الأم .

لى أنا لم يبق خير ولا شر . لم يبق إلا الموت ، الموت الجميل المفري . ولكن جسمى كله ارتجف لسماع هذا الغلام يتحدث بهدوء عن قتل شيخ مسالم على أنه ما ينبغى عمله . وبدا لى الأثم فظيعا في كلماته بقدر ما وضع لى أن قلبه خلو من كل اثم . وكأنما رأيت آثام الآباء يحملها طفل برىء .

مس أوتار قلبى منظر عينيه الكبيرتين تلمعان ايمانا وحماسة . لقد كان منطلقا كالمسحور الى أنياب البيثون (٢) ، حيث لا رجوع لداخل . كيف يمكن انقاذه ، لماذا لا تصبح بلادى مرة أما حقيقية ، تحضنه وتصيح : « أوه يا ولدى ، يا ولدى ، أى ربح فى أن تنقذنى ان لم أستطع انقاذك ؟ » .

أنا أعلم ، أنا أعلم أن كل قوة فى الأرض تتعاضم حين تلتحم بالشيطان ، ولكن هناك الأم تدين هذا التقدم الشيطانى وتقف

(١) الصراف هو أكثر الموظفين اتصالا بالسيدات فى بيت ملاك الاراضى ، فهو يتلقى منهن مباشرة ما يطلبنه لحاجات البيت ، ويتسوق لهن ، ولهذا يصبح أقرب من غيره الى أن يعد فردا من الاسرة (المترجم) .

(٢) فى الاساطير اليونانية : أفعى خرافية قتلها أبولو (المترجم) .

فى سبيله ولو كانت وحيدة . ان الأم لا تبالى بالنجاح وحده مهما يكن عظيما ، انها تريد أن تمنح الحياة وأن تنقذ الحياة . وان روحى اليوم لتمد يديها مشتاقة الى انقاذ هذا الصبى .

منذ لحظة أوحيت اليه بالسرقة ، ومهما أقل الآن منفرة منها فسيفسره بضعف المرأة . انهم لا يحبون ضعفنا الا حين يجر العالم فى شباكه !

قلت له أخيرا . لاحاجة بك أن تفعل شيئا ما يا أموليا . سأدبر أمر النقود .

وحين كاد يبلغ الباب ناديته ليرجع . قلت : أموليا . اننى أختك الكبيرة ليس هذا يوم الأخ (١) فى التاريخ ، لكن كل أيام السنة هى فى الواقع أيام الأخ . فلتكن بركتى معك ، وليحرسك الله أبدا . فوجيء أموليا بهذه الكلمات غير المتوقعة من شفتى ، فوقف برهة لا يتحرك ، ثم عاد اليه ادراكه فركع عند قدمى قبولا منه لهذه الصلة ، وأحنى رأسه اجلالا . وعندما نهض كانت عيناه مفرورقتين بالدموع . . أوه يا أخى الصغير ! أننى مسرعة الى موتى ، فدعنى أحمل كل ذنبك معى ، ولا تلوثن براءتك أبدا وصمة واحدة منى !

قلت له : فلتكن هدية اجلالك هى ذلك المسدس !

— ما حاجتك اليه يا أختى ؟

— سأتدرب على الموت .

— ان نساءنا أيضا يجب أن يعرفن كيف يمتن ، وكيف يصنعن

الموت !

قال ذلك وناولنى المسدس .

وكأنما لون اشراق وجه الصبى حياتى بلمسة فجر جديد .

فوضعت المسدس بين ملابسى . فلتكن هدية الاجلال هذه هى الملجأ الاخير فى ضائقى . .

(١) للابنة معزة خاصة فى البيت البنغالى (ولعل ذلك صحيح بالنسبة الى البيوت الهندوسية عامة فى جميع أنحاء الهند) لان التقاليد تقضى بزواجها المبكر . ولهذا تحمل معها ذكريات المحبة والحنان الى بيت زوجها ، حيث يتحتم عليها أن تبدأ غريبة قبل أن تحتل مكانتها . وقد اتخذ الشعور الناشئ عن ذلك عند ربة البيت الجديد بالنسبة الى البيت الذى تركته صورة عرقية فى « يوم الاخ » ، الذى يدعى فيه الاخوة الى منازل أخواتهم المتزوجات . واذا كانت الاخت أكبر سنا فانها تعطى بركتها وتتلقى اجلال أخيها ، والعكس بالعكس . ويتبادلان الهدايا ، وتسمى هدايا الاجلال أو البركة . (المترجم) .

حين فتح الباب الى غرفة الأم في قلبي الانثوى حسبت أنه سيظل مفتوحاً أبداً . ولكن هذا المعبر الى الخير الاسمى أغلق حين حلت الحبيبة محل الأم وأغلق ثانية . في اليوم التالي نفسه رأيت سنديب . ورقص الجنون على قلبي عريان معربداً .

ما كان هذا ؟ أهذه اذن هي نفسي الأصدق ؟ كلا ! اننى لم أعرف قط هذه النفس المستهتره القاسية في . لقد جاء الساحر زاعماً انه سيخرج هذا الثعبان من بين طيات ملابسى ، ولكنه لم يكن هناك قط ، بل كان ثعبانه ولم يزل . لقد استولى على شيطان ، وما أفعله اليوم هو من أفاعيله ، ولا شأن لى به .

لقد جاءنى هذا الشيطان في ثوب اله ، جاءنى ذلك اليوم بمشعله الساطع قائلاً : « أنا بلادك . أنا رجالك سنديب . أنا أقرب اليك من كل ما لديك . « باندى ماترم ! » وأجبته وقد أطبقت يدي : « أنت دينى . أنت جنتى . كل مالى سواك سيجرفه حبنى لك . باندى ماترم ! » .

أهى خمسة آلاف ؟ فلتكن خمسة آلاف ! تريدها غدا ! غدا تأخذها ! فى هذه السكرة القاتلة ستكون هدية الخمسة آلاف أشبه بحبات الخمر - وبعدها هيا الى الصخب المعربد ! العالم المستقر سيتزلزل تحت أقدامنا ، والنار ستندلع من عيوننا ، وستزأر فى آذاننا عاصفة ، وقيم الذى أمامنا كالذى ليس أمامنا . ثم بخطا مترنحة نفوس فى موتنا ، وفى لحظة تطفأ كل النار ، وينشر الرماد ، ولا يبقى شئ بعدنا .

الفصل التاسع

حكاية يمالا

- ١٥ -

حرت مدة في سبيل الحصول على هذه النقود . ثم مثلت أمامي الصورة كلها في وضوح تحت ضوء القلق الشديد . كان ذلك منذ أيام .

في كل عام يقدم زوجي هدية اجلال الى سلفتى مقدارها ستة آلاف روبية في موسم درجا بوجا . وفي كل عام تودع باسمها في المصرف في كلكتا . وقد قدمت الهدية هذا العام كالعادة ولكنها لم ترسل بعد الى المصرف ، ولم تزل محفوظة في خزانة حديدية في ركن من حجرة الملابس المتصلة بمخدعنا .

وكان زوجي نفسه يأخذ النقود الى المصرف كل عام . ولكنه لم يتح له الذهاب الى المدينة هذا العام . كيف كان يمكنني الا ارى يد القدر في هذا ؟ لقد أبقيت النقود لأن البلاد في حاجة اليها . من كان يستطيع أن يأخذها منها ليضعها في المصرف ؟ وكيف أستطيع أنا الامتناع عن أخذ النقود ؟ أن الالهة التي تطرب للتدمير تمد كأسها الماطخ بالدم صائحة : « أعطيني أشرب . اننى ظمأى » . سأعطيها دم قلبي مع هذه الخمسة آلاف . أماء ، ان التي تفقد هذه النقود لن يؤذيها فقدتها كثيرا ، ولكنني أنا التي ستدمرينني تدميرا !

كثيرا ما كنت - قديما - أسمى الرانى الكبرى بينى وبين نفسي لصة ، لأنى كنت أتهمها بخداع زوجي الطيب ، وكثيرا ما كانت بعد موت زوجها تستخلص لنفسها أشياء من ملك الولاية ، وكنت أنبه زوجي الى ذلك ، ولكنه يلزم الصمت ، فأغضب وأقول : « ان كنت أريحيا فلك ان تهب كما تشاء ، ولكن لماذا تسمح بأن

تسرق ؟ » ولا بد أن القدر كان يضحك وقتئذ لشكاواى هذه ،
فأننى الليلة فى طريقى الى سرقة نقود سلفتى من خزانة زوجى .
وكانت عادة زوجى أن يبقى مفاتيحه فى جيوبه حين يخلع ملابسه
قبل النوم ويتركها فى حجرة الملابس . فأخذت مفتاح الخزانة
وفتحتها . وخيل الى أن الصوت الصغير الذى أحدثته سيوقظ
العالم كله . وعرتنى قشعريرة مفاجئة جعلت يدى وقدمى باردة
كالثلج ، وارتجف جسمى كله .

كان فى داخل الخزانة درج ، وحين فتحته وجدت النقود . لم
تكن أوراقا بل قطعاً ذهبية ملفوفة فى قراطيس . ولم أجد وقتاً
لأعد ما أحتاج اليه . كان هناك عشرون لفافة أخذتها جميعاً
وربطتها فى حاشية سارى .

كم كانت ثقيلة ! ان عبء السرقة رزح على قلبى حتى ألصقه
بالتراب . ولعلها لو كانت أوراقا لبدا الأمر أقل شبيهاً بالسرقة ،
ولكنها كانت كلها ذهباً .

بعد أن تسلمت الى حجرتى كاللصانة بدت كأنها لم
تعد حجرتى . لقد اختفت كل حقوقى الغالية عليها حين لمست المال
المسروق ، ورحت أتمتم لنفسى وكأننى أردد بعض الرقى : « باندى
ماترم . باندى ماترم ، يا بلادى ، يا بلادى الذهبية ، لك كل هذا
الذهب لا لأحد غيرك ! »

ولكن العقل يضعف فى الليل . لقد عدت الى المخدع حيث كان
زوجى نائماً ، وأغمضت عيني وأنا أعبره خارجة الى الشرفة
المكشوفة وراءه ، حيث انبطحت على وجهى وأنا أضرم الى صدرى
حاشية السارى التى صرت على الذهب ، وبعثت فى كل لفافة
هزة ألم .

ووقف الليل الصامت هناك رافعاً سياسته . ولم أستطع أن أفكر
فى منزلى على أنه منفصل عن بلادى : لقد سرقت منزلى ، لقد
سرقت بلادى . وبسبب هذه الخطيئة لم يعد منزلى منزلى ،
وكذلك بلادى أصبحت غريبة عني . لو اننى مت وأنا أشهد من
أجل بلادى - ولو دون جدوى - لكانت تلك الشحاذة عبادة
تتقبها الآلهة . ولكن السرقة لا تكون عبادة أبداً ، فكيف يمكننى
أذن أن أهبط هذا الذهب ؟ تعسا لى ! اننى مقضى على بالموت ،
فهل يجب أن أدنس بلادى بلمستى الشريرة ؟

لا سبيل لى الى النقود . ليست لدى القوة لأعود الى الحجرة ،

وأخرج ذلك المفتاح ثانية ، وافتح الخزانة من جديد - لأموتن على عتبة باب زوجي . ان السبيل الوحيد الباقي هو سبيل التقدم . ليست لدى القوة أيضا لأجلس هادئة وأعد النقود . فلتبق خلف أغطيتها ، اننى غير قادرة على الحساب .

كانت سماء الشتاء خلوا من الضباب ، والنجوم تلمع ، فقلت انفسى وأنا راقدة هناك : لو كان على أن أسرق هذه النجوم كالقطع الذهبية واحدة واحدة من أجل بلادى - هذه النجوم المحفوظة بعناية فى حزن الظلام - اذن لعميت السماء ، وترمل الليل أبدا ، ورزأت سرقتى العالم كله . لكن هذا الذى فعلته .. أليس هذا أيضا سرقة للعالم كله ، لا سرقة للمال فحسب ، بل للثقة والأمانة ؟

قضيت الليل راقدة فى الشرفة ، حتى اذا أصبح الصباح وأيقنت ان زوجي قد استيقظ وغادر الحجرة ، هنالك فقط استطعت ان أعود أدراجي الى الحجرة بعد أن أرخيت ملففحتى على رأسى . وكانت سلفتى تجول بقدرها النحاسية تسقى نباتاتها . فلما بصرت بى مرة على بعد صاحت : هل سمعت الخبر ياتشوتا رانى ؟

فوقفت صامتة أرتعد . وخيل الى أن لفافنات الذهب تبرز من المافحة وخفت أن تتمزق وترن متساقطة لتفضح أمام خدم المنزل جميعا تلك اللصة التى أفقرت نفسها حين سرقت ثروتها . ومضت سلفتى قائلة : ان عصابة اللصوص الذين معك قد بعثوا رسالة مجهولة يندرون فيها بنهب الخزانة . فظللت صامتة صمت اللصوص . وأردفت مازحة .

- كنت أنصح الأخي نيكهيل أن يلجأ الى حمايتك . أبعدى صبيانك عنا أيتها المالكة السارقة ! سنقدم للقرايين لالهك «باندى ماترم » ان أنت أنقذتنا . ما أعجب ما يجرى فى هذه الايام ! لكن بحق الله اعفى منزلنا من السرقة على الأقل ..

وأسرعت الى حجرتى دون أن أجيب . لقد وضعت قدمي على رمل موار ولم يعد فى استطاعتى أن أسحبها الآن ، فلن يزيدنى التملص الا غوصا .

متى أسلم النقود الى سنديب ! لم أعد أستطيع احتمالا ، لقد كان ثقلها يحطم أضلاعى .

كان الوقت لايزال مبكرا حين تلقيت كلمة أن سـنديب فى

انتظاري . لم أبال اليوم بزينتي ، بل ذهبت الى الحجرات الخارجية مشتملة بما فحتي كما كنت .

وحين دخلت حجرة الجلوس رأيت سنديب وأموليا هناك معا . فخيل الى أن كل كرامتي وشرفي يجريان مشتعلين في جسمي من الرأس الى القدم ويفيضان في الارض . أفحتم على أن أكشف أقصى عار امرأة أمام عيني هذا الصبي ! أتراهما كانا يتحدثان عن فعلتي في اجتماعهما ؟ وهل بقيت لي بقية من قناع لعزة أو وقار ؟

نحن النساء لن نفهم الرجال أبدا . انهم حين يصممون على شق طريق للوصول الى هدف ما لا يبالون أن يحطموا قلب العالم قطعا كي يمهدوه لسير مركبتهم . وحين تذهب بعقولهم نشوة الخلق يفرحون بتدمير ما صنعه الخالق . ان عاري هذا الذي يمزق القلب لم يكن ليسترعى من أعينهما نظرة . انهما لا يشعران بالحياة نفسها - كل حماستهما منصبة على غرضهما . وهل أنا لهما الا زهرة من زهور المروج في طريق سيل دفاق ؟

وما نفع دماري هذا لسنديب ؟ خمسة آلاف روبية فقط ؟ أما كنت أصلح لشيء أكثر من خمسة آلاف روبية فقط ؟ أجل ، أجل ! ألم أتعلم هذا من سنديب نفسه ، أو لم أكن قادرة بفضل هذه المعرفة على أن أحتقر كل شيء آخر في عالمي ؟ لقد كنت واهبة النور والحياة و « الروح » والخلود ، وبذلك الاعتقاد ، وبذلك الفرح كسرت حدودي كلها وبرزت . ولو أن أحدا حقق لي ذلك الفرح عندئذ لحيتت في موتى ، ولما فقدت شيئا اذ أفقد كل شيء .

هل يريدان أن يقولوا لي الآن : ان ذلك كله كان باطلا ؟ ونشيد ثنائى الذى غنى بذلك الولاء ، هل أنزلنى من سمائى ليجعل السماء نفسها كالتراب ، لا ليجعل الارض كالسماء ؟

- ١٦ -

قال سنديب ونظرته الحادة منصبة كلها على وجهى : النقود يا ملكة ؟

وكذلك ثبت أموليا نظره على . ان هذا الصبي العزيز ليس ابن أمى ولكنه أخ لي ، فان الأم أم في كل مكان على الارض . نظر الى بوجهه الصافى ، وعينييه الحنونتين ، وشبابه البريء . وأنا .. كيف استطعت أن أقدم اليه السم وأنا امرأة كأمه - لأنه طلبه ؟

« النقود ياملكة ! » رن سؤال سنديب الوقح في أذني ، ووددت
لخجلى وغيظى وحدهما أن أقذف بذلك الذهب على رأس سنديب .
بمشقة استطعت أن أحل عقدة السارى ، فقد كانت أصابعى ترتجف
أى ارتجاف . وأخيرا سقطت اللفافات على المنضدة .

واسود وجه سنديب . . . لا بد أنه حسب اللفافات من فضة . . .
أى احتقار كان فى نظراته ! أى اشمئزاز من ذلك العجز ! كأنما كان
يهم بضربى ! لا بد أنه خالنى جئت لأفأوضه ، لأنزل بالخمسة
آلاف التى طلبها الى بضع مئات . ومرت لحظة ظننت أنه سيخطف
اللفافات ويرميها من النافذة معلنا أنه ليس شحاذا ، بل ملك
يطلب الجزية .

وسأل أموليا وفى صوته نبض شفقة جعلتنى أود لو أجهش
بالبكاء : أهذا كل شىء ؟

وأحكمت كبج قلبى ، واكتفيت بأن أومأت برأسى .
وظل سنديب واجما ، لم يلمس اللفافات ، ولا نطق بحرف .
ومست مذلتى قلب الصبى ، فصاح بحماسة مفاجئة مصطنعة :
هذا كثير . أنه يكفى كل حاجتنا . لقد أنقذتنا .
وبهذه الكلمات مزق غطاء احدى اللفافات .

وبرقت الجنيهاات الذهبية . وفى لحظة بدا كأن الغطاء الاسود
قد رفع عن وجه سنديب أيضا ، فأضاءت قسماته سرورا ، ولم
يستطع التحكم فى انقلاب شعوره ، فوثب عن كرسيه نحوى .
ولست أدري ماذا كان يهم أن يفعل ، فقد رميت نظرة كالبرق
نحو أموليا ، فاذا بوجه الصبى يشحب كأنما لسهه سوط . ثم
دفعت سنديب عنى بكل قوتى ، ففقد توازنه واصطدم رأسه بحافة
المنضدة الرخامية ، وسقط على الارض . وبقي هناك برهة لا يتحرك ،
أما أنا فهبطت على مقعدى وقد أنهك المجهود قواى .

وأشرق وجه أموليا اشراق الفرح ، حتى أنه لم يلتفت الى
سنديب ، بل أقبل على ومسح التراب عن قدمى ، وبقي هناك
جالسا أرائى على الارض . آه يا أخى الصغير ، ياطفلى ! ان تحية
اجلالك هذه هى آخر لمسة من السماء بقيت فى عالمى المقفر ! لم
أعد أستطيع أن أتمالك نفسى . وفاضت دموعى انسكابا ، فغطيت
عيني بطرف سارى وضفطت على وجهى بكلتا يدي ورحت أنتحب
وأنتحب ، وكلما شعرت بلمسته الرقيقة على قدمى تحاول تهدئتى
تجدد بكائى .

ولما أفقت بعد قليل ورفعت يدي عن وجهي رأيت سنديب عند المنضدة يجمع الجنيهات في منديله كأن شيئاً لم يحدث . ونهض أموليا من مكانه عند قدمي إلى كرسيه وعيناه المخضلتان تبرقان . ونظر سنديب إلى وجهي ببرود وهو يقول : انها ستة آلاف . فصاح أموليا : ما حاجتنا إلى هذا القدر ياسنديب بابو ، ان كل ما يلزمنا لعملنا ثلاثة آلاف وخمسمائة .

فأجاب سنديب : ان حاجتنا ليست لهذا المكان وحده . سوف نحتاج إلى كل ما نستطيع الحصول عليه .

قال أموليا : قد يكون هذا . ولكنني أتعهد بأن آتيك بكل ما نحتاج إليه في المستقبل . أما هذا فأرجوك أن ترد ألفين وخمسمائة منه إلى المهراني .

فنظر سنديب إلى مستفهما . فابتدريته : لا ، لا ، لن أمس هذه النقود ثانية ، افعل بها ما تريد .

قال سنديب ناظراً نحو أموليا : هل يستطيع الرجل يوماً أن يعطي كما تعطي المرأة ؟

فوافقه أموليا بحماسة : انهن الهات !

ومضى سنديب يقول : نحن الرجال نستطيع على الأكثر أن نعطي من قدرتنا ، ولكن النساء يعطين أنفسهن . من حياتهن يلدن ، ومن حياتهن يغدون . مثل هذه العطايا هي العطايا الحقة . ثم التفت إلى قائلاً : يا ملكة ! لو كان ما أعطينا آياه هو المال وحده لما لمسته ، ولكنك أعطيت ما هو أكبر عندك من الحياة نفسها !

لا بد أن في الانسان شخصين مختلفين . فأحد هذين الشخصين في قادر على أن يفهم أن سنديب يحاول خداعي ، والشخص الآخر راض بأن يخدع . ان لسنديب قدرة ، ولكن ليست له قوة العدالة . وسلاحه الذي يبعث الحياة يضربها ثانية حتى الموت . ان لديه جعبة الآلهة التي لا تنفذ ، ولكن السهام التي فيها من الشياطين .

لم يتسع منديل سنديب للنقود كلها فسأل : يا ملكة ، هل يمكنك أن تعطيني منديلاً آخر ؟

ولما أعطيته منديلي لمس جبينه به في خشوع ثم ركع على الأرض فجأة وأحنى رأسه قائلاً : يا الهة ! انما اقتربت منك لأقدم تحية اجلالى ، ولكنك رفضتني ورميتني في التراب . فان كان هذا

فانى أقبل رفضك نعمة منك على ، وأرفعه الى رأسى تحية لك .
قال ذلك وأشار الى موضع الصدمة من رأسه .

هل أسأت فهمه اذن ؟ هل كانت يداه الممدودتان موجهتين الى
قدمى حقا ؟ ان أموليا نفسه قد رأى الانفعال الذى اشتعل فى
عينيه ووجهه . ولكن سنديب بارع فى وضع الموسيقى الأغنية
ثنائه بحيث لا أستطيع جدالا . اننى الأفقد قدرتى على رواية الحقيقة
ويقيم بصرى كعينى مخدور . وهكذا رد لى الضربة التى أنزلتها
به ضعفين ، وكانت عاقبة الجرح فى رأسه أن جعل قلبى يدمى .
وحين تلقيت تحية سنديب بدا كأن سرقتى تكتسب كرامة ،
والذهب على المائدة يتسم فينسى كل خوف العار ، وكل وخز
الضمير .

وكما رجعت رجع أموليا . واشتعل ولاؤه لسنديب ثانية بعد أن
أصيب بصدمة قصيرة ، وامتلاّت زهريته من جديد بهدايا العبادة
لسنديب ولى ، وأضاء ايمانه فى عينيه بنور صاف كنور نجمة
الصباح عند الفجر .

بعد أن أهديت العبادة وتلقيتها بدا اثمى مشرقا . وحين نظر
أموليا الى وجهى رفع يديه المطبقتين محييا وصاح : « باندى
ماترم ! » لم أكن لأتوقع أن تظل هذه العبادة محيطة بى أبدا ومع
ذلك فقد أصبحت هى السبيل الوحيد لابقاء احترامى لنفسى .

لم أعد أستطيع أن أدخل مخدعى . الفراش كأنه يمد يدا
ليمنعنى ، والخزانة الحديدية تعبس لى . أريد أن أهرب من هذه
الاهانة المستمرة لنفسى ، هذه الاهانة التى تعتمل فى باطنى . أريد
أن أهرع الى سنديب كل حين ليفنى بمديحى . لم يبق إلا هذا
المحراب الوحيد للعبادة يبقى رأسى مرفوعا فوق أعماق خزيى
التي شملت كل شيء ، ولهذا أريد أن أتعلق به ليل نهار، فانى
حيثما أبتعد عنه لا أجد الا فراغا .

الثناء ، الثناء ، أريد ثناء متصلا . لا أستطيع أن أحيا إن
ترك كأسى فارغا لحظة واحدة . لهذا أريد سنديب اليوم دون
الخلق أجمعين ، لأنه هو ثمن حياتى .

- ١٧ -

عندما يأتى زوجى فى هذه الايام ليتناول طعامه أشعر انى لا
أستطيع الجلوس أمامه ، ولكن الابتعاد عنه أمر مخجل حتى انى

لا أقدر أن أفعل ذلك أيضا . لهذا أجلس بحيث لا يستطيع أحدنا أن ينظر الى وجه الآخر . وعلى هذه الصورة كنت أجلس منذ أيام حين جاءت الباراء راني وانضمت اليها . قالت : لك أن تضحك يا أخى من خطابات التهديد هذه ، ولكنها تخيفنى أيما خوف . هل أرسلت تلك النقود التى أعطيتنى إياها الى مصرف كلكتا ؟ فأجاب زوجى : لا ، لم أجد وقتا بعد لأرسالها .

— أنت مهمل يا أخى العزيز . يجب أن تحترس .. فقال زوجى بابتسامة مطمئنة : انها فى الخزانة الحديدية فى قلب حجرة الملابس الداخلية .

— وان وصلوا الى هناك ؟ من يضمن !
— اذا بلغوا الى هذا الحد فانهم قد يسرقونك أيضا !
— لا تتم ، لن يأتى أحد للمسكينة التى هى أنا ، ان الاغراء الحقيقى هو فى حجرتك ! ولكن دعنا من المزاح الآن ، يجب ألا نخاطر بترك النقود فى الحجرة هكذا .

— انهم سيحملون حصيلة الحكومة الى كلكتا بعد بضعة أيام ، وسأرسل هذه النقود الى المصرف مع الحراس .
— هذا حسن . لكن حذار أن تنسى الأمر كله ، فأنت كثير النسيان .

— حتى لو فقدت هذه النقود وهى فى حجرتى فلن يكون فقدانها عليك ، يا أختى الرانى .

— لا ، لا يا أخى . ان هذا الكلام يفضبنى جدا . هل جعلت فرقا بين مالك ومالى ؟ لنفرض أن نقودك ضاعت ، ألا يسوءنى ذلك ؟ اذا كان القدر قد شاء أن يستأثر بحظى من الدنيا فانه لم يتركنى جاحدة لفضل أخلاص أخ منذ أيام لاکشمان (١) .

حسنا ياتشوتا رانى ! هل انقلبت دمية من الخشب ؟ انك لم تقولى كلمة واحدة حتى الآن . هل تعلم يا أخى أن تشوتا رانى تظننى أتملقك ؟ لو اضطررت الى ذلك فلن أتردد ، ولكنى أعلم أن أخى العجوز العزيز لا يحتاج الى الملق !

وهكذا مضت الباراء رانى تثرثر ! غير ناسية أن تنبه أخاها بين الحين والحين الى هذه الطرفة أو تلك فيما يقدم من ألوان الطعام . كل ذلك ودأبه بدور . ان الازمة تقترب مسرعة . لأبد من عمل

(١) من أبطال الراما يانا . وقصة وفاته لآخيه الأكبر راما وزوجة أخيه سیتا أصبحت مضرب الامثال . (المترجم)

شيء لاعادة النقود .. وبينما أسائل نفسي عما يمكن عمله ، وكيف يجب عمله ، كانت دمدمة سلفتى تبدو أشق احتمالا كل حين .
والذى زاد الأمر سوءا أن عيني سلفتى الحادثتين لم يكن ليفوتهما شيء ، وكانت ترمقنى عن عرض بين لحظة وأخرى . ولست أدري ماذا استطاعت أن تقرأ فى وجهى ، ولكننى كان يخيل الى أن كل شيء مكتوب عليه بوضوح .

ثم أقدمت على أمر شديد الحماسة . تصنعت ضحكة لاهية ناعمة وقلت : أرى أن شكوك البارا رانى كلها منصبة على ، وليس خوفها من اللصوص الا ادعاء . وابتسمت البارا رانى بخبث وقالت : أنت على حق يا أختى . ان سرقة المرأة هى أفدح السرقات ، ولكن كيف تروغين من رقابتى ؟ أرجل أنا حتى تخدعيني ؟ ..

فأجبت : ان كنت تخافيني كل هذا الخوف فدعيني أستودعك جميع ما أملكه ليكون ضمانا ، فان سببت لك خسارة رددتها الى نفسك .

فأجابت على ضحكتى بمثلها ، وقالت ملتفتة الى زوجى : اسمع لها ، صغيرتنا الساذجة التشوتا رانى ! أليست تعلم أن من الخسائر ما لا يعوضه ضمان ، لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر؟ لم يدخل زوجى فى نقاشنا ، وعندما فرغ من طعامه ذهب الى الحجرات الخارجية ، فانه لا يقيل فى حجرتنا هذه الايام .
كانت كل جواهرى الثمينة مودعة فى الخزانة فى عهد الصراف . ومع ذلك فان ما أحتفظ به لابد كان يساوى ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا من الروبيات .

فأخذت صندوق حلى وذهبت الى حجرة البارا رانى وفتحتة أمامها قائلة : اننى أترك هذه عندك يا أختى . ستجعلك فى مأمن من كل خوف .

فأشارت البارا رانى اشارة جزع مصطنعة ، وقالت : انك تدهشينى حقا ياتشوتا رانى ! أتحسبيني حقا لا أنام الليل خوفا من أن تسرقيني ؟

— وأى بأس فى أن تخافى منى خوفا ينفحك ؟ هل يعرف أحد أحدا فى هذه الدنيا ؟

— أتريد أن تلقينى درسا باثمانك اياى ؟ لا ، لا ، تكفينى حيرتى فيما أفعل بحلى عن حراسة حليك . خذها ياعزيزتى .

هناك كثير من الخدم يتجسسون .
 خرجت توا من حجرة سلفتى الى حجرة الجلوس الخارجية ،
 واستدعيت أموليا . فجاء معه سنديب أيضا . وكنت فى عجلة
 شديدة ، فقلت لسنديب : معذرة . أريد أن أقول لأموليا كلمة
 أو كلمتين . هل تسمح ..
 فابتسم سنديب ابتسامة شوهاء : اذن فأنا وأموليا شخصان
 منفصلان فى نظرك ؟ اذا كنت قد بدأت تظلمينه عنى فيجب أن
 أعترف بعجزى عن الاحتفاظ به .
 فلم أجب ، بل وقفت منتظرة .
 وأردف سنديب قوله : ليكن ما تريد . أتمنى حديثك الخاص
 مع أموليا ، ولكنك يجب أن تمنحني حديثا خاصا لى وحدى
 أنا أيضا ، والا كان معنى ذلك هزيمة لى . أن نصيبى يجب أن
 يكون دائما نصيب الأسد . لم يزل هذا عراكى الدائم مع القدر .
 أنى أريد أن أهزم حظى ولا ألقى الهزيمة من يديه .
 وخرج من الحجرة بعد أن حذج أموليا بنظرة ساحقة .
 قلت : أموليا ، يا أخى الصغير العزيز ، يجب أن تصنع شيئا
 من أجلى .
 - اننى أخاطر بحياتى فى أى واجب تلقينه على عاتقى يا أختاه .
 فأخرجت صندوق حلى من بين ثنايا شالى ووضعتة أمامه
 وقلت : بع هذه أو ارهنها ، وهات لى ستة آلاف روبية بأسرع
 ما تستطيع .
 قال أموليا مستنكرا : لا ، لا يا أختى الرانى . دعى
 هذه الحلى كما هى . ولكنى سأتيك ستة آلاف .
 قلت نافذة الصبر : أوه ، لا تكن أبله لا وقت لشيء من العبث ،
 خذ هذا الصندوق ، واذهب الى كلكتا بقطار الليل ، وأحضر
 النقود الى بعد غد على التحديد .
 فتناول أموليا عقدا ماسيا من الصندوق ورفعته الى الضوء ثم
 رده مكتئبا . قلت :
 - أعلم أنك لن تحصل على الثمن المناسب لهذه الماسات ، ولهذا
 أعطيك حليا تساوى ثلاثين ألفا . اننى لا أبالى أن تذهب جميعها
 ولكن يجب أن أحصل على هذه الستة آلاف بدون إبطاء .
 قال أموليا : اتعلمين يا أختى الرانى اننى أختلف مع سنديب بابو
 بشأن هذه الستة آلاف التى أخذها منك ؟ اننى لا أستطيع أن

أصف لك مقدار خجلي . ولكن سنديب بابو يرى أننا يجب أن نتخلي حتى عن الخجل من أجل بلادنا . قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن هذا الأمر مختلف بعض الاختلاف . اننى لا أخاف الموت فى سبيل الوطن ، لقد منحت هذا القدر من « الروح » ولكنى لا أستطيع أن أنسى خجلي لأخذ النقود منك . اننى لا أبلغ شأو سنديب فى هذا . فهو لا يعرف الندم ولا تأنيب الضمير . هو يقول أننا يجب أن نتخلص من فكرة أن النقود ملك لمن يتفق أن توجد فى خزانته ، وإن لم نستطع فأين سحر « باندى ماترم » ؟ وازدادت حماسة أموليا وهو يتكلم ، فحديثه يكتسب حرارة دائما حين أستمع إليه . وأردف : تقول لنا الجيتا : لا أحد يمكنه أن يقتل الروح . فالقتل مجرد كلمة . وكذلك أخذ المال . مال من هو ؟ أن أحدا لم يخلقه ، ولا أحد يأخذه معه حين يفارق هذه الدنيا ، فانه ليس جزءا من روحه . اليوم هو لى ، وغدا لابنى ، وبعد غد لدائنه . وبما أن النقود ليست ملكا لأحد فى الواقع فأى لوم يمكن أن يقع على رجالنا الوطنيين اذا هم أخذوها لينتفعوا بها بدلا من تركها لولد فاسد ؟

ان جسمى كله يرتجف حين أسمع كلمات سنديب ينطقها هذا الفتى . ليلعب السحرة بالثعابين ما شاءوا ، فان أصابهم أذى فانهم مستعدون له . ولكن هؤلاء الصبية فيهم من البراءة ما يستنفر العالم كله ليحميهم ببركته . انهم يلعبون الثعبان جاهلين بطبعه ، وحين نراهم يبتسمون فى ثقة وهم يضعون أيديهم حيث تبلغ ناباه ، عند ذلك ندرك ما فى الثعبان من خطر فظيع . ان سنديب على حق حين يشك أنى وإن رضيت لنفسى الموت على يديه فسوف أفطم منه هذا الصبى وأنقذه .

سألت مبتسمة : اذن فالمال مطلوب لينتفع به رجالكم الوطنيون؟ فقال أموليا بفخر : أجل ! أليسوا ملوكنا ؟ ان الفقر ينتقص من قدرتهم الملكية . أتعلمين أننا نصر دائما على أن يسافر سنديب بابو فى الدرجة الاولى ؟ وهو لا ينفر قط من علائم التكريم الملكى - انه يتقبلها لا من أجل نفسه بل لعزتنا جميعا . لقد أنبأنا سنديب بابو أن أعظم سلاح عند أولئك الذين يحكمون العالم هو مغناطيسية مظهرهم . فليس التزام الفقر بالنسبة اليهم قمعا للنفس فحسب ، بل انه انتحار .

وهنا دخل سنديب الحجرة بلا صوت ، فطرحت شالى على

صندوق الحلى بحركة سريعة . وسأل بنبرة ساخرة : لم ينته الحديث الخاص بعد ؟

فقال أموليا معتذرا : بلى . قد انتهينا . لم يكن أمرا ذا بال .

قلت : لا يا أموليا . اننا لم ننته بعد .

فقال سنديب : اذن فليخرج سنديب للمرة الثانية ؟

— اذا سمحت .

— وماذا عن عودة سنديب ...

— اليوم لا . ان وقتى لا يتسع .

فقال سنديب وعينه تبرقان : هكذا ...! الوقت لا يسمح الا بالاحاديث الخاصة !

انها الفيرة ! عندما يبدى الرجل القوى ضعفا ، هنالك لا يملك الجنس الاضعف الا أن يدق طبول النصر . وهكذا كررت فى حزم :

حقا ان وقتى لا يتسع .

فخرج سنديب وقد اربد لونه . وانزعج أموليا انزعاجا شديدا .

قال مجادلا : يا أختى الرانى ، ان سنديب غاضب .

فقلت بشيء من الحدة : لا شيء يدعو الى الغضب ، ولا حق له فى أن يغضب . دعنى أحذرك من شيء واحد يا أموليا : لا تخبر سنديب بأبو شيء عن بيع حلى - بحياتك لا تفعل !

— لن أفعل .

اذن يحسن ألا ننتظر . اذهب بقطار الليل .

وغادرنا الحجرة أنا وأموليا معا . وحين خرجنا الى الشرفة كان سنديب واقفا هناك ، ولم يخف على أنه كان منتظرا ليتصيد أموليا . والأمنع ذلك كان لأبد أن أشغله . فسألته : ماذا أردت أن تقول لى يا سنديب بابو ؟

— ليس لدى شيء بعينه أريد قوله - لكن بعض الحديث ، ومادام وقتك لا يتسع ...

— أستطيع أن أمنحك قليلا منه .

وكان أموليا قد ذهب . فسألنى سنديب ونحن ندخل الحجرة :

ما ذلك الصندوق الذى حمله أموليا ؟

ان الصندوق لم يخف عن عينيه . بيد انى ظلت راسخة .

قلت : لو كان لى أن أخبرك لأعطيته اياه فى حضورك !

— اتظنين اذن أن أموليا لن يخبرنى ؟

— لن يفعل .

ولم يعد سنديب قادرا على اخفاء غضبه . فانفجر صائحا :
أتحسبن أنك سوف تعلن على ؟ ان ذلك لن يكون أبدا . أموليا
هذا لو رضيت أن أدوسه تحت قدمي لمات سعيدا . اننى لن أسمح
لك ما حييت بأن تجعله يركع عند قدميك !

أوه ، الضعيف ، الضعيف ! أخيرا أدرك سنديب أنه ضعيف
أمامى ! هذا سبب غضبه المفاجئة . لقد فهم أنه لا يستطيع أن
يقابل سلطاني بالقوة وحدها . فأنا أستطيع بنظرة أن أجعل أقوى
حصونه يتداعى . اذن فلا بد له أن يلجأ الى التهديد . واكتفيت
بأن ابتسمت فى احتقار صامت . أخيرا استطعت أن أعلو عليه .
يجب ألا أتخلى عن موقعى هذا أبدا . يجب ألا أهبط ثانية .
وسط كل انحدارى يجب أن تبقى لى هذه القطعة من الكرامة !
قال سنديب بعد هنيهة : أنا أعلم أنه كان صندوق حليك .

قلت : لك أن تخمن ما تشاء ! ولكنك لن تظفر بشيء منى .
- اذن فأنت تثقين بأموليا أكثر مما تثقين بى ؟ أتعلمين أن هذا
الصبى هو ظل ظالى ، صدى صداى ، انه لا شيء ان لم اكن
بجانبه ؟

- حيث لا يكون صداك يكون هو نفسه ، أى أموليا ، وهناك أثق
به أكثر مما أستطيع أن أثق بصداك !

- لا تنسى أنك أخذت على نفسك عهدا بأن تهبى كل حليك
لعبادة الأم المقدسة . بل أنك قدمت هذه الهبة فعلا .
- مهما تبقى لى الآلهة من حلى توهب للآلهة . ولكن كيف أهب
ما سرق منى ؟

- انظرى ! عبثا تحاولين الرواغ منى هكذا . لقد حان وقت
العمل العبوس ، فلينته هذا العمل ولك بعد ذلك أن تبدى من كيدك
النسوى ما يبهج فؤادك ، وسوف أساعدك فى لعبتك .

منذ سرقت نقود زوجى ودفعتها الى سنديب توقفت الموسيقى
التي كانت فى علاقاتنا . لم أضيع كل قيمتى بارخاص نفسى
فحسب ، بل ان قدرات سنديب فقدت مجال نشاطها الكامل
أيضا . أنك لا تستطيع أن تبدى مهارتك فى الرماية اذا كانت الرمية
فى قبضتك . وكذلك فقد سنديب منظر البطل ، ودخلت فى كلماته
نبرة شجار سوقى .

ظل سنديب مثبتا عينيه اللامعتين على وجهى حتى بدتا وكأنهما
تتلهبان بكل ظمأ سماء الظهيرة . وحرك قدميه مستوفزا مرة أو

مرتين ، وكأنه يهيم بالانقضاض على . وكان جسمي كله كأنه يسبح ، وعروقي تنبض ، والدم الحار يصعد الى أذني ، وشعرت أني ان بقيت هناك فلن أقوم أبدا . فانتزعت نفسي عن الكرسي بجهد بالغ ، وأسرعت نحو الباب .

وجاءت من حلق سنديب الجاف صرخة مكتومة : أين تهريين يا ملكة ؟ وفي لحظة نهض عن كرسیه وثبا ليمسكني . غير أنه تراجع مسرعا لوقع خطأ خارج الباب ، وانحط في كرسیه ثانية . وقيدت خطاي قرب رف الكتب حيث وقفت أحملق في العناوين . وصاح سنديب حين دخل زوجي الحجرة : ترى هل تحتفظ ببروننج بين كتبك هذه يا نيكهيل ؟ لقد كنت أحدث الملكة الساعة عن نادينا في الكلية . أتذكر مسابقتنا في ترجمة هذه الابيات لبروننج ؟ ألا تذكر ؟

« ما كان لها أن تنظر الى

لو كانت تقصد ألا أحبها .

كثيرون هم . . . من يدعون رجالا ،

الذين تكشف لهم روحها ،

ولكنها تترك معظمهم كما وجدتهم ،

أما أنا فلست مثلهم ،

ولقد علمت ذاك ،

حين أثبتتني ، وعيناها تجولان حولهم . »

لقد استطعت أن أجمع الكلمات لأوديتها في البنغالية ، ولكن

النتيجة لم تكن « متعة خالدة » لأبناء البنغال ، بل لقد حسبت

مرة أني على وشك أن أصبح شاعرا ، ولكن القدر أنقذني من

هذا البلاء . أتذكر داكشيننا العجوز ؟ لو لم يصبح مفتش ضرائب

لكان شاعرا . انني أذكر ترجمته الى اليوم . . .

لا ياملكة ، لافائدة من النبش في هذه الارفف . لقد كف نيكهيل

عن قراءة الشعر منذ زواجه - ولعله لم يعد بحاجة اليه ، ولكني

أظن « حمى الشعر » ، كما تسمى بالسنسكريتية ، توشك أن

تنتابني مرة أخرى .

قال زوجي : لقد جئت لأحذرك ياسنديب .

- من نوبة حمى الشعر !

فلم يبال زوجي بهذه المحاولة للهزل . واستمر يقول : ان الوعاظ

المسلمين يطوفون منذ مدة محرضين السكان المسلمين . وكلهم

حانقون عليك ، وقد يهاجمونك في أية لحظة .

— هل جئت تنصح بالهجرة ؟

— لقد جئت لأنبئك لا لأنصحك .

— لو كانت هذه الضياع ملكي لكان الوعاظ هم المحتاجين للتحذير لا أنا ، ولو خشنت لهم بدلا من أن تحاول تخويفي لكان أجدر بك وبى . هل تعلم أن ضعفك يضعف ملاك الاراضى جيرانك أيضا ؟

— اننى لم أقدم اليك نصحي ياسنديب ، وأود أن تمتنع أنت أيضا عن تقديم نصحك الى . ثم انه غير مجد . هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به ، انك وأتباعك قد لبثتم ترهقون سسكان ارضى وتؤذونهم فى الخفاء ، ولا يمكننى أن أسمح باستمرار ذلك ، لهذا يجب على أن أسألك مغادرة ارضى .

— خوفا من المسلمين ، أم أن هناك خوفا آخر تهددنى به ؟
— هناك أنواع من الخوف يكون انعدامها جينا . باسم تلك المخاوف أمرك يا سنديب أن ترحل . سأكون فى طريقى الى كلكتا بعد خمسة أيام ، وأريد أن ترافقنى . ولك بالطبع أن تقيم فى منزلى هناك ، فلا اعتراض لى على ذلك .

— حسنا ، اذن فلا يزال لدى خمسة أيام . والآن ياملكة دعينى أغنى لك أغنية فراقى لخليتك . آه يا شاعر البنغال الحديثة ! افتح أبوابك ودعنى أنهب كلماتك . انك أنت السارق حقا لأن الاغنية التى جعلتها ملكك هى أغيتى . فليكن الاسم لك كما تشاء ولكن الاغنية لى .

قال سنديب ذلك وانطلق يغنى بصوت عميق أجش . يوشك أن يخرج عن النغمة . أغنية من مقام البهايرافى :

« فى ربيع مملكتك يا مليكتى .

« تتعاقب اللقيا والفراق فى طراد لاينتهى ،

« وتورق الزهور على آثار اللواتى ذبلن ومتن فى الظلال .

« فى ربيع مملكتك يا مليكتى .

« لقيائى واياك كانت لها أغانيها .

« أما لرحيلى هدية يقدمها اليك ؟

« بلى ، هى الامل الخفى خبأته فى ظلال جنة أزهارك

« أن تندى أمطار تموز نيران حزينائك . »

كان جسورا ايما جسارة ، جسارة سافرة عارية كالنار ، لا يلحقها

المرء ليوقفها الا كما يقاوم صاعقة : البرق يخطف ، يضحك من كل مقاومة .

غادرت الحجرة . وبينما كنت أعبّر الشرفة نحو الحجرات الداخلية ظهر أموليا فجأة وجاء ووقف أمامي . قال : لا تخشى بئسا يا أختي الراني . أنى ذاهب الليلة ولن أعرد خائبا .

قلت وأنا أحد النظر الى وجه الفتى الجاد : أنا لا أخاف على نفسي شيئا ، ولكننى أدعو ألا ينقضى خوفي عليك أبدا .

والتفت أموليا ليذهب ، ولكننى ناديته قبل أن يفيب عن عيني وسألته : ألك أم يا أموليا ؟

— أجل .

— وأخت !

— لا . اننى وحيد أُمى . أبى مات وأنا طفل صغير .

— اذن عد الى أمك يا أموليا .

— لكن يا أختي الراني ، ان لى الآن أما وأختا .

— اذن تعال يا أموليا قبل أن تسافر الليلة ، وتناول عشاءك هنا .

— لن يتسع الوقت لذلك . زودينى بطعام للرحلة مبارك من يدك .

— ما أحب طعام اليك يا أموليا ؟

— لو كنت مع أُمى لأخذت كثيرا من كعك « البوش » . اصنعى

لى بعضا منه بيدك يا أختي الراني !

الفصل العاشر

حكاية نيكهيل

- ١٢ -

علمت من أستاذي أن سنديب قد تحالف مع هاريش كوندو ، وأن احتفالا كبيرا سيقام لعبادة الآلهة مهلكة الشياطين . وراح هاريش كوندو يبتز النفقات من سكان أرضه ، وطلب من البانديت كافيراتنا والبانديت فيديا جافيش أن ينظما نشيدا مزدوج المعنى . وكان أستاذي قد جادل سنديب في هذا الأمر . وسنديب يقول : ان التطور يعمل عمله في الآلهة أيضا ، فلا بد للحفيد أن يعيد تشكيل الآلهة التي خلقها جده لتصبح موافقة له ، والا فإنه يصير ملحدا . ورسالتى هي أن أجدد الآلهة القديمة . لقد ولدت لأنقذ الآلهة وأحررهم من عبودية الماضي .

لقد عرفت منذ صباى كيف يلعب سنديب بالمعاني لعب الحواة . انه لا يهتم باكتشاف الحقيقة ولكنه يطرب للالغاز فيها . ولو ولد في أحراش أفريقية لقضى وقتا ممتعا في اختراع حجة بعد حجة لاثبات أن أكل لحوم البشر هو أمثل السبل لتنمية الاتصال الصحيح بين الانسان والانسان . ولكن الذين يتاجرون بالضلالة ينتهون باضلال انفسهم ، ويقينى الثابت أن سنديب يقنع نفسه بأنه قد وجد الحقيقة كلما اختلق مغالطة جديدة ، مهما يكن بين مختلفاته من تناقض .

ولكننى لن أكون عوناً على انشاء مصنع للخمور في بلادى . ان الشبان الراغبين في خدمة قضية بلادهم يجب ألا يتعودوا السكر ، وهؤلاء الذين يريدون أن يحصلوا على عمل بأساليب التخدير يهتمون بالاثارة أكثر مما يهتمون بالعقول التي يثيرونها .

كان لابد أن أبلغ سنديب ، في حضرة بيमالا ، بضرورة رحيله . ولعل كليهما سيفسران الدافع لى على ذلك تفسيراً خاطئاً . ولكننى يجب أن أتحرر أيضاً من كل خوف أن يسىء أحد فهمى ، ولو كان بيमالا ...

يتوافق من « دكا » عدد من الوعاظ المسلمين . كان المسلمون فى أرضى قد اكتسبوا كراهة لذبح البقر تكاد تساوى كراهة الهندوس لذلك ، ولكن حوادث ذبح الإبقار بدأت تظهر هنا وهناك . وقد سمعت الخبر أول الأمر من بعض السكان المسلمين الذين أبدوا استنكارهم له . كان موقفاً يصعب علاجه . ففى قراوته حمية دينية مصطنعة ، لن تبقى مصطنعة اذا كبحت . وفى هذا كانت عبقرية الحركة !

بعثت الى بعض السكان الهندوس وحاولت أن أبصرهم بالأمر على حقيقته . فقلت لهم : ان لنا أن نتمسك بعقائدها ، ولكن لا سلطة لنا على عقائد غيرنا . فمع أن فينا كثيراً من الفياشنافا ، فان الشاكتا من بيننا لا يزالون يقربون ذبائحهم ، هذا أمر لا مفر منه . وكذلك يجب علينا أن نترك المسلمين يفعلون ما يرونه صواباً . لهذا أرجو أن تمتنعوا عن كل شغب .

فأجابوا : يا مهراجا ، لقد هجرت هذه الاساءات زمناً طويلاً . قلت : أجل ، كان ذلك لأنهم شاءوه هم أنفسهم . فليكن مسلكنا بحيث يساعد على تحقيق ذلك مرة أخرى . ولكن نقض السلام لا يساعد على تحقيقه .

فأصروا : لا يا مهراجا . لقد ذهبت تلك الايام . ولن يقف هذا الأمر الا أن تقمعه قمعا .

قلت : ان الاضطهاد لن يمنع قتل الإبقار ، وقد يؤدى الى قتل الناس أيضاً .

وكان أحدهم قد تلقى تعليماً انجليزياً ، وتعلم ترديد العبارات الجارية ، فاحتج بقوله : ليست المسألة مسألة عقيدة فقط . ان بلادنا تعتمد على الزراعة ، والإبقار ..

فقاطعته قائلاً : ان الجاموس فى هذه البلاد أيضاً يؤخذ لبنه ويستخدم فى الحرث . وما دمننا نرقص رقصات جنونية على أفارين معابدنا وقد تلطخنا بدمائها وحملنا رءوسها المقطوعة على أكتافنا فان الدين سيسخر منا لو تنازعنا نحن والمسلمون فيها ، والحقيقة الوحيدة التى ستبقى هى النزاع . واذا كانت البقرة وحدها دون

الجاموسة هي المقدسة التي لاتذبح فان هذا لا يكون ديننا بل تعصبا .
وواصل الساكن الذي يعرف الانجليزية قوله : لعلك لا تعلم
ياسيدى ما وراء هذا كله ؟ ان هذا لم يصبح ممكنا الا لأن المسلم
آمن ولو خرق القانون . ألم تسمع بقضية باتشور ؟

فسألت : وكيف أمكن استخدام المسلمين ضدنا ؟ ألسنا نحن
الذين دفعناهم الى ذلك بتعصبا ؟ هكذا يعاقبنا القدر . ان ذنوبنا
المتراكمة تقع على رءوسنا .

- حسنا ، فلتقع . ولكننا سننتقم . لقد قضينا على أعظم
قوة للسلطات وهي ولاؤها لقوانينها . انهم كانوا مرة ملوكا حقا
يقيمون العدالة ، والآن أصبحوا هم أنفسهم خارجين على القانون ،
فليسوا اذن أفضل من اللصوص . قد لايسجل التاريخ هذا ولكننا
سنحمله في قلوبنا على مدى الزمن .

أقاول السوء التي تتناقلها الصحف عنى تجعل لى شهرة ذميمة .
وثمة خبر يقول : ان صورتي أحرقت فى محرقة آل تشاكرا فارتي
المجاورة النهر بما ينبغى من احتفال وحماسة . وهناك اهانات
أخرى تعد . وكان سبب هذه المتاعب أنهم جاءوا يطلبون منى
المساهمة فى مصنع لنسج القطن أرادوا انشاءه ، فاضطرت أن
أقول لهم : انى لا أبالى بضياع نقودى ولكنى لا أحب أن أشارك
فى انزال الخسارة بكثير من المساهمين الفقراء . فقال زائرى : هل
نفهم من هذا يا مهراجا أنك غير معنى بتقدم البلاد ؟

فقلت موضحا : ان الصناعة قد تؤدى الى تقدم البلاد ، ولكن
مجرد الرغبة فى تقدمها لا يؤدى الى نجاح الصناعة . ان صناعاتنا
لم تزدهر عندما كانت رءوسنا أهدا ، فلماذا تقدر أنها ستزدهر
لغير سبب الا أننا أصبحنا مجانين ؟

- هلا قلت بصراحة : انك لا ترغب فى المخاطرة بنقودك ؟

سأقدم نقودى عندما أرى انكم مهتمون بالصناعة حقا . لكن اذا
كنتم قد أشعلتم نارا فلا يستنتج من ذلك أن لديكم طعاما تطهونه
عليها .

- ١٣ -

ما هذا ؟ خزانتنا الفرعية فى « تشاكنا » نهبت ! كان من المقرر
أن تصل ٧٥٠٠ روبية من هناك الى المركز الرئيسى ، وكان صراف
الاقليم قد بدل العملة المعدنية من خزانة الحكومة بأوراق نقدية

حتى يسهل عليه حملها ، وتركها مجهزة في حزم . وفي جوف الليل أغارت عصابة مسلحة على الحجرة ، وجرحوا الحارس «قاسما» والغريب في الأمر أنهم لم يأخذوا الا ستة آلاف روبية ، وتركوا الباقي مبعثرا على الارض ، مع انه كان من السهل عليهم أن يأخذوه أيضا . على كل حال انتهت غارة اللصوص لتبدأ غارة الشرطة . ولم يعد السلام في الامكان .

عندما دخلت البيت وجدت الخبر قد سبقني اليه . صاحت الباراءانى : ما أفزع الأمر يا أخى ، ماذا نستطيع أن نعمل ؟ فهونت الأمر عليها . قلت مبتسما : لا يزال لدينا بعض النقود، ونستطيع أن ندبر حالنا .

— لا تجعلها ضحكة يا أخى العزيز . لماذا كلهم غاضبون عليك ؟ ألا تستطيع ارضاءهم ؟ لماذا تجعل الجميع ضدك ؟

— لا يمكننى أن أترك البلاد تسير الى الخراب ولو كان فى ذلك رضا الجميع .

— كان شيئا فظيحا هذا الذى فعلوه فى المحرقة . عار أن يعاملوك هكذا . لقد تخلصت تشوتا رانى من جميع مخاوفها بفضل تعليم المرأة الانجليزية ، أما أنا فلم أجد بدا من أن أبعث الى الكاهن ليطرد النحس حتى أجد شيئا من الراحة . أرجوك يا عزيزى ، من أجل خاطرى ، ترحل الى كلكتا . انى أرتجف من التفكير فيما يمكن أن يفعلوه ان بقيت هنا .

تأثرت تأثرا عميقا لاشفاقها الصادق ومضت زوجة أخى تقول : — ويا أخى ، ألم أحذرك من الاحتفاظ بهذه النقود الكثيرة فى حجرتك ؟ انهم لا يبعد أن يشموا خبرها يوما . لا تهمنى النقود — لكن من يدري ..

والكى أطمئنها وعدت بنقل النقود الى الخزانة على الفور ثم ارسالها الى كلكتا مع أول حرس ذاهب . وذهبنا معا الى حجرة نومى . كان باب حجرة الملابس مغلقا . وحين طرقته صاحت بييمالا : انى ألبس ..

فقالت زوجة أخى فى دهشة : عجبا لتشوتا رانى ، تلبس فى هذا الوقت المبكر ! لعله أحد اجتماعات « باندى ماترم » . ونادت بييمالا ممازحة : أيتها الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك عندك ؟

وقلت خارجا الى حجرة مكتبى : سأعنى بأمر النقود بعد قليل .

وجدت مفتش الشرطة في انتظاري ، فسألته : هل من أثر للصوص ؟؟

- انى اظن ذلك .

- من ... ؟

- قاسم ، الحارس .

- قاسم ، ألم يجرح ؟

- شيئاً غير ذى بال . جرحاً سطحياً في الساق ، لعله هو الذى أحدثه .

- ولكنى لا أستطيع أن أصدق . انه خادم جد أمين .

- لعلك كنت تأتمنه ، ولكن ذلك لا يمنع أنه لص . لقد رأيت رجالاً يؤتمنون عشرين سنة ثم يتحولون فجأة ...

- حتى ان صح هذا فانى لا أستطيع إرساله الى السجن . ولكن لماذا يترك بقية النقود وهى أمامه ؟

- ليضللنا . مهما ثقل يا مهراجا فلا بد أنه لص أزرق الناب .

- انه يقوم بالحراسة فى نوبته ، هذا صحيح ، ولكنى واثق أن له اصبعاً فى جميع السرقات التى تحدث فى هذه المنطقة .

- وبدأ المفتش يسرد الطرق المختلفة التى يمكنه بها أن يشترك فى سرقة على بعد عشرين ميلاً أو ثلاثين ثم يعود قبل موعد نوبته . فسألته : هل أحضرت قاسماً الى هنا ؟

- وكان الجواب : لا ، انه فى الحجز ، وسيحضر المحقق لاستجوابه .

- فقلت :: أريد أن أراه .

- وحين فذهبت الى زنزانه ركم عند قدمى باكياً وقال : أقسم بالله

- انى لم أفعل هذا الشيء !

- فطمأنته قائلاً : أنا لا أشك فىك يا قاسم . لا تخش شيئاً .

- انهم لن يفعلوا بك شيئاً اذا كنت بريئاً .

- ولكن قاسماً عجز عن أن يقدم وصفاً مترابطاً للحادث . وكان

- من الواضح انه يبالغ ، فقد كان فى قصته أربعمئة رجل أو

- خمسمئة ، ومدافع كبيرة ، وسيوف لا تحصى . ولا بد أن ذلك

- كان راجعاً الى هوشة عقله أو الى رغبته فى تفسير انهزامه

- السريع . وكان رأيه أن هذا تدبير هاريش كوندو ، بل لقد زعم

- انه سمع صوت « اكرام » كبير خدام آل كوندو .

- واضطرت أن أحذره بقولى : اسمع يا قاسم ! لا تجر اناساً

آخرين بحكاياتك . انك غير مطالب بتوجيه اتهام الى هاريس كوندو
او الى غيره .

- ١٤ -

حين عدت الى المنزل دعوت استاذى . فhez رأسه بحزن وقال :
أنا لا أرى فى هذا خيرا . هذا الاطراح للضمير واحلال الوطن محله .
الآن ستنطلق كل آثام البلاد مروعة لا تستحى .
- من تظنه ...

- لا تسألنى . ولكن الاثم يستشرى . اطردهم جميعا .
اطردهم فورا من هنا .

- لقد أعطيتهم يوما آخر ، وسوف يرحلون بعد غد .
- وشيء آخر .. خذ بيমাالا الى كلكتا . انها تنظر الى العالم
الخارجى من هنا نظرة جد ضيقة ، فهى لا تستطيع أن ترى الناس
والاشياء فى نسبها الحقيقية . دعها تر الدنيا - الناس وعملهم -
أتح لها نظرة أوسع .

- هذا بعينه ما كنت أفكر فيه .

- اذن فلا تتوان عن تنفيذه . واعلم يا نيكهيل أن تاريخ الانسان
يجب أن يبنى بتضافر جهود جميع الاجناس فى العالم ، ولذا فلن
ينفع بيع الضمير هكذا من أجل أسباب سياسية ، وجعل وطن
المرء معبودا خاصا له . أنا أعلم أن أوروبا لا تسلم بذلك فى صميم
قلبها . ولكنها لا تستطيع أن تدعى لنفسها الحق فى الوقوف منا
فى هذا الأمر موقف المعلم . ان الرجال الذين يموتون فى سبيل
الحق يخلدون ، واذا استطاع شعب بأسره أن يموت فى سبيل الحق
فانه سيخلد أيضا فى تاريخ البشرية . فليصبح هذا الشعور نحو
الحق واقعا هنا فى أرض الهند ، بين ضحك الشيطان الذى يخترق
السماء ! أى وباء من الاثم مروع حمل الى بلادنا من أراض أجنبية .
مر اليوم كله فى دوامة من التحقيق . وكنت منهكا حين أويت
الى فراشى مؤجلا ارسال نقود زوجة أخى الى الخزانة حتى الصباح
التالى .

وصحوت من نومى فى سكون الليل . كانت الحجرة مظلمة .
وخلت انى سمعت أنينا فى مكان ما . لابد أن أحدا كان يبكى .
جاءت أصوات النحيب مثقلة بالدموع كنفثات الريح فى ليل مطير .
وخيل الى أن الصراخ ينبعث من قلب حجرتى . كنت وحيدا ،
فقد نقلت بيমাالا سريرها منذ بضعة أيام الى حجرة مجاورة لحجرتى،

تقمت وحين خرجت وجدتها في الشرفة منبطحة على وجهها فوق الارض العارية .

هذا شيء لا يمكن أن يكتب بكلمات . انما يعلمه من هو مستو في صدر العالم يتلقى نبضات الألم منه في قلبه هو . السماء بكاء ، النجوم خرساء ، الليل هامد ، وفي وسط هذا كله صرخة واحدة لا تنام !

اننا نعطي هذه العذابات أسماء ، رديئة أو حسنة ، حسبما تصنفها الكتب . لكن هل ثمة اسم لهذا الوله النابع من قلب ممزق ، يصب في الظلام الذي لا قرار له ؟ عندما نظرت الى ذلك الشبح ، في قلب ذلك الليل ، وانا واقف تحت النجوم الصامته ، عرtnى رهبة وقلت لنفسي : « من أنا حتى أدينها ؟ » يا حياة ، ياموت ، يا الله ، يا من تقصر عن وجودك الحدود ، اننى أحنى رأسى صامتا أمام شرك .

فكرت مرة أن أرجع ، ولكنى لم أستطع فجلست على الارض قرب يمالاً ووضعت يدي على رأسها . عند أول لمسة بدا كأن جسمها كله تصلب ، ولكن الصلابة استرخت في اللحظة التالية ، وانفجرت الدموع . وأمررت أصابعى برفق على جبينها ، وفجأة أمسكت يداها المتلمستان بقدمى واحتضنتهما بقوة حتى ظننت أن قلبها ينشق .

حكاية يمالا

- ١٨ -

موعد أموليا أن يعود من كلكتا هذا الصباح . أمرت الخدم أن ينبئوني ساعة وصوله ولكنى لم أستطع أن أقر فى مكانى . وأخيرا خرجت لأنتظره فى حجرة الجلوس .

اخالنى لم أكن أفكر فى غير نفسى عندما أرسلته لبيع الحلى . فلم يخطر ببالى أن مثل هذا الصبى الصغير يتعرض للشبهة على الفور اذا حاول أن يبيع حليا ثمينة كهذه . نحن النساء ضعيفات الحيلة حتى اننا لنحمل غيرنا عبء الخطر المصدق بنا ، وعندما ننساق الى موتنا نجر من حولنا اليه .

لقد قلت فى فخر اننى سأنقذ أموليا . كأنما تستطيع الفرقة أن تنقذ غيرها . ولكننى بدلا من أن أنقذه أرسلته الى هلاكه . يا أخى الصغير ، أى أخت كنت لك ! لاشك أن الموت ابتسم فى يوم الاخ ذاك حين منحتك بركتى - أنا التى أهيم شاردة اللب تحت عبء خطاياى .

أشعر اليوم أن الانسان يهاجمه الشر أحيانا كما يهاجمه الوباء . جرثومة تجد طريقها من مكان ما ، وفى مدى ليلة يدخل الموت بخطاه الخشبية . لماذا لا يبعد المصاب عن سائر الناس ؟ أنا على الاقل عرفت فظاعة العدوى ، كمشعل نارى يحترق ليضرم النار فى العالم . دقت التاسعة . ولم أستطع أن أتخلص من فكرة أن أموليا فى مأزق ، وانه قد وقع فى ايدى الشرطة . لابد أن هناك هياجا شديدا فى مركز الشرطة - من صاحبة الحلى ؟ - من أين حصل عليها ؟ وعلى أخيرا أن أقدم الجواب علنا ، على رءوس الاشهاد . ماذا يكون ذلك الجواب ؟ هذا يومك يا بارا رانى ، أنت التى طالما احتقرتك . ستنالين قصاصك وأنت فى صورة الجمهور ، فى صورة الدنيا . رباه ! جنبنى هذه الساعة ، فأطرح كل كبريائى عند قدمى سلفتى .

لم أعد أطيق صبرا . فذهبت توا الى البارا رانى . كانت فى الشرفة تقطع أوراق «التنبول» كعادتها وثاكو بجانبها . وأجفلت لحظة حين رأيت ثاكو ، ولكنى تغلبت على كل تردد ، وانحنيت انحناء عميقة ومسحت التراب عن قدمى سلفتى . فصاحت : عجباً لك ياتشوتا رانى ! ماذا أصابك ؟ لم هذه التحية المفاجئة؟ قلت : انه يوم ميلادى يا أختى . لقد سببت لك آلاما كثيرة . فامنحنى بركتك اليوم حتى لا أعود الى ذلك . ان عقلى صغير . وكررت انحنائى وتركتها مسرعة ، ولكنها نادتنى :

— لم تخبرينى قط ان هذا يوم ميلادك يا حبيبتى «تشونى» ! يجب ان تتغدى عندى اليوم . يجب ، يجب .

رباه ، اجعله حقا يوم ميلادى ! ألا يمكن أن أولد من جديد؟ امسح أوضارى ياربى ، طهرنى واختبرنى مرة أخرى ! ذهبت ثانية الى حجرة الجلوس لأجد سنديب هناك . فخيل الى أن شعورا بالتقزز يسمم دمى نفسه . لم يكن فى وجهه الذى رأيته فى ضوء الصباح شئ من ألق العبقريّة . صحت : اخرج من الحجرة !

فابتسم سنديب قائلا : مادام أموليا غير موجود فأظن أن دورى قد جاء لحديث خاص .

كان قدرى ينصب على من جديد . كيف أنزع حقا أنا منحته . كررت : أحب أن أبقى وحيدة .

قال : يا ملكة ، ان وجود شخص آخر لا يمنع أن تكونى وحيدة . لا تحسبى واحدا من الدهماء . أنا — سنديب — وحيد أبدا ، ولو كان حولى ألوف .

— أرجوك أن تأتى فى يوم آخر . اننى فى هذا الصباح .. — تنتظرين أموليا ؟

وتحولت من غيظى لأترك الحجرة ، واذا بسنديب يخرج من بين ثنايا عباءته صندوق حلى ويضعه بقوة على المنضدة الرخامية . وتملكتنى الدهشة ، فصحت : ألم يذهب أموليا اذن ؟

— الى أين ؟

— الى كلكتا .

فتهاف سنديب : لا .

اذن فقد صحت بركتى على الرغم من كل شئ . لقد أنقذ . فليقع عقاب الله على ، فأنا الاصل ، وليبق أموليا فى مأمن !

أثار تغير طلعتى احتقار سنديب ، فقال ساخرا : كل هذا السرور يا ملكة ! أهذه الحلوى ثمينة جدا الى هذا الحد ؟ كيف استطعت اذن أن تتغلبى على نفسك حتى تهيبها للالهة ؟ لقد أعطيت هبتك فعلا ، أتحيين أن ترجعى فيها الآن ؟
ان الكبرياء تدافع عن نفسها حتى الموت ، وترفع مخالبتها الى اللحظة الاخيرة . لقد وضح لى أننى يجب أن أبدى لسنديب استهانته بهذه الحلوى ، فقلت : خذها ان كانت تثير طمعك .
فأجاب سنديب : ان طمعى اليوم يحيط بكل ثروة البنغال . هل هناك قوة أعظم من الطمع ؟ انه ركوبة عظماء الارض ، كما أن الفيل ايراوات ركوبة اندرا . هذه الحلوى هى اذن لى ؟
وبينما كان سنديب يتناول الصندوق ويعيده تحت عباءته اندفع أموليا داخلا . كانت تحت عينيه حلقات سوداء ، وكانت شففتاه جافتين ، وشعره مشعثا ، وكأنما ذبلت نضرة شبابه فى يوم واحد . واعتصر الألم قلبى حين نظرت اليه . صاح وهو يمضى الى سنديب دون أن ينظر نحوى : صندوقى ! هل أخذت صندوق الحلوى هذا من حقيبتى ؟

فقال سنديب ساخرا : صندوق حليك ؟
— انها حقيبتى !

فانفجر سنديب ضاحكا : لقد أصبحت ضعيف التمييز بين مالك ومالى يا أموليا . وما أحسبك الا ستموت واعظا دينيا . غاص أموليا فى كرسى وقد أخذ وجهه بين يديه . فذهبت اليه ووضعت يدي على رأسه وسألته : ما يحزنك يا أموليا ؟
فأجاب وهو يقف معتدلا : لقد منيت نفسى يا أختى الرانى أن أرد هذه الحلوى اليك بيدي . وكان سنديب بابو يعلم ذلك ولكنه سبقنى .

قلت : وما قيمة الحلوى لى ؟ فلتذهب . اننى لن أضر .
فسأل الفتى مذهولا : تذهب ؟ أين ؟
قال سنديب : ان الحلوى لى . هبة من ملكتى !
فصاح أموليا ثائرا : لا ، لا ، لا ! لن يكون ذلك يا أختى الرانى . لقد أحضرتها لك ، فلن تعطيها لانسان آخر .
قلت : اننى أقبل هديتك يا أخى الصغير . ولكن دع من يحلم بها يرضى طمعه .
فحملق أموليا فى سنديب كوحش ضار ، وزمجر : اسـمع

يا سنديب بابو ، أنت تعلم انى لا أخاف الشنق نفسه ، لو جرؤت على ان تأخذ هذا الصندوق ..

فقال سنديب وهو يحاول أن يصطنع ضحكة سخرية : ينبغي أن تكون قد علمت أيضا يا أموليا انى لست بالرجل الذى يخافك . ومضى يقول ملتفتا الى : يا ملكة ، اننى لم آت الى هنا اليوم لأخذ هذه الحلوى ، بل لأقدمها اليك . فلو أخذت هديتى من يدى أموليا لكنت مخطئة . لقد كان على أن أجعلها ملكا خالصا لى أولا حتى أمنع ذلك . والآن أهدى اليك جواهرى هذه . اليك ! تفاهى مع هذا الفتى كما تشائين ، فانى ذاهب . لقد شغلتما بأحاديثكما الخاصة كل هذه الايام ، وجعلتمانى بمعزل . فان حدثت أمور خاصة الآن فلا تلومانى .

وأردف : أموليا ! لقد أرسلت حقائبك وأمتعتك الى مسكنك . فلا تبق شيئا مما تملكه فى حجرتى بعد الآن . أطلق سنديب هذه الرصاصة الاخيرة ، واندفع خارجا من الحجرة .

- ١٩ -

قلت لأموليا : لم أعرف راحة القلب منذ بعثتك لتبيع حلى .
- لماذا يا أختى الرانى ؟

- خفت أن تقع فى المتاعب بسببها ، فيشكوا أنك لص . وكان أهون على أن أستغنى عن هذه الستة آلاف من الروبيات . الآن يجب عليك أن تفعل شيئا آخر من أجلى . عد الى بيتك حالا . عد الى أمك .

فأخرج أموليا ربطة صغيرة وقال : ولكننى أحضرت الستة آلاف يا أختى .

- من أين ؟

فمضى يقول دون أن يجيب عن سؤالى : لقد اجتهدت فى أن أحصل على ذهب ولكنى لم أستطع ، فاضطرت أن أحضرها أوراقا .

- قل لى الحق يا أموليا . احلف بحياتى . من أين حصلت على هذه النقود ؟

- هذا ما لن أخبرك به .

ورأيت كل شيء يظلم أمام عيني . صحت : ما هذا الأمر الفظيع الذى أتيت به يا أموليا ؟ أهو اذن ...

- أعلمك ستقولين انى حصلت على هذه النقود من طريق سيىء .
حسن جدا . انى أعترف بذلك . ولكنى دفعت ثمن اساءتى كاملا .
واذن فالنقود الآن لى .

لم تعد بى رغبة الى معرفة المزيد ، تقلصت عروقى نفسها ،
حتى جعلت جسمى كله ينكمش . وتضرعت : خذها يا أموليا .
ردها كما أخذتها .

- ان هذا جد عسير !

- ليس بعسير يا أخى العزيز . لقد كانت لحظة منحوسة تلك
التي جئتني فيها أول مرة . حتى سنديب لم يستطع أن يؤذيك
كما آذيتك .

وكأنما كان اسم سنديب طعنة له . صاح : سنديب ! انك أنت
وحدك التي جعلتني أعرف هذا الرجل على حقيقته . أتعلمين
يا أختى انه لم ينفق دانقا من تلك الجنيهاات الذهبية التي أخذها
منك ؟ لقد أغلق على نفسه باب حجرته بعد أن خرج من عندك
وراح يتأمل الذهب بعينين مشدوهتين ، وقد صبه فى كومة على
الأرض . وكان يصيح : « ليست هذه نقودا . انها أوراق الزهر
فى لوتس القدرة ، أنغام متبلورة من موسيقى النايات التي تعزف
فى جنة الثراء ! ان قلبى لا يطاوعنى على تبديلها ، فانى أراها
مشتاقة الى استيفاء حظها بتزيين جيد الجمال . أموليا يا ولدى ،
لا تنظر الى هذه بعين جسمك ، انها ابتسامة لاكشمى ، ضياء
ملكة اندرا الساطع . لا ، لا ، انى لا أستطيع تسليمها لذلك
الوكيل الجلف . أنا واثق يا أموليا انه كان يكذب علينا . ان الشرطة
لم تهتد الى الرجل الذى أغرق ذلك القارب . ان الوكيل هو الذى
يريد أن يخرج بشيء من الصفقة . يجب أن نسترد تلك الخطابات
منه » .

وسألته كيف نفعل ذلك ، فأمرنى أن أستخدم العنف أو
التهديد . وقبلت أن أنفذ قوله ان هو رد الذهب . فقال انه
سيفكر بعد فى هذا الأمر . ولن أثقل عليك يا أختى بالحديث عن
كل ما فعلته لأخيف الرجل حتى سلم هذه الخطابات وأحرقها ،
فهذه قصة طويلة . وفى تلك الليلة نفسها جئت الى سنديب وقلت :
نحن الآن آمنون . أعطنى الجنيهاات الذهبية لأردها غدا الى أختى
المهرانى . ولكنه صاح : ما هذه الفتنة منك ؟ ان ثوب أختك
العزيرة يوشك أن يحجب البلاد كلها عن عينيك . قل « باندى

ماترم « وأبعد عنك الروح الشريرة .

انك تعلمين يا أختى الرانى قوة سحر سنديب . لقد بقى الذهب معه ، وأمضيت الليل الطويل المظلم على درج البحيرة أتمتم : « باندى ماترم » .

ثم لما أعطيتنى الحلى لأبيعتها ذهبت ثانية الى سنديب . فلم يخف على انه غاضب منى . وان حاول ألا يظهر ذلك . قال وهو يلقي الى بمفاتيحه : « ان كنت لا أزال أكنزها فى صندوق من صناديقى فلك أن تأخذها » . ولم أعثر لها على أثر ، فقلت : أخبرنى أين هى . قال : « سأخبرك حين تذهب عنك هذه الفتنة » .

ولما رأيت انى لن أستطيع زحزحته اضطررت أن ألجأ الى طرق أخرى . فحاولت أن أحصل منه على الجنيهاات الذهبية ازاء أوراقى المالية وهى ستة آلاف روبية . فقال : « سأتيك بها » . ثم غاب فى حجرة نومه وتركنى أنتظر خارجها . وهناك فض حقيبتى وجاء اليك بصندوقك من طريق آخر . لقد أبى على أن أحضرها والآن يجرؤ على أن يسميها هديته . كيف أصف لك مقدار ما حرمنى منه ؟ اننى لن أغفر له أبدا .

ولكن سلطانه على قد انمحي تماما يا أختى . وأنت التى محوته . قلت : يا أخى العزيز ان صح ما تقوله فان حياتى لم تذهب عبثا . لكن لاتزال هناك أعمال أخرى يا أموليا . فلن يكفى تدمير السحر حتى يفصل دنسه . لا تؤجل الأمر أكثر من هذا . اذهب من فورك ورد النقود حيث أخذتها . ألا يمكنك أن تفعل ذلك أيها العزيز ؟

— ببركتك كل شيء ممكن يا أختى الرانى .

— تذكر ان ذلك لن يكون تكفيرا عنك وحدك بل عنى ايضا . فأنا امرأة ، والعالم الخارجى مفلق أمامى ، ولولا ذلك لذهبت بنفسى . ان أشد عقاب أتحملة هو انى أحملك وزرى .

— لا تقولى هذا يا أختى . ان الطريق الذى سرت فيه لم يكن طريقك . لقد اجتذبنى بأخطاره ومصاعبه . والآن وقد نادانى طريقك فليكن ألف مرة وأشد خطرا . فتراب قدميك سيساعدنى على الظفر . أتأمرين اذن برد هذه النقود ؟

— انا لا آمر يا أخى العزيز ، ولكنه أمر السماء .

— عن هذا لا أعلم شيئا . يكفينى أن هذا الأمر السماوى يصدر

من شفتيك ، ثم اننى يا أختى كنت أحسب لى دعوة ههنا . لست
بمضيعة . أعطينى « البراساد » (١) قبل ذهابى . وان استطعت
فسوف أتم واجبى فى المساء .
واغرورقت عيناي بالدموع حين حاولت أن ابتسم وأنا أقول :
فليكن ماتريد .

(١) طعام باركته لسه شخص ميجل (المترجم) .

الفصل الحادى عشر

حكاية يمالا

- ٢٠ -

لما رحل أموليا غاص قلبى بين جنبى . الى أى مهلكة بعثت
هذا الابن الوحيد ؟ رباه ! لماذا يكون لتفكيرى كل هذه الفخامة
والاحتفال ؟ ألا يسمح لى بأن أتعذب وحدى دون أن أدعو كل
هذا الجمع الى مشاركتى فى عقابى ؟ رباه ! لا تدع هذا الطفل
البريء يسقط ضحية لفضبك .

لقد ناديته ثانية : أموليا !

وكان صوتى ضعيفا فلم يبلغه ، فسرت الى الباب وناديت ثانية :
أموليا !

كان قد ذهب .

- من هناك ؟

- أمنا الرانى !

- اذهب وقل للأموليا اننى أريده .

ولست أدري ماذا حدث بالضبط . لعل الرجل لم يكن يعرف
اسم أموليا ، ولكنه عاد من فوره يتبعه سنديب . قال وهو
يدخل : لحظة طردتنى كنت أشعر أنك ستنادينى ثانية . ان
جاذبية القمر نفسه تحدث الجزر وألذ جميعا . لقد كنت واثقا من
استدعائى حتى انى انتظرت فى الدهليز ، وما كدت ألح خادمك
خارجا من حجرتك حتى قلت : « نعم ، نعم ، أنا آت ، أنا آت
على الفور ! » - قبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة . لقد دهش
هذا الغبى وحملق فى فاجر الفم ، وكأنه يحسبنى عالما بالسحر .
واستطرد سنديب : كل المعارك فى العالم يا مملكة هى فى واقع
الأمر معارك بين قوى مغناطيسية . سحر يقذف بسحر - أسلحة

لا صوت لها . تصل الى أهداف قد لا تبصرها العين . وأخيرا
لقيت فيك كفوًا لى . اننى أعلم أن جعبتك ملأى ، أيتها الملكة
المحاربة الماكرة ! أنت وحدك فى العالم التى استطعت ان تطردى
سنديب وتستدعيه على هواك . حسنا ، ان صيدك عند قدميك .
فماذا أنت فاعلة به الآن ؟ هل تجهزين عليه أم تبقينه فى قفصك ؟
دعيني أحذرك مقدما يا ملكة ، ستجدين التعجيل بقتل الوحش
صعبا كاستبقائه فى الأسر . على كل حال ، لماذا ضياع الوقت فى
تجربة أسلحتك السحرية ؟

لا بد أن سنديب شعر بظل الهزيمة المقتربة ، فراح يحاول كسب
الوقت بالثرثرة دون أن ينتظر جوابا . وأحسبه كان يعلم انى
بعثت الرسول فى طلب أموليا ، ولا بد أن الرجل ذكر اسمه ، ومع
ذلك فقد نعلم أن يلعب لعبته ، وهو الآن يحاول ألا يدع لى ثغرة
لأخبره ان أموليا هو من أردت لا اياه . ولكن هذه الحيلة لم تنتج .
فقد استشففت منها ضعفه . يجب ألا أترحزح قيد شعرة عن
الارض التى كسبتها .

قلت : سنديب بابو ! يدهشنى كيف تستطيع أن تمضى بلا
توقف فى هذه الخطب التى لا تنتهى . هل تحفظها مقدما عن ظهر
قالب ؟

فاحمر وجه سنديب فى الحال ، ومضيت أقول : لقد سمعت
ان خطباءنا المحترفين لديهم كتاب ملئ بجميع أنواع الخطب الجاهزة
التى يمكن ادخالها فى أى موضوع . أنت أيضا عندك كتاب ؟
فطحن سنديب جوابه بين أسنانه : لقد أعطاك الله معشر
النساء نصيبا وأفيا من الدل ابتداء ، ثم وجدتن فوق ذلك عوننا من
الحائك والجوهرى ، ولكن لا تحسبن اننا نحن الرجال ضعاف
الحيلة حتى ..

— خير لك أن ترجع وتذاكر كتابك ياسنديب بابو ، لقد أسمعت
كلماتك كلها خطأ ، وهذا عيب الترديد دون فهم .
فصاح سنديب وقد فقد كل سلطان على نفسه : أنت ! أنت
تهينينى هذه الأهانة ! ماذا بقى منك لا أعرفه حتى القرار ؟
ماذا ...

وارتج عليه .

ان سنديب صاحب الرقى السحرية يصاب بالعجز المطلق حين
تأبى رقيته أن تحدث أثرا . لقد هوى من ملك الى سوقة . أوه ،

ما أحلى رؤية ضعفه ! وكلما ازداد غلظة تدفقت الفرحة في نفسي .
ان حلقاته الثعبانية التي كان يأسرني بها قد ذهبت قوتها - اننى
حرة . لقد نجوت ، نجوت . اعنف بى ، أهنى ، فذلك يظهر
على حقيقتك ، لكن أعفى من أغنيات مديحك الكاذبة .

دخل زوجى ونحن على هذه الحال . ولم يجد سنديب من
المرونة ما يمكنه أن يملك نفسه في لحظة كعادته فيما مضى . فنظر
زوجى اليه دهشا . ولو حدث هذا منذ أيام لشعرت بالخجل ،
ولكننى اليوم مسرورة - مهما يظن زوجى . لقد أردت أن أفرغ
من أمر خصمى المتهالك .

تردد زوجى قليلا حين وجدنا كلينا صامتين متحفزين ، ثم
جلس على حافة كرسي . قال : سنديب ، لقد كنت أبحث عنك ،
وقيل لى انك هنا .

فقال سنديب بشيء من التأكيد : اننى هنا . الملكة أرسلت الى
فى الصباح الباكر ، وأنا العامل المسكين فى الخلية تركت كل شى
لأتلقى أوامرها .

- أنا ذاهب الى كلكتا غدا . وأنت آت معى .
- ولماذا بربك ؟ أتحسبنى واحدا من حاشيتك ؟
- أوه ، حسنا . هب أنك ذاهب الى كلكتا ، وأنى تابعك .
- ليس لى عمل هناك .
- هذا ادعى لذهابك . فان أعمالك هنا أكثر مما ينبغى .
- لست أنوى الانتقال .
- اذن فأنا أنوى نقلك .
- بالقوة ؟ !
- بالقوة .

- حسنا . سأتحرك اذن . ولكن العالم ليس مقسما بين كلكتا
وضياعك . هناك أماكن أخرى على الخريطة .

- لم يكن يبدو من مسلكك أن فى العالم مكانا آخر غير ضياعى .
فنهض سنديب وقال : يحدث أحيانا أن ينحصر عالم المرء فى
بقعة واحدة . وقد وجدت عالمى فى حجرة جلوسك هذه ، ولذلك
أطلت البقاء .

ثم التفت الى قائلا : ان يفهم كلماتى غيرك يا ملكة . ولعلك انت
أيضا لن تفهميها . انى أحييك . أتركك وفى قلبى عبادة . لقد تغير
شعارى منذ وقعت عليك عيناي . لم يعد «باندى ماترم» . حيث

يا أم . بل حييت يا حبيبة ، حييت يا ساحرة . ان الأم ترأم ،
والحبيبة تقود الى الهلاك - ولكنه هلاك حلو . لقد جعلت أصوات
الخلاخيل في رقصة الموت ترن بقلبي . لقد غيرت أمامي ، أنا عابذك ،
صورة هذه البنغال بلادنا ، البلاد الرقيقة ، بلاد الماء النмир والجنى
الحلو التي لطفتها أنفاس النسيم (١) انك لا تعرفين الرحمة
يا حبيبتي . لقد جئت الى بكأسك المسموم وسأشربه الى آخر قطرة ،
فاما ان أموت معذبا واما أن أعيش منتصرا على الموت .
ومضى يقول : أجل . لقد ذهب يوم الأم . آه يا حبيبتي ،
يا حبيبتي ، لقد جعلت الحقيقة والعدل والسماء نفسها هباء عندي .
كل الواجبات أصبحت كالظلال ، كل القواعد والحدود انكسرت
فيودها . يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، اننى أستطيع أن أشعل النار في
العالم كله غير هذه الارض التي تضعين عليها قدميك الجميلتين ،
وأرقص في فرح مجنون فوق الرماد . . هؤلاء رجال هادئون .
هؤلاء رجال طيبون ، يريدون أن يفعلوا الخير للجميع - كأن هذا
الجميع له واقع ! لا ، لا ! ليس في العالم واقع واحد الا حبي
هذا . انى أحبك . ان ولأى لك جعلنى قاسيا ، وعبادتى أضربت
شعلة التدمير الهائجة في نفسى . أنا لست فاضلا . أنا لا أومن
بشيء ، أنا لا أومن الا بمن استطعت أن أجدها فوق كل شيء
في العالم .

عجيب ! ان هذا عجيب ! منذ لحظة كنت أحتقر هذا الرجل
من كل قلبي . ولكن ما كنت أظنه رمادا خائيا ومضى الآن بنار
حية . ان النار فيه صادقة ولاريب . أوه ، لم جعل الله الانسان
كائنا فيه كل هذه الاخلاط ؟ أليظهر قدرته المعجزة ؟ منذ دقائق
ظننت أن سنديب الذى حسبته مرة بطلا لم يكن الا بطلا مسرحيا
في فاجعة ، ولكن هذا غير صحيح ، انه غير صحيح . حتى خلف
بهاارج المسرح قد يختفى بطل حق . .

ان في سنديب كثيرا من الفاظ والحسية والزيف ، غشاوات من
الجسدية بعضها فوق بعض . ولكن - ولكن من الخير أن نعترف
بأن في أعماقه الكثير مما لا نفهمه ولا نستطيع أن نفهمه - وان
كان موجودا في أنفسنا أيضا . عجيب هو الانسان ، لا يعلم الغرض
العظيم الخفى من خلقه ألا « الرهيب » (٢) . ولكننا نشن تحت

(١) اقتباس من النشيد الوطنى (باندى ماترم) .
(٢) (رودرا) أو (الرهيب) اسم من أسماء شيفا .

صدمة هذه المعرفة . شيفا اله الفوضى . انه فرح كله . انه سيحطم قيودنا .

لا أستطيع الا أن أشعر مرة بعد مرة ان في شخصيتين . احدهما تنفر من سنديب في صورته الفوضوية المرعبة ، والاخرى تجد هذه الصورة نفسها حلوة الاغراء . ان السفينة الفارقة تجر الى القاع كل من يسبحون حولها ، وما أشبه سنديب بهذه القوة المدمرة . فجاذبيته العظيمة تستولى على المرء قبل أن يستطيع الخوف انقاذه ، وفي طرفه عين يسحب بقوة لا تقاوم ، بعيدا عن كل نور ، كل خير ، كل حرية في السماء ، كل هواء يستطيع أن يتنفسه - بعيدا عن مقتنيات العمر ، ومشاغل اليوم ، الى قرار الفناء .

من عالم من النكبات جاء سنديب رسولا . وبينما يقطع الارض بخطاه الخشبية الواسعة متمتما برقى خبيثة يلتف حوله الصبية والشباب جميعا . الأم الجالسة في زهرة اللوتس حيث قلب البلاد تندب حتى يكاد قلبها يذهب في العويل ، فقد اقتحموا مخزنها وعربدوا فيه . خمرتها ، شراب الخالدين ، هراقوها في التراب ، آنتيتها العتيقة جعلوها جذاذا . حقا اننى أعطف عليها ، غير انى لا أملك مع ذلك ألا تعدينى ثورتهم .

لقد بعث الينا الحق نفسه هذا الاغراء ليختبر أمانتنا في حفظ وصاياه . السكر يتنكر في لبوس الهى ويرقص أمام الحجيج صائحا : « حمقى أنتم يا من تسلكون طريق الزهادة العقيم . ان شقته بعيدة ، ووقته بطيء المرور . لهذا أرسلنى اليكم رب الصاعقة . انظروا ، أنا الجميل الحديد سأقبلكم ، فى عناقى سوف تجدون كمالكم » .

بعد وقفة خاطبنى سنديب ثانية : ياربة . لقد حان وقت رحيلى عنك . هذا خير . ففعل قربك قد تم . وماكان التلكؤ بعد ذلك الا لينقضه قليلا قليلا . كل شىء يضيع اذا حاولنا بطمعنا أن نرخص ماهو أعظم شىء على الارض . ماهو أبدى فى اللحظة يعود ضحلا اذا امتد على الزمان . لقد كدنا نفسد لحظتنا الاخيرة عندما أدركتنا صاعقتك المصلية . أنت جئت لانقاذ طهارة عبادتك ، وحين أنقذتها أنقذت عابذك أيضا . اننى أستأذنك اليوم فى الرحيل اذ عبادتك أعظم شىء . ياربة ، أنا أيضا أسلمك حریتك اليوم . فمعبدى الصلصال لم يعد يسعك ، فى كل لحظة كان يوشك أن

يتداعى . اليوم أرحل لأعبد منك صورة أكبر في معبد أكبر . فانى
لا أستطيع أن أجذك حقاً إلا حين أبتعد عنك . هنا لقيت احسانك
فحسب ، وهناك سأحظى بنعمتك .

كان صندوق حلى على المنضدة ، فرفعته قائلة : « اننى أعهد
إليك أن تحمل حلى هذه الى معبودى . من وهبته اياها على
يديك . »

ظل زوجى صامتا . وغادر سنديب الحجرة .

- ٢١ -

ما كدت أجلس لأصنع شيئاً من الكعك لأموليسا حتى ظهرت
البارا رانى . فصاحت : يا الله ! هل بلغ الحال أن تصنعى كعك
عيد ميلادك بنفسك ؟

فسألت : أليس هناك أحد آخر يمكن أن أصنع الكعك له ؟
- ولكن ليس هذا هو اليوم الذى تفكرين فيه أن تولى لغيرك .
علينا نحن أن نولم لك . لقد كنت أفكر منذ لحظة فى صنع شيء
لك (١) ، عندما سمعت النبأ المذهل الذى أطار عقلى . يقولون
أن عصابة من خمسمائة رجل أو ستمائة هجموا على إحدى خزائننا
وهربوا بستة آلاف روبية . وهم يتوقعون أن ينهب منزلنا على
الأثر .

وشعرت براحة عظيمة . اذن فقد كانت نقودنا على كل حال .
وأردت أن أبعث الى أموليسا على الفور لأخبره انه ما عليه إلا أن
يسلم هذه النقود لزوجى ويترك لى تفسير الأمر .
وانفجرت سلفتى صائحة وقد رأت التغير فى طلعتى : انك
لمخلوق عجيب ! ألا تعرفين حقاً شيئاً اسمه الخوف ؟

قلت : أنا لا أستطيع تصديق ذلك . لماذا ينهبون منزلنا ؟
- لا تصدقينه ! ومن كان يصدق أنهم سيهجمون على خزائننا؟
فلم أجب ، بل انحنيت على كعكاتى أحشوها بجوز الهند .
قالت البارا رانى بعد أن حدثت فى طويلا : حسنا ، انى ذاهبة .
يجب أن أرى أخى نيكهيل وأعمل على إرسال نقودى الى كلكتا
قبل أن يفوت الوقت .

ولم تكد تذهب حتى تركت الكعكات وشأنها وأسهرت الى

(١) كل طرفة من طعام تقدم فى احتفال ينبغى أن تصنعها سيدة البيت بنفسها .
(المرجع)

حجرة الملابس وأغلقت على الباب . كانت سترة زوجي لا تزال معلقة هناك والمفاتيح في جيبها ، فقد كان شديد النسيان . فأخذت مفتاح الخزانة الحديدية من الحلقة واحتفظت به مخبأ في ثنایا ملابسی .

ثم سمعت دقة على الباب . فناديت : « انی ألبس » . وسمعت البارا رانی تقول : عجباً ! منذ دقيقة واحدة رأيته تصنع كعكا ، والآن هي مشغولة باللبس . وماذا بعد ؟ لست أدري ! لعله أحد اجتماعات « باندی ماترم » . ثم نادتنی قائلة : اسمعی أيتها الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك ؟

ولست أدري ما الذي جعلني أفتح الخزانة بعد أن ذهبا . لعلها بقية أمل في أن يكون الأمر كله حلما . ماذا لو فتحت الدرج الداخلى ووجدت لفافات الذهب هناك كما كانت من قبل ؟ .. وا أسفاه ! لقد كان كل شيء خاويا كالامانة التي اغتيلت . واضطرت أن أمثل مهزلة اللبس ، واضطرت أن أعقص شعري من جديد دون ضرورة . وعندما خرجت سخرت سلفتي مني : « كم مرة ستلبسين اليوم ؟ » . قلت : انه عيد ميلادى !

فمضت تقول : أوه ، أى عذر يصلح . ما أكثر من رأيت من النساء المعجبات بأنفسهن ، ولكنك تبذرين الجميع . وكنت على وشك أن أبعث خادما في طلب أموليا عندما جاء أحد الرجال برسالة صغيرة سلمها الى . كانت من أموليا ، وقد كتب يقول : « أختى ، لقد دعوتنى عصر اليوم ، ولكنى رأيت الا تأخر ، فأذنى لى أن أنفذ أمرى أولا ثم آتى لأخذ (البراساد) . قد أتأخر . »

لمن تراه سيرد تلك النقود ؟ والى أى مأزق جديد يندفع الصبى المسكين ؟ أوه أنتها المرأة الشقية ، انك تستطيعين أن ترسلينه كالسهم ، ولكنك لا تستطيعين أن تسترديه اذا أخطأت هدفك . كان يجب أن أعلن على الفور أنى وراء هذه السرقة . ولكن النساء يعشن على ثقة محيطتهن ، فهذه الثقة هي كل عالمهن ، واذا ظهر مرة أن هذه الثقة قد ديسست في الخفاء فانهن يفقدن مكانتهن في عالمهن ، ويلزمهن الوقوف على شظايا ما حطمته ، فتجرحن حروفه المسننة في كل خطوة . الاثم سهل ، ولكن التكفير عنه هو على المرأة جد عسير .

لقد مضى زمن منذ أغلق أمامي كل سبيل للاتصال بزوجي .
فكيف أفاغئه بهذا الخبر الفظيع ؟ اليوم تأخر كثيرا في المجيء
للغداء ، كانت الساعة الثانية تقريبا ، وكان شارد الذهن ، ولم يكد
يقرب الطعام . لقد فقدت حتى الحق في حضه على الأكل ،
واضطرت أن أحول وجهي للمسح دموعي .

كم كنت مشتاقة أن أقول له : « تعال الى حجرتنا واسترح
قليلا . انك تبدو متعبا » . ولم أكد أطلق حلقى بسعلة صغيرة
حتى جاء أحد الخدم مسرعا ليقول ان مفتش الشرطة قد أحضر
بانشو الى القصر ، فترك زوجي طعامه وخرج وقد ازداد وجهه
اظلاما .

وبعد قليل أقبلت البارا راني وقالت شاكية : « لماذا لم تبعثني
الى حين جاء أخى نيكهيل ؟ لقد فكرت أن أنتهى من حمامي حتى
يجيء . وكيف فرغ من غدائه بهذه السرعة ؟
- لماذا ؟ هل كنت تريدني في شيء ؟

- ما هذا الذي يقال عن ذهابكما معا الى كلكتا غدا ؟ كل ما
يمكنني قوله هو اني لن أبق هنا وحدي . سأموت من الخوف
كلما سمعت صوتا وهؤلاء اللصوص كلهم حولنا . هل عزمتما حقا
على السفر غدا ؟

- نعم .

قلتها مع أني لم أسمع بالخبر قبل الآن ، بل لم أكن واثقة أن
قصتنا لن تتحول قبل ألفد الى اتجاه يجعل الرحيل والبقاء بمنزله
سواء . لم أكن لأتصور كيف يصبح بيتنا وحياتنا بعد ذلك ، فقد
بدا لي المستقبل مغلفا بالضباب ، أشبه بالاشباح .

بعد بضع ساعات سيصبح مصري المجهول ظاهرا . ألا أحد
يؤجل مرور هذه الساعات أبدا ، يوما بعد يوم ، حتى يمكنني
اصلاح الأمور بقدر ما أستطيع ؟ ان الزمن الذي تقضيه البذرة
كامنة في الارض لطويل ، طويل حقا حتى لينسى المرء أن هناك خطرا
من انبثاقها . ولكن شطأها لا يكاد يظهر على السطح حتى ينمو
وينمو مسرعا بحيث لا يمكن ستره ، لا بالثوب ، ولا بالجسم ، ولا
بالحياة نفسها .

لن أحاول التفكير في الأمر من جديد . بل سأجلس ساكنة ،
في سلبية وجمود ، وأدع الانهيار يأتي متى شاء ، بعد غد سيكون
كل شيء قد انتهى . الفضيحة ، والضحك ، والانتحاب ،

والاستئلة ، والشروح ، وكل شيء .
ولكنى لا أستطيع أن أنسى وجه أموليا - جميلا مشرقا بالولاء .
انه لم ينتظر فى يأس أن تقع ضربة القدر ، بل أسرع الى زحمة
الخطر . فى شقائى أحييه . انه الهى الصبى . بحجة لعبه حمل
عنى أصرى . مراده انقاذى بأن يتلقى عقوبتى على رأسه ، ولكن
كيف أتحمل هذه الرحمة الرهيبة من الهى ؟
آه ياولدى ، ياولدى ، انى أحييك . يا أخى الصغير ، انى
أحييك . نقى أنت ، جميل أنت . انى أحييك . ليتك تأتى الى
ذراعى فى المولد الثانى أبنا لى . هذا هو دعائى .

- ٢٢ -

نشطت الشائعات من كل جانب . وكان الشرطة دائمي الدخول
والخروج ، وخدم المنزل فى اضطراب عظيم .
جاءتنى وصيفتى « خيما » وقالت : « أوه يا أمى الرانى ! بالله
ضعى قلادتى الذهبية واسورتى فى خزانتك الحديدية . » لمن أقول
ان الرانى نفسها قد نسجت كل هذه الشبكة من الاضطراب ،
وانها واقعة فيها أيضا ؟ لم أجد بدا من تمثيل دور الحامية الكريمة
وفبول وديعة خيما من الحلوى ووديعة ثاكو من النقود . وأحضرت
اللبانة بدورها صندوقا لتحفظه فى حجرتى ، كان فيه « سارى »
من صنع بنارس وبعض مقتنياتنا الأخرى . وقالت لى : « لقد
حصلت على هذه الأشياء فى زفافك . »

عندما تفتح خزانتى الحديدية غدا أمام هؤلاء - خيما وتاكو
واللبانة والجميع . . اننى لا أريد أن أفكر فى هذا ! خير لى أن أفكر
كيف يكون الحال عندما يعود هذا اليوم الثالث من « ماغ » مرة
أخرى بعد أن يمر عام . هل ستكون كل الجراح فى حياتى البيتية
حية بعد كالعهد بها ؟

كتب أموليا أنه سيعود فى المساء . لا أستطيع أن أبقي وحيدة
مع أفكارى ، لا أعمل شيئا . لهذا أجلس ثانية لأصنع كعكا له .
لقد صنعت منه الشيء الكثير ولكنى يجب أن أستم . من
سيأكله ؟ سأوزعه على الخدم . يجب أن أفعل هذا الليلة . الليلة
موعدى ، والفد لن يكون فى يدي .

مضيت أعمل دون ملل ، أقلى كعكة بعد كعكة . وكان يخيل الى
بين لحظة وأخرى ان ثمة ضوضاء من نحو حجراتى فى الطبقة العليا .

ترى هل افتقد زوجى مفتاح الخزانة ، وجمعت البارا رانى الخدم لمساعدته فى البحث عنه ؟ لا ، يجب الا التفت الى هذه الاصوات ،
ذلاغلاق الباب .

ونفضت لأفعل ذلك واذا بشاكو تقبل لاهثة : « أمى الرانى ! أوه ،
أمى الرانى ! » .

فقاطعتها ثائرة : اذهبي ! لا تشغلينى !
ومضت تقول : أمنا البارا رانى تريد أن تراك . لقد أحضر ابن
أختها آلة عجيبة من كلكتا . انها تتكلم كالانسان . بالله تعالى
واسمعيها !

لم أدر هل أضحك أم أبكى . هكذا يجب أن يظهر على المسرح
فى مثل هذا الوقت حاك يردد فى كل لغة أغانيه المسرحية ذات الرنين
الاخف ! ما أفضع ما يحدث عندما تقلد الآلة انسانا !

بدأت ظلال المساء تهبط . كنت أعلم أن أموليا لن يرجىء ظهوره ،
ولكنى لم أستطع أن أنتظر . فدعوت خادما وقلت : « اذهب وقل
لأموليا بابو يأتى الى هنا حالا » . فعاد الرجل بعد لحظة ليقول :
ان أموليا لم يكن موجودا ، ولم يعد منذ ذهابه ! « وقعت الكلمة
الاخيرة على أذنى كالعويل فى غبشة الظلام . أموليا ذهب ! هل كان
أذن كشعاع من الشمس الغاربة ذهب الى الابد ؟ مرت بعقلي كل
أنواع المخاطر الممكنة وغير الممكنة . اننى أنا التى أرسلته الى حتفه .
هبة كان غير هباب ، انما يدل هذا على عظمة قلبه ، ولكن كيف
يمكننى أن أعيش وحدى بعد هذا ؟

لم يكن لدى تذكاري من أموليا سوى ذلك المسدس ، هدية
اجلاله . خيل الى انه كان آية من القدر . هذا الذنب الذى أفسد
حياتى من جذورها جاءنى الهى فى صورة طفل وترك لى وسيلة
ازالته ثم اختفى . أوه ، يا للهدية المحبة ، ويا للخلاص الذى
يكمن فيها !

فتحت صندوقى وأخرجت المسدس ، ورفعته فى خشوع الى
جبينى . وفى هذه اللحظة رنت الدقات من المعبد الملحق بمنزلنا ،
فانبطحت على الارض للصلاة .

وفى المساء دعوت من فى البيت جميعا الى كعكاتى . فصاحت
سلفتى : « لقد هيأت وليمة ميلاد رائعة ، وكل ذلك وحدك !
ولكنك يجب أن تتركى لنا شيئا نفعله . » قالت ذلك وأدارت
حاكيها فأطلقت أصوات ممثلات كلكتا الندية الحارة تملأ المكان ،

فكان اسطبلا يضج بصليل المهار .
تقدم الليل قبل أن ينتهى الحفل . وشعرت بشوق مفاجيء الى
أن أختتم عيد ميلادى بمسح التراب عن قدمى زوجى . فصعدت
الى المخدع ووجدته مستغرقا فى النوم ، فقد كان يومه شاقا
مرهقا ، فرفعت طرف الكلة بلطف شديد ووضعت رأسى عند
قدميه ، ولا بد أن شعرى لمسه فقد حرك رجليه فى نومه ودفع رأسى
بعيدا .

ثم خرجت وجلست فى الشرفة الغربية . وكانت هناك شجرة
قطن حريرى تقف بعيدا وقد نفضت كل أوراقها فكأنها هيكل
عظمى ، ومن خلفها كان الهلال يغرب ، وفجأة شعرت بأن نجوم
السماء نفسها خائفة منى ، وان عالم الليل كله ينظر الى شزرا .
لماذا ؟ لأنى كنت وحيدة .

لا شيء فى الخليقة أغرب من انسان وحيد . حتى ذلك الذى مات
أجباؤه جميعا واحدا بعد واحد ليس بوحيد ، فالصحبة تأتيه من
خلف ستار الموت . أما الذى تكون عشيرته معه ولكنهم لم
يعودوا قريبين اليه ، الذى انقطع عن كل ضروب الصحبة فى البيت
الكامل ، فذلك يبدو عالم النجوم نفسه وكأنه يقشعر من النظر
اليه فى ظلامه .

أنا لا أوجد حيث أوجد . أنا نائية عن أولئك الذين يحيطون
بى ، أنا أعيش وأتحرك فوق هوة من الانفصال عرضها العالم كله ،
قلقة كنقطة الندى على ورقة اللوتس .

لماذا يتغير الناس تغيرا تاما حين يتغيرون ؟ عندما أنظر فى قلبى
أجد أن كل ما كان فيه لا يزال فيه ، إلا أنه انقلب رأسا على عقب .
الأشياء التى كانت مرتبة أصبحت ملقاة بعضها فوق بعض . الجواهر
التي كانت منظومة فى عقد أصبحت ترقد فى التراب . ولهذا قلبى
يتصدع .

أشعر أنى أريد الموت . لكن فى قلبى كل شيء ما زال يحيا
- وحتى فى الموت لا يمكننى أن أرى النهاية ، بل أخال أن فى الموت
مزيذا من الاسى . ما يجب انهائوه فلينه فى هذه الدنيا - فليس
غير هذا سبيل .

أواه ، سامحنى هذه المرة ، هذه المرة وجدها يارباه ! كل ما
وضعت فى يدي ذخرا لحياتى حولته اصرا لى . ولم أعد أستطيع
احتماله ولا التفريط فيه . آه ياربى ، أطلق من جديد أنغام الناي

تلك التى عزفتها لى قديما على حاشية صباحى الوردية ، واجعل
كل عقدى يسيرة سهلة . لا شيء غير موسيقى نايك يمكن أن
يجبر ما انكسر ، ويظهر ما تدنس . اخلق بيتى من جديد
بموسيقاك ، فانى لا أرى سبيلا آخر .

انبطحت بوجهى على الارض وأجهشت بالبكاء . للرحمة كان
دعائى . . . لرحمة قليلة من مكان ما ، لماوى ألتجىء اليه ، لآية
غفران ، لأمل قد يأتى بالنهاية . وقطعت على نفسى عهدا :
« رباه ، سأرقد هنا ، أنتظر وأنتظر ، لا أمس طعاما ولا شرابا ،
الا أن تبلغنى نعمتك . »

وسمعت وقع خطا . من يقول ان الآلهة لا تتجلى لبنى الموت !
لم أرفع وجهى ناظرة حتى لا تذهب الرؤية بالمعجزة . تعال ، تعال ،
تعال ولتمس قدمك رأسى . تعال وضع قدمك على قلبى النابض ،
وعندها دعنى أموت .

جاء وجلس قرب رأسى . من ؟ زوجى ! شعرت انى موشكة
أن أغيب عن الوعى عند أول لمسة من حضوره . ثم تفجر الألم فى
قلبى فيضا قاهرا من الدموع ، يمزق فى طريقه كل عروقى
وأعصابى . وضممت قدميه بشدة الى صدرى - أواه ، لماذا لم يبق
أثرهما هناك الى الابد ؟

مسح على رأسى بلطف ، وتلقيت بركته ، الآن يمكننى أن أحمل
وزر مذلتى غدا على رءوس الاشهاد ، وأقدمه - مخلصا - قربانا
عند قدمى معبودى .

ولكن ما يطحن قلبى هو أن نايات الفرح التى عزفت فى زفانى
منذ تسع سنوات ، مريحة بقدمى الى هذا المنزل ، ان ينطلق
صوتها لى مرة أخرى فى هذه الحياة . أى تفكير قاس يمكن أن
يعيدنى مرة أخرى الى مكانى على تلك المنصة ، عروسا مجلوة
لزوجها ؟ كم من السنين ، كم من الاجيال والعصور يجب أن تمر
حتى أجد طريقى مرة أخرى الى ذلك اليوم قبل تسع سنين ؟

الفصل الثاني عشر

حكاية نيكهيل

- ١٥ -

اليوم نذهب الى كلكتا . اذا مضينا نكدس أفراحنا وأتراحنا فانها ترزح فوقنا . خطأ أن نحفظها وأن نكدسها . أنا في موقف صناعي بوصفي رب المنزل ، فالواقع اني مسافر في طريق الحياة . لهذا يجرح رب البيت الحقيقي في كل خطوة ، وأخيرا يأتي جرح الموت الاكبر .

كان ارتباطي معك يا حبيبتي هو بعض الطريق . كان خيرا طالما سلكنا طريقا واحدا ، ولن يكون الا عائقا لنا ان حاولنا الابقاء عليه بعد ذلك . اننا الآن نترك قيوده خلفنا . اننا الآن نبدأ رحلتنا من بعده وبحسبنا لو استطعنا أن نرمل نظرة كل لصاحبه أو نحس تلامس أيدينا ونحن نمر . وبعد ذلك ؟ بعد ذلك طريق العالم الاكبر ، تيار الحياة الكونية الذي لا ينتهى .

ما أقل ما يمكنك حرمانى منه يا حبيبتي بعد كل شيء ! كلما أصفيت أسمع صوت الناي ، تتدفق ألحانه من وقفات الفراق . ان شراب الالهة الخالد لا ينفد أبدا . أحيانا تكسر الكأس الذي نشربه فيه وتضحك اذا ترأنا جزعين للخسارة الهينة . لن أقف لألتقط كأسى المكسورة ، سأمضى في سبرى وان كان قلبى ظمأنا . جاءت البارارائى وسألتنى : قل لى يا أخى ما معنى كل هذه الكتب التى تربط وترسل فى الصناديق ؟ فأجبت : لا معنى لها الا انى لم أستطع بعد أن أشفى من غرامى بها .

— ليتك تبقى مفرما بأشياء أخرى أيضا ! هل تعنى أنك لن تعود الى دارك أبدا ؟

— ساجيء وأذهب ، ولكنى لن أحبس نفسى هنا مرة أخرى .
— أوه ، صحيح ؟ اذن تعال الى حجرتى وانظر كم من الاشياء لم أستطع « أنا » التخلص من حبنى لها .
قالت ذلك وأمسكت بيدي وسارت بى .

وجدت فى حجرة أرملة أخى عددا لا يحصى من الصناديق والصرر المربوطة المعدة . وفتحت أحد الصناديق وقالت : « انظر يا أخى الى كل هذه الادوات التى أصنع بها المضاغ (١) ! فى هذه الزجاجة مسحوق الفوفل المطيب بلقاح أزهار الكاذى ، وهذه انقلب الصفيح الصغيرة كلها لشتى أنواع التوابل . ولم أنس ورق لعبى ولا لوحة عساكرى ، فاذا شغلتما عنى كلاكما ففى وسعنى أن أجد هناك أصدقاء آخرين يشاطروننى اللعب . أتذكر هذا المشط ؟ انه أحد الامشاط الوطنية التى اشتريتها لى ..
— ولكن لم كل هذا يا أختى الرانى ؟ لماذا تحزمين أنت كل هذه الاشياء ؟

— أتظن انى لا أذهب معكما ؟

— أى فكرة غريبة !

— لا تخف ! لست ذاهبة الى هناك لأغازلك ولا لأتشاجر مع التشوتا رانى ! لابد من الموت عاجلا أو آجلا ، فلأنتظر على شاطئ الكنج المقدس قبل أن يفوت الأوان . ما أظن أن أحرق فى محرقتكم هذه الحقيرة ، تحت شجرة « البانيان » المقروضة ! لهذا أبيت أن أموت حتى الآن ، وأثقلت عليكم طول هذا الوقت .
أخيرا استطعت أن أسمع صوت البيت حقا . لقد جاءت البارارانى الى منزلنا عروسا حين كانت سنى لا تتجاوز السادسة . وكنا نلعب معا طوال الاصائل النعسانة فى ركن من السطح وكنت أقذف اليها بثمار « الأمرا » الخضراء من أعلى الشجرة فتصنع منها مخاللات لذيدة الطعم عسرة الهضم بأن تشققها وتعالجها بالخردل والملح والاعشاب العطرة . وكان على أن أجمع لها كل المحرمات من حجرة الخزين لتستخدم فى زفاف دميته ، فقد كنت أنا وحدى المعفى من العقاب فى قانون جدتى الجنائى . وكنت أعين رسولا من قلما الى آخر كلما أرادت أن تظهر منه بشيء ذى قيمة خاصة ،

(١) المضاغ ، ما يمضغ ، والمراد به هنا نوع خاص منه (المترجم) .

لأنه لم يكن يستطيع أن يقاوم الحاحي . واني لاتذكر أيضا حين كنت أقاسى شدة نظام أطباء تلك الايام ، الذين ما كانوا يسمحوا بشيء غير الماء الدافئ وبذور القاقلي المسكرة في أثناء نوبات الحمى . فكانت زوجة أخى لا تتحمل حرمانى فتأتينى بأطيب الطعام في الخفاء . وما أقسى التوبيخ الذى نالها حين ضبطت ذات يوم ! ثم كانت أفراحنا وأحزاننا المشتركة تكتسب نفقات من الالفة أكثر عمقا كلما كبرنا . وكم تشاجرنا ! فأحيانا كان الصراع على المصالح الدنيوية يثير الشكوك والغيرة ، ويصيب جنبا بصداع . وعندما دخلت تشوتا رانى بيننا بدا كأن هذه الصدوع لن تلتئم أبدا ، ولكن كان يثبت دائما أن القوى الشافية الراقدة في الاعماق أقوى من الجروح على السطح .

وهكذا نمت بيننا علاقة صحيحة منذ طفولتنا حتى الآن ، وامتدت دوحتها وتفرعت أغصانها فوق كل حجرة وكل شرفة في ذلك البيت الكبير . وعندما رأيت البارا رانى تستعد للرحيل عن منزلنا هذا بكل ما تملك ، هزت الصدمة كل الاواصر التى تربطنا حتى أطرافها الممتدة .

لم يخف على السبب في عزمها على أن تسبح نحو المجهول ممزقة كل روابط العمر من عاداتها اليومية ، في المنزل الذى لم تفارقه يوما منذ دخلته أول مرة وهى في سن التاسعة . ومع ذلك فقد أبت أن تسمح لهذا السبب الصحيح بالخروج من بين شفتيها ، ورثرة أن تعزل بعذر تافه أيا كان .

لم يبق لها في الدنيا كلها سوى هذه العلاقة الوحيدة ، وكانت المرأة المسكينة الشقية الأرملة العاقر تحرض عليها بكل ما اختزنه قلبها من حنو ، ولم أدرك عمق احساسها بفراقنا المرتقب كما أدركته وأنا واقف بين صناديقها وضررها المبعثرة .

وبذهنى أن الخلافات الصغيرة التى كانت تنشأ بينها وبين بيمالا حول النقود لم تكن عن حب وضيع للدنيا بل عن شعورها بأن حقوقها نحو هذه العلاقة الوحيدة في حياتها قد صودرت وأواصرها وهت بدخول هذه المرأة الاخرى التى لا يعلم الا الله من أين جاءت ! لقد كانت تجرح في كل خطوة ولم يكن لها الحق أن تشكو .

ويمالا ؟ لقد شعرت هى أيضا بأن حق البارا رانى على لم يكن قائما على الرابطة الاجتماعية بيننا بل كان أعظم من ذلك جدا ، وكانت تغار من هذه العلائق بيننا ، الممتدة الى طفولتنا .

واليوم دق قلبي بعنف على أبواب صدري . فتهاويت على أحد الصناديق وأنا أقول : شد ما أحب يا أختي الراني لو أعود الى تلك الايام التي تقابلنا فيها لأول مرة في منزلنا هذا القديم !

فأجابت وهي تنهد : لا يا أخى العزيز . اننى لا أحب أن أعيد حياتى من جديد - لا أحب أن أعيدها امرأة ! فلينته ما كان على أن أقاسيه مع هذه الولادة الواحدة ، فانى لا أستطيع احتماله مرة أخرى .

قلت لها : ان الحرية التي نبلغها من خلال الحزن أعظم من الحزن .

- قد يكون هذا صحيحا بالنسبة لكم معشر الرجال . الحرية لكم . أما نحن النساء فنريد أن نبقى غيرنا مقيدين ، ونفضل أن نوضع نحن أنفسنا في القيود . لا ، لا ، يا أخى ، ان نتحرر أبدا من حبالنا . ان كان لابد لك أن تبسط جناحيك فعليك أن تأخذنا معك ، فنحن نأبى أن نترك وراء . لهذا جمعت كل هذه الاثقال ، اذ لا يصح أبدا أن يترك الرجال يجرون خفافا .

قلت ضاحكا : أستطيع أن أشعر بثقل كلماتك ، واذا كنا نحن الرجال لا نشكو من أحمالكن فلأن النساء يعوضننا أحسن العوض عما يكلفنا حمله .

- قالت : أنتم تحملونه لأنه مؤلف من أشياء كثيرة صغيرة . فكلما هممت بالقاء واحد احتج بخفة وزنه ، وهكذا نثقل عليكم بكثير من الخفة .. متى نرحل ؟

- القطار يقوم الليلة في منتصف الحادية عشرة . فأمامنا وقت كثير .

- اسمع . كن طيبا مرة وخذ كلمة منى . نم جيدا بعد الظهر . فأنت تعلم أنك لا تنام في القطار أبدا . انك تبدو مرهقا ، توشك أن تتداعى . هيا . اذهب أولا الى الحمام .

وبينما كنا نسير نحو حجرتى جاءت الوصيفة خيما وقالت لنا بنبرات خفيضة مستعيدة وهي تجذب برقعها بحياء مفرط : ان مفتش الشرطة قد جاء بسجين ، وانه يريد مقابلة المهراجا .

فصاحت البارا راني غاضبة : هل المهراجا لص أو سارق حتى تزعجه الشرطة هكذا ؟ اذهبي وقولي للمفتش ان المهراجا في الحمام . فجادلتها قائلا : دعيني أذهب فأرى ما الخبر . قد يكون أمرا عاجلا .

فأصرت أرملة أخى : لا ، لا ، لقد صنعت تشوتا رانى كعكا كثيرا ليلة أمس ، فأرسل بعضا منه الى المفتش حتى يسكت الى أن تستعد - قالت ذلك ودفعتنى الى حجرتى وأغلقت على الباب . لم تكن لدى القوة لأقاوم مثل هذا الاستبداد ، فانه جد قليل فى هذه الدنيا . فليمض المفتش الوقت فى أكل الكعك . ماذا ان أهمل العمل قليلا ؟

لقد كانت الشرطة نشيطة فى هذه الايام الاخيرة تقبض على هذا ثم هذا ، وكل يوم يجلب شخص برىء ليبعث حياة فى الجمعية المنعقدة فى مكتبى . فقلت لنفسي : واحد من هؤلاء المساكين جىء به اليوم . ولكن لماذا يستمتع المفتش وحده بالكعك ؟ هذا لا يليق أبدا . فطرقت الباب بقوة .

نادت أرملة أخى من الدهليز : ان كان عقلك يجن فأسرع وصب بعض الماء على رأسك - انه يهدئك .

فصحت : ابعثنى كعكا لاثنتين . لعل الشخص الذى جىء به على انه اللص أحوج اليه . قولى للرجل يعطه نصيبا كبيرا .

واستحمت بسرعة . ولما خرجت وجدت بيমাلا جالسة على الارض خارج الحجرة (١) . أهذه بيمالى القديمة ، بيمالى المتكبرة الحساسة ؟ أى معروف تريد أن تطلب وهى جالسة هكذا عند بابى ؟ حين وقفت قامت وقالت بلطف وعيناها منكستان : أريد أن أتكلم معك .

قلت : اذن فادخلى .

- لعلك خارج لأمر ؟

- كنت خارجا . ولكن لا بأس . أريد أن أسمع ...

- لا . انه عمك أولا . سنتحدث بعد أن تتناول غداءك .

فخرجت الى حجرة الجلوس لأجد طبق المفتش خاليا تماما ، الا أن الشخص الذى أحضره معه لا يزال منهما فى الأكل .

وصحت دهشا : مرحى ! أهو أنت يا أموليا ؟

فقال أموليا وفمه مكتظ بالكعك : انه أنا ياسيدى .. لقد

أكلت كثيرا ، واذا أذنت لى فأخذ الباقي معى .

قال ذلك وبدأ يصر الكعكات الباقية فى منديله .

(١) الجلوس على الارض علامة على الحداد ، ومن ثم يدل - يترابط الافكار - على حالة من ذلة النفس (المترجم) .

سألت وأنا أحملق في المفتش : ما معنى هذا ؟
فضحك الرجل وقال : اننا لم نقرب ياسيدى من حل مشكلة
اللص ، ومع ذلك فان سر السرقة يزداد غموضا . ثم أخرج شيئا
مربوطا في خرقة ، ظهر حين حله أنه رزمة من الاوراق النقدية .
قال المفتش :

— هذه يامهراجا هي الستة الآلاف من الروبيات .
— أين وجدت ؟

— في يدى أموليا بابو . لقد ذهب مساء البارحة الى وكيل
مكتبك في تشاكننا ليخبره ان النقود وجدت . وبدأ الوكيل أشد
هلعاً لاسترداد النقود مما كان عند سرقتها . فقد خاف أن يشك
في أنه سرق النقود ثم جاء الآن يخترع قصة خرافية لئلا يكتشف
أمره . فسأل أموليا أن ينتظر متعللاً باحضار شراب له ثم جاء
مسرعاً الى مركز البوليس . فقامت على الفور ، وأبقيت أموليا
معى ، وشغلت بأمره طول الصباح . فهو يرفض أن يخبرنا من
أين جاء بالنقود ، وقد حذرته أنه سيظل محجوزاً حتى يفعل ذلك ،
فقال لى أنه سيضطر الى الكذب في هذه الحالة . قلت له
فليكذب إن أراد . فقرر انه وجد النقود تحت شجرة . فأوضحت
له ان الكذب ليس سهلاً الى هذا الحد . فتحت أى شجرة
وجدها ؟ وأين هذه الشجرة ؟ ولماذا كان هناك ؟ عليه أن يقرر
كل ذلك أيضاً . فقال : لا تقلق . هناك متسع من الوقت لاختراع
هذا كله .

قلت : ولكن يا حضرة المفتش ، لماذا تضايق سيدا شابا
محترماً مثل أموليا بابو ؟

قال المفتش : أنا لا أرغب في ازعاجه ، فهو ليس سيدا فحسب
بل ابن نيبا ران بابو زميلى في الدراسة . دعنى أقل لك يامهراجا
ما حدث بالضبط كما أعتقد . ان أموليا يعرف اللص ، ولكنه
يريد حمايته بتعريض نفسه للشبهة . فهو يحب هذا النوع من
اظهار الشجاعة .

ثم التفت المفتش الى أموليا قائلاً : اسمع أيها الشاب . أنا
ايضاً كنت في الثامنة عشرة مرة ، وكنت طالباً في كلية ريبون ،
وكدت أدخل السجن لمحاولتى انقاذ سائق عربة من يد شرطى .
بمشقة نجوت .

ثم التفت الى ثانية وقال : يامهراجا يظهر أن اللص الحقيقى

سينجو الآن ، ولكنى أستطيع أن أخبرك من أصل هذا كله .
فسألت : من ؟

— ذلك الوكيل بالاتفاق مع الحارس قاسم .
ولما ذهب المفتش أخيرا بعد أن احتج لنظريته كما حلا له قلت
لأموليا : إذا أخبرتنى من أخذ النقود فانى أعدك ألا يضار أحد .
فقال : أنا أخذتها .

— ولكن كيف يمكن هذا ؟ وعصابة الرجال المسلحين ؟

— بل أنا وحدى !

وكان ما أخبرنى به أموليا بعد ذلك عجيبا . ان الوكيل كان
قد فرغ لتوه من عشائه ، وكان فى الشرفة يفسل فمه ، والمكان
معتم ، وكان أموليا يحمل مسدسين فى كلا جيبيه ، أحدهما محشو
بطلقات فارغة والآخر بالرصاص ، ويضع قناعا على وجهه ، فصوب
ضوء مصباح كاشف الى عينيه ، وأطلق طلقة فارغة ، فأغمى على
الرجل . وجاء بعض الحراس مسرعين ، ولم تكن نوبتهم ، ولكن
أموليا أطلق طلقة فارغة أخرى نحوهم فسارعوا بالاختفاء . ثم جاء
قاسم ، صاحب النوبة ، يلوح بعصا ، وفى هذه المرة صوب أموليا
رصاصة الى ساقيه ، فلما وجد قاسم أنه جرح تداعى الى الأرض .
عند ذلك أمر أموليا الوكيل المرتعد ، وكان قد أفاق ، أن يفتح
الخزانة ويسلم اليه ستة آلاف روبية . وأخيرا ركب أحد جياد
الضيعة وجرى به بضعة أميال . ثم أطلق الحصان ومشى الى
منزلنا مطمئنا .

سألته : وما جعلك تفعل هذا كله يا أموليا ؟

فأجاب : كان هناك سبب هام يامهراجا .

— اذن فلماذا تحاول رد النقود ؟

— دعها تحضر، تلك التى فعلت ذلك بأمرها . فى محضرها سأصرح

بكل شيء .

— ومن هنى ؟

— أختى التشوتا رانى !

فأرسلت الى بيमالا . وجاءت تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، حافية
القدمين ، على رأسها شال أبيض . لم أر بيमالا قط فى هذه
الصورة من قبل . بدت كما لو كانت متدثرة بنور الصباح .
ركع أموليا محيا ومسح التراب عن قدميها . ثم قال وهو
ينهض :

— نفذ أمرك يا أختي . ردت النقود .

قالت : لقد أنقذتني يا أخى الصغير .

فاستمر أموليا يقول : كانت صورتك فى مخيلتى فلم أكذب مرة واحدة . ان شعارى « باندى ماترم » قد ألقى عند قدميك الى الأبد . وقد تلقيت مكافأتى ، البراساد الذى صنعه لى ، لحظة جئت الى القصر .

فنظرت اليه بيمالا نظرة فارغة وقد غاب عنها معنى كلماته الأخيرة . فأخرج أموليا منديله وحله وأراها الكعكات التى وضعها فيه . قال : لم أكلها كلها . استيقيت هذه حتى تقدميها الى يديك .

ورأيت ألا مكان لى . فخرجت من الحجرة ، وقلت لنفسي : أنا لا أستطيع الا أن أعظ وأعظ ، حتى أكافأ بحرق صورتى . لم أستطع بعد أن أستر دروفا واحدة من طريق الموت . الذين يملكون القدرة على ذلك يفعلونه بإشارة ، ولكن كلماتى ليس لها هذا المعنى الذى لا يوصف . لست شعلة بل فحمة سوداء منطفئة . لا يمكننى أن أشعل مصباحا . هذا ماتدل عليه قصة حياتى . صف مصابيحى بقى غير مضاء .

— ١٦ —

عدت الى الحجرات الداخلية وئيد الخطا . لا بد أن حجرة الباراء رانى كانت تجتذبنى مرة أخرى . لقد كانت ضرورة محتمة على فى ذلك اليوم أن أشعر بأن حياتى هذه استطاعت أن تعزف لحنا ، أن تضرب على وتر حساس فى قيثاره حياة أخرى . ان الإنسان لا يستطيع تحقيق وجوده بالبقاء داخل نفسه — بل يجب أن يلتمسه خارجها .

ولما مررت أمام حجرة أرملة أخى خرجت قائلة : لقد خفت أن تتأخر اليوم أيضا . ولكنى أمرت بأعداد غدائك حالما سمعتك قادما . سيكون حاضرا بعد دقيقة .

قلت : فى أثناء ذلك أخرج نقودك استعدادا لأخذها معنا . وبينما كنا سائرين نحو حجرتى سألتنى هل جاء مفتش الشرطة بخبر عن السرقة . ولم أشأ أن أخبرها بكل التفاصيل عن رد تلك الستة الآلاف ، فقلت مراوفا : هذا سبب كل الضجة .

وعندما دخلت حجرة ملابسى وأخرجت سلسلة مفاتيحي لم أجد

مفتاح الخزانة الحديدية في الحلقة . حقا اننى مبتلى بالنسيان !
ففى هذا الصباح نفسه كنت أفتح كثيرا من الصناديق وغيرها ولم
الاحظ قط أن هذا المفتاح غير موجود .
سألتنى : ماذا حدث لمفتاحك ؟

ورحت أفتش فى هذا الجيب وذاك ولكنى لم أستطع أن أجيبها .
وبحثت فى المكان الواحد مرات . ثم خطر لنا كلينا أن الأمر لا يمكن
أن يكون خطأ فى مكان المفتاح بل لابد أن أحدا أخذه من الحلقة .
ترى من يكون ؟ من غيرنا يمكن أن يدخل هذه الحجرة ؟
قلت لى : لا تشغل بالك به . هلم الى طعامك أولا ، فلابد أن
تشوتا رانى تحتفظ به لعلها أيقنت انك أصبحت كثير النسيان .
ولسكننى كنت شديد الانزعاج . فلم يكن من عادة بيমালা أن تأخذ
مفتاحا من مفاتيحي دون أن تخبرنى بذلك . ولم تحضر بيমালা الغداء
معى فى ذلك اليوم ، فقد كانت مشغولة باطعام أموليا فى حجرتها .
وأرادت أرملة أخى أن تبعث اليها لتأتى ولكنى سألتها ألا تفعل .
لم أكد أفرغ من غدائى حتى دخلت بيমালা ، وكنت أفضل ألا
أتحدث معها فى أمر المفتاح بمحضر من البارا رانى ، ولكنها ما أن
رأت بيমাلا حتى سألتها : أتعلمين ياعزيزتى أين مفتاح الخزانة ؟
وكان الجواب : انه معى .

فصاحت أرملة أخى منتصرة : ألم أقل لك ؟ ان التشوتا رانى
تتظاهر أنها لا تبالى بهذه السرقات ، ولكنها تحتاط منها فى
الخفاء .

ورأيت على وجه بيমাلا ما بعث فى نفسى الشك . فقلت : دعى
أمر المفتاح الآن . سأخرج تلك النقود فى المساء .
فقالت البارا رانى : هأنت ذا تؤجل مرة أخرى . لماذا لاتخرجها
وتبعثها الى الخزانة وأنت ذاكر ؟
قلت بيমাلا : أنا أخرجتها .

فانتفضت . وسألت أرملة أخى : أين احتفظت بها اذن ؟
لقد صرفتها .

عجبا ! وفيم صرفت كل هذه النقود ؟
فلم تجب بيমাلا . ولم أوجه اليها سؤالا آخر . وبدا أن البارا رانى
تهم بأبداء ملاحظة أخرى لبيমাلا ، ولكنها ردت نفسها عن
ذلك ، وأخيرا قالت وهى تنظر نحوى : حسن لا بأس على كل حال .
تماما كما كنت أفعل بنقود زوجى السائبة . كنت أعلم أن لا فائدة

من تركها معه ، فسيأخذها المتطفلون وهم كثيرون . أنت مثله
يا عزيزتى . ما أكثر الطرق التى تعرفونها معشر الرجال لصرف
النقود . اننا لا نستطيع انقاذها من أيديكم الا بأن نسرقتها نحن .
هيا . قم لتنام .

وقادتني الباراءانى الى حجرتى ، ولكننى كنت لا أكاد أرى
أين أذهب . وجلست بجانب سريرى بعد أن تمددت عليه ،
وابتسمت لييمالا وهى تقول : أعطينى كعكة من كعكاتك يا حبيبتى
تشوتى . ماذا ؟ ليس معك شيء ! لقد أصبحت أشد اسرافا من
عقيلة الحاكم . اذن فاطلبى بعضا من حجرتى .
فسألت قلعا : لكن هل تناولت غداءك ؟

فأجابت : أوه ، منذ مدة - وكان واضحا أنها كذبة .
وظلت بجانب فراشى تثرثر حول أمور شتى . وجاءت الوصيفة
وقالت لييمالا ان غداءها حاضر وقد كاد يبرد ، ولكنها لم تبد أثرا
لسماع ذلك . فقالت الباراءانى : « ألم تتناولى غداءك بعد ! كيف
هذا ؟ لقد تأخرت جدا . » . وخرجت مع بييمالا .

كان فى وسعنى أن ألمح صلة ما بين أخذ هذه الستة الآلاف وسرقة
الآخرى . ولكننى غير مشوق الى معرفة طبيعة هذه الصلة ، ولن
أسأل عنها أبدا .

ان القدر يترك حياتنا مشكلة بصورة غير كاملة ، لأنه يريد أن
نضع بأنفسنا اللمسات الأخيرة ، ونعطيها الشكل النهائى الذى
نرغبه . ولقد كان فى نفسى دائما شوق الى التعبير عن فكرة عظيمة
خلال تشكيل حياتى على ما رسم الخالق . فى هذا الجهد أنفقت
أيامى جميعا ، ولا يعلم الا المطلع على القلوب بأى قسوة كبحت
رغباتى ، وقمعت نفسى فى كل خطوة .

ولكن العسير فى الأمر هو ان حياة المرء ليست حياته وحده .
فمن أراد أن يصنعها فعليه أن يستعين بما حوله والا فشل . لهذا
كان حلمى الدائم أن أجتذب بييمالا حتى تشاطرنى صنع نفسى .
كنت أحبها بكل روحى ، اذن فلا بد أن أنجح فى كسبها لغرضى -
تلك كانت عقيدتى الراسخة .

ثم اكتشفت ان الذين يستطيعون فى سر وبلا تكلف أن يجتذبوا
ما يحيط بهم الى الاشتراك فى صنع أنفسهم أولئك ينتمون الى نوع
من جنس الانسان ، وأنا الى نوع آخر . لقد تلقيت الشرارة
الحيوية ، ولكننى لا أستطيع اعطاؤها لغيرى ، والذين سلمت اليهم

كل ما عندي أخذوا كل ما عندي ، ولكنهم لم يأخذوني معه .
ان اختباري لعسير . فطالما اشتدت حاجتي الى معين لم أجد غير
نفسى . ولكننى آليت أن أنتصر حتى فى هذا الاختبار . الأخطون
وحيدا فى طريقى الشائك الى حيث تنتهى رحلة هذه الحياة ..

بدأت أشك انى لم أخل قط من عرق استبداد . كنت مستبدا
فى رغبتى أن أصب علاقتى ببيمالا فى شكل صلب واضح كامل .
ولكن حياة الانسان لم تجعل لتصب فى قالب . واذا حاولنا أن
نشكل الخير كما نشكل المادة فانه ينتقم انتقاما رهيبا بأن يفقد حياته .
لم أدرك طوال هذا الزمن أن استبدادى اللاشعورى ذاك هو الذى
جعلنا نتباعد شيئا فشيئا . ان حياة بيمالا لم تجد مستواها الحقيقى
لأنى كنت أضغط من أعلى ، فاضطرت أن تلتمس مخرجا بهدم
شواطئها من القاع . اضطرت أن تسرق هذه الستة آلاف من
الروبيات لأنها لم تستطع أن تكون صريحة معى ، لأنها شعرت أنى
استبد بمخالفتها فى بعض الاشياء .

ان الرجال الذين تملكهم فكرة واحدة مثلى لا يفرقون بين
انفسهم وبين من يستطيعون موافقتهم ، أما من لا يستطيعون ذلك
فلا يمكنهم مسايرتنا الا بأن يفشونا . انه عنادنا الصلب الذى يدفع
أكثر الناس صراحة الى الالتواء . فى محاولتنا أن نصنع رفيقة
نفسد زوجة .

هل يمكننى أن أعود الى البداية ؟ اذن لاتبعث سبيل البسطاء .
اذن لما حاولت أن أقيّد رفيقة حياتى بأفكارى ، بل لعزفت على
نايات حبى الطروب وقلت : «هل تحبيننى؟ اذن فلتكبرى صادقة
مع نفسك فى ضوء حبك . فلتهمل مشورتى ، ولتنتصر حكمة الله
فيك ، ولتتوار أفكارى خجلى » .

ولكن هل يستطيع طب الطبيعة نفسها أن يأسو الجرح المتهتك،
الذى تفجرت فيه كل خلافاتنا المتجمعة ؟ لقد تمزق الحجاب الذى
تستطيع قوى الطبيعة الصامته وحدها أن تعمل تحت ستره ،
ويجب أن تضمد الجروح ، فهل يمكننا أن نضمد جرحنا بحبنا
حتى يأتى اليوم الذى لا تظهر فيه ندبته ؟ ألم يفت الأوان ؟ ما أكثر
الوقت الذى ضاع فى سوء الفهم ! لقد وصلنا بمشقة الى تفاهم ،
فكم نحتاج لنصحح الخطأ ؟ وماذا ان التأم الجرح آخر الأمر ؟ هل
يمكن اصلاح ما أفسده ؟

سمعت صوتا قرب الباب ، فلما التفت رأيت شبح بيمالا يتراجع

من الباب المفتوح . لابد انها كانت منتظرة عند الباب ، تتردد هل تدخل أو لا تدخل ، وأخيرا قررت أن ترجع . فهببت ووثبت الى الباب مناديا : « بيمالا » .

فتوقفت ، وكان ظهرها الى . فذهبت وأخذت بيدها وقادتھا الى حجرتنا . وانطرحت بوجهها على وسادة وأجهشت بالبكاء . ولم أقل شيئا ، ولكنى ظللت ممسكا بيدها وجلست عند رأسها . وعندما سكنت عاصفة حزنھا استوت جالسة . وحاولت أن أضمها الى صدرى ولكنها رفعت ذراعى عنها وركعت عند قدمى ، وراحت تلمسها برأسها فى خشوع . فسحبتهما مسرعا ولكنها اعتنقتهما قائلة بصوت مختنق : لا ، لا ، لا ، لا تبعد قدميك ، دعنى أتم عبادتى .

وبقيت ساكنا . من أكون لأمنعها ؟ أنا ألهها المعبود حتى أجد من عبادتها حرجا ؟

حكاية بيمالا

- ٢٣ -

كفى ، كفى ! آن ان ننشر الشراع نحو ذلك المرج العظيم حيث
يلقى نهر الحب ببحر العبادة . فى تلك الزرقة الصافية يهبط ثقل
أوحاله جميعا ويختفى .

أنا الآن لا أخاف أحدا ، لا نفسى ولا أحدا غيرى . لقد اقتحمت
النار وعبرتها ، وما كان للحريق صار رمادا ، وما بقى لايموت .
لقد نذرت نفسى لقدميه ، من تلقى كل خطيئتى فى أعماق الله .
الليلة نذهب الى كلكتا . لقد منعتنى متاعبى الباطنية طويلا من
النظر فى حاجاتى ، فلأرتبها الآن والأحزمها .

بعد لحظة وجدت زوجى قد دخل وأخذ يعاون فى اعداد الحقائق .
فقلت : هذا لا يكون . ألم تعدنى أنك ستنام ؟
فأجاب : لعلى وعدت ، ولكن نومى لم يعد ، ولم أجده فى مكان .
فرددت : لا ، لا ، هذا لا يكون أبدا . ارقد ساعة على الاقل .
- ولكن كيف تستطيعين القيام بهذا كله وحدك ؟
- اننى أستطيع ولا شك .

- حسنا ، لك أن تفخرى بقدرتك على الاستغناء عنى . ولكنى
أصارك القول انى لا أستطيع الاستغناء عنك . حتى النوم أبى
أن يوافينى وحدى فى تلك الحجرة .
ثم عاود العمل .

ولكن شاغلا جاء فى صورة خادم قال ان سنديب بابو قدم
وطلب الاذن فى الدخول . ولم أجرو أن أسأل من كان يريد . وبدأ
لن نور السماء يغمض فجأة كأوراق نبات حساس .
قال زوجى : تعالى يا بيمالا . فلنذهب ولنسمع ما يريد سنديب
أن يقول لنا . لابد أن لديه أمرا ذا بال ما دام قد عاد بعد
استئذانه فى الرحيل .

فذهبت . لا لشيء إلا أن البقاء كان أكثر حرجا . كان سنديب يحملق في صورة على الحائط ، وقال ونحن ندخل : لابد انكما تنساءلان فيم عاد الرجل . ولكنكما تعلمان أن الشبح لا يذهب حتى تتم جميع الطقوس .

قال ذلك وأخرج من جيبه شيئا مربوطا في منديله . وبعد أن وضعه على المنضدة حل العقدة . كانت تلك الجنيهاات الذهبية . قال : لا تسىء الفهم يا نيكهيل . لا تحسبن أن عدوى صحبتك قد أحالتني فجأة رجلا أمينا . لست بالذي يرجع تأثبا متباكيا ليرد نقودا حصل عليها بغير حق . ولكن ...

ولم يتم كلامه . وبعد لحظة التفت الى نيكهيل ولكنه خاطبني قائلا : بعد كل هذه الايام يا ملكة وجد شبح الندم طريقا الى ضميري الذي لم يكن يزعجه شيء . وما دمت لا أجد بدا من مصارعته كل ليلة بعد أن تذهب أول سنة من النوم فاني لا أستطيع أن أسميه شبعا من صنع خيالي . حتى أنا لا نجاة لي أو أقضى دينه . دعيني اذن أرد الحق الى يدي ذلك الروح . يا الهة ! منك وحدك دون العالمين لن أستطيع أن أنتزع شيئا . لن اتخلص منك حتى أثرب . استردى هذه !

وفيما كان يقول ذلك أخرج صندوق الحلى من تحت عباءته ، ووضعها وتركنا مسرع الخطا .

وناداه زوجي : اصغالى يا سنديب !

فقال سنديب وهو يقف قرب الباب : ان وقتى ضيق يانيكهيل . لقد سمعت أن المسلمين يروننى جوهرة لا تقدر بثمن ، ويأتمرون بى ولكنى أشعر ان من الضرورى أن أعيش . ليس أمامى إلا خمس وعشرون دقيقة لألحق بالقطار المسافر الى الشمال . وهكذا يجب أن أذهب الآن . سنتحدث فى أول فرصة مناسبة . واذا أردت نصبحتى فلا ترجىء سفرك أنت أيضا . أحييك يا ملكة ، يا ملكة القلوب الدامية ، يا ملكة الخراب !

ثم ذهب سنديب وهو يكاد يعدو . ووقفت سامدة . لم أدرك قط من قبل كما أدركت اليوم كم كان هذا الذهب وهذه الحلى تافهة حقيرة . منذ لحظة قصيرة كنت مشغولة بالتفكير فيما ينبغى أن آخذه معى ، وكيف أضعه فى الحقائب ، والآن شعرت ألا حاجة الى أخذ شيءما . انما الأمر المهم هو الخروج والانطلاق .

قام زوجي من كرسيه وجاء الى وأخذ بيدي وقال : ان الوقت

يتقدم ، ولم يبق لدينا متسع لنتم معدات الرحلة .
وهنا دخل تشاندرانات بابو فجأة . فلما وجدنا مجتمعين تراجع
لحظة ثم قال : سامحيني يا أمي الصغيرة ان تطفلت . نيكهيل ، ان
المسلمين ثائرون في مقاطعة هاريش كوندو !
فقال زوجي : أنا ذاهب .

وجادلته وأنا أمسك بيده : « ماذا تستطيع أن تصنع هناك ؟ » .
وتوسلت الى أستاذة : « ألا تأمره ألا يذهب ؟ » .
فأجاب : يا أمي الصغيرة . الوقت لا يسمح بغير ذلك .
وقال زوجي وهو يغادرنا : لا تخافي يا بيमالا .
وعندما ذهبت الى النافذة رأيت زوجي يركض جواده ولا سلاح
بيديه .

وبعد دقيقة أقبلت الباراراني مسرعة وصاحت : ماذا فعلت
يا تشوتي يا حبيبتي ؟ كيف تركته يذهب ؟
وقالت ملتفتة الى أحد الخدم : ناد رئيس الديوان حالا !
ولم تكن الملكات يظهرن أمام رئيس الديوان ، ولكن الباراراني كانت
في شغل عن مراعاة التقاليد . قالت حالما جاء رئيس الديوان :
أرسل فارسا ليعيد المهرجا على الفور !
فقال رئيس الديوان : لقد توسلنا اليه جميعا أن يبقى يا أمنا
الراني . ولكنه أبى أن يلتفت .
فصاحت سلفتي بجنون : ابعثوا اليه ان الباراراني مريضة ،
وانها على فراش الموت !
وعندما خرج رئيس الديوان التفتت الى ثائرة : أنت يا ساحرة ،
يا شيطانة ، لم تستطيعي أن تموتي أنت ، ولكنك آبيت إلا أن
ترسله الى حتفه ! ..

وبدا ضوء النهار يذبل ، وغابت الشمس خلف شجرة
« الساجنا » المزهرة بأوراقها التي تشبه الريش . ما زلت الى
اليوم أرى كل لون من ألوان ذلك الغروب . كان على كلا جانبي
القرص الغارب ركام من سحب فبدا كطائر عظيم نشر جناحين لهما
ريش نارى . وخيل الى أن ذلك اليوم الرهيب يطير ليعبر محيط
الليل .

واحلوك الظلام . وكانت ضجة بعيدة تنبثق في موجات تتردد
تحت جناح الليل ، كالسنة النار في قرية بعيدة أصابها الحريق ،
تتب كل حين فوق الافق .

ورنت دقائق صلاة المساء من معبدنا . وكنت أعلم أن الباراء راني جالسة هناك وقد ضمت راحتيها في صلاة صامتة ، ولكني لم أستطع أن أبتعد عن النافذة خطوة .

وابهتت الطرق ، والقرية من ورائها ، وستار الاشجار البعيد وراء القرية . وكانت البركة في اراضيها شاخصة الى السماء بلمعان كاب كعين ضير ، وعلى اليسار كان البرج يبدو مشربيا ليلمح شيئا يحدث .

أن أصوات الليل تتنكر في شتى الصور . ينكسر غصن فتحسب أن أحدا يجري هاربا من الموت . ويصطفق باب فتحالها دقة مفاجئة من قلب عالم مدعور .

أنوار تضوء تحت ظل الاشجار البعيدة ثم تختفي . حوافر جياد تدق من حين الى حين ، ثم يتبين انها لفرسان يخرجون من أبواب القصر .

ولازمني الاحساس بأنني لو استطعت فقط أن أموت لانتهى كل هذا الاضطراب . فطالما بقيت حية ستظل آثامي في عنفوانها تنثر الخراب في كل جانب . وتذكرت المسدس في صندوقي . ولكن قدمي أبتا أن تزايدا النافذة للبحث عنه . ألم أكن أنتظر قدرى؟ دق جرس الساعة عشرا في مهابة وجلال . وبعد قليل لاحت على البعد مجموعات من الانوار ، وزحف حشد من الناس على الطرقات في الظلام نحو أبواب القصر كثعبان عظيم .

وأسرع رئيس الديوان الى البوابة لدى سماع الصوت . فاذا بفارس يركض جواده . فسأله : ماذا وراءك يا جاتا ؟ فكان الجواب : شر .

استطعت أن أسمع هذه الكلمات بجلاء من نافذتي . ولكنها أردفت بهمس لم تستطع أذناي التقاطه .

ثم أقبلت محفة يتبعها سرير . وكان الطبيب يسير بجانب المحفة . وسأل رئيس الديوان : ما رأيك يا دكتور ؟ فأجاب الطبيب : لا أستطيع أن أحكم الآن . ان الجرح في الرأس خطير .

— وأمويا بابو ؟

— أصيب برصاصة في القلب . لا أمل في حياته .

تمت

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

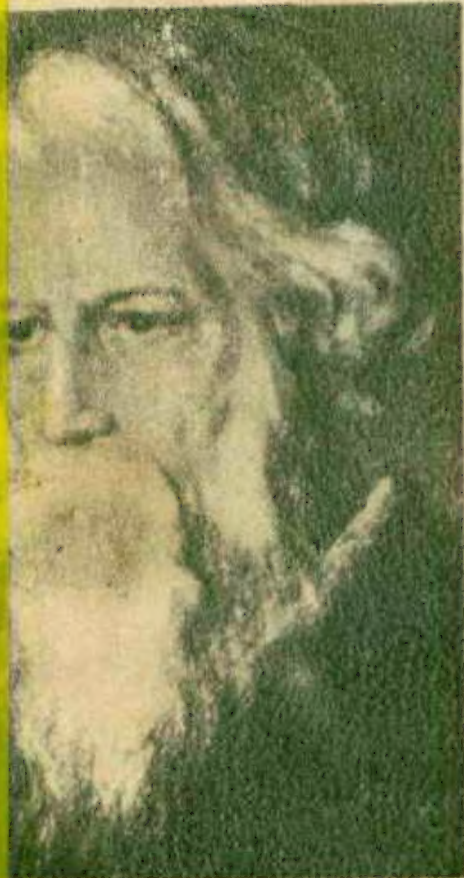
السيد / هاشم علي نحاس
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية
جدة :

M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.
البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND.
انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية



رابندرانات طاغور

« البيت والعالم » إحدى الروايات
التي كتبها الشاعر الهندي
والموسيقي والمفكر والروائي
الوطني الهندي العظيم رابندرانات
طاغور. وقد كان طاغور واحدا من
أكبر الفنانين والمفكرين الذين أنجبهم
القرن العشرون في العالم كله ، وكان
يكتب أدبه باللغة البنغالية « وهي لغة
هندية محلية ، ومع ذلك فقد كان
لهذا الأدب قيمة عالمية كبيرة ، لقد
كان طاغور يترجم نتاجه الأدبي
إلى الإنجليزية التي عرفها معروفة
ممتازة عندما كان يدرس القانون
بانجلترا وهو طالب صغير . كما
كان أديب فرنسا الكبير أندريه جيد
يترجم له أعماله إلى الفرنسية ، وقد
نال طاغور جائزة نوبل سنة ١٩١٣
لما في أدبه من قيم إنسانية رفيعة .

وقد ظل طاغور طيلة حياته « ١٨٦١ -
١٩٤١ » علما من أعلام الحرية والفن
الإنساني السامي وكان معلما يؤمن
بدور الأديب والفنان في تغيير الحياة
والارتفاع بمستوى الإنسان ولذلك
شارك في الحركة الوطنية الهندية
مشاركة كبرى كما أسس سنة ١٩٠١
مدرسة « دار السلام » التي تحولت
إلى جامعة منذ سنة ١٩٢٢ ، وقد زار
مصر سنة ١٩٣٦ .

و « البيت والعالم » هي إحدى
روائع طاغور الروائية ، وقد ترجمها
الناقد الفنان الدكتور شكري عياد
استاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة
ومن هنا جاءت الرواية تحفة فنية
رائعة في ترجمة عربية رائعة.